

عاهدوا وما بدَّلوا



عهود موثَّقة بالكتاب والسنة

لا مناص لسالك طريق الجهاد من العلم والعمل بها



تأليف :

أبي عبد الله محمد منصور

○ أمير جيش المجاهدين في العراق ○



عاهدوا وما بدّلوا

عهود موثَّقة بالكتاب والسنة

لا مناص لسالك طريق الجهاد من العلم والعمل بها

تأليف

أبي عبد الله محمد منصور

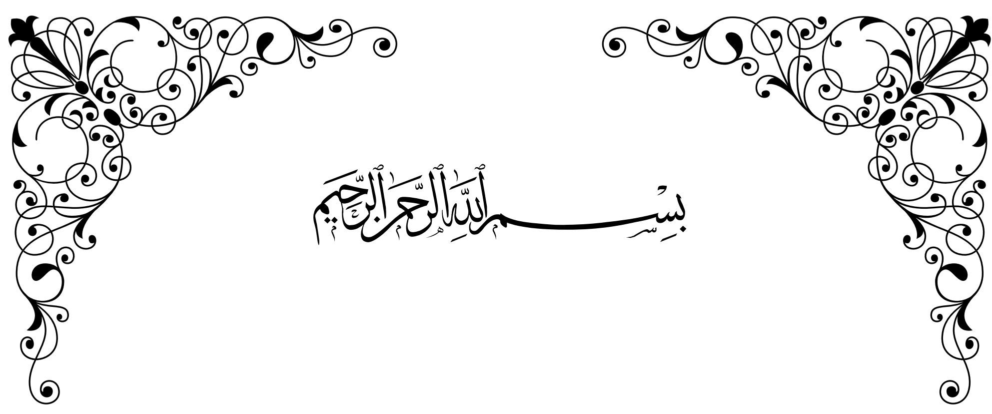
- أمير جيش المجاهدين في العراق -

نخبة الفكر

ذو الحجة 1435 - أكتوبر 2014

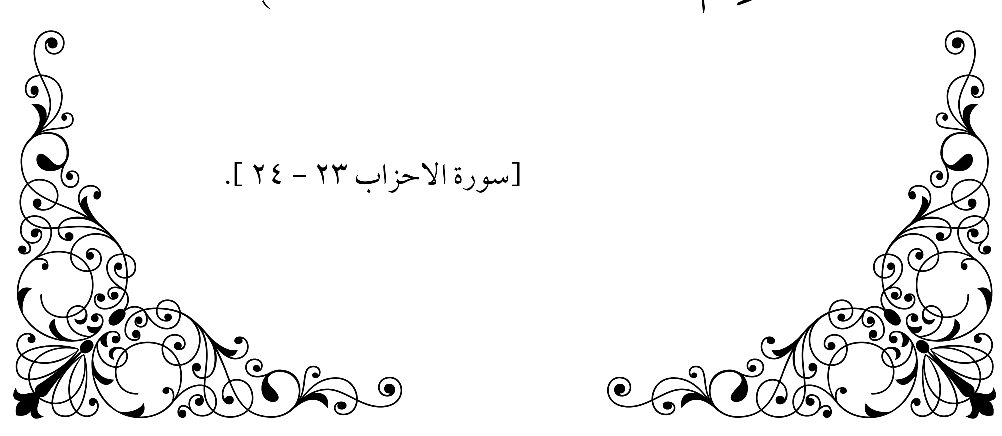
سنة الطبع

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م



قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

[سورة الاحزاب ٢٣ – ٢٤].



الإهداء

إلى المجاهدين من أهل الشام، صفوة وخيرة الناس في هذا الزمان،

وأخص منهم بالذكر **حركة أحرار الشام الإسلامية** التي لقنت الباطنيين

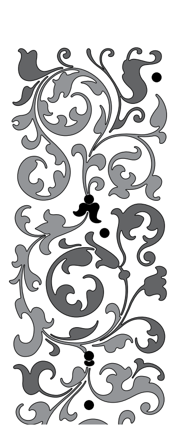
الزنادقة دروساً لن ينسوها...

وإلى جميع شهداء الأرض المباركة الذين

عاهدوا ولم يبدلوا -نحسبهم كذلك-،

فلم يسلكوا طريق "**الدواعش**" الخوارج

ولا طريق الخوالف.



المقدمة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

منذ أن أنزل الله هذه الآية، وكلُّ واحد من المنتظرين ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ يحدِّث نفسه بحديثٍ عن مصير نفسه، عينٌ راجية تتطلَّع إلى كواكبَ ممن مضوا وقضوا نحبهم ولم يبدِّلوا تبديلاً، وعينٌ تَطَّلِعُ على أكوامٍ تعرفهم ممن نقضوا عهدهم، وقضوا على سوء الختام نحبهم، بعدما بدَّلوا تبديلاً.

ويبقى قلب المنتظر مشفقًا على مصير نفسه أن يصيبها تبديلُ مَنْ بدَّلوا تبديلاً، ولسانُ حال الناظر في الآية المنتظر النهاية يقول: يا رب، إذ أقرأتني هذه الآية، وأنا الآن ممن ينتظر، فاجعل وفائي كوفاء سعد بن الربيع وأنس بن النضر وعكرمة وبقية الصحابة ومن تبعهم على هذا الطريق بإحسان ممن قضوا نحبهم، وما بدَّلوا تبديلاً.

أيها القارئ، أيها المجاهد: إذا عرفتَ أنَّ معنى العهد عند العرب هو: كل ما عوهد

اللهُ عليه، وكل ما كان بين العباد من المواثيق[١]، فاسترجع الآن ما مرَّ بك من عهود عاهدتَ الله عليها في مكان ما، وزمان ما، وستجد أنك عاهدت الله عند الكعبة، أو عاهدته يوم عرفة، أو عاهدته في بيت من بيوته، أو عاهدته في الثلث الأخير من الليل، أو عاهدته وأنت تقرأ كتابه، أو عاهدته يوم مرَّت بك قصصُ عهود مَنْ لم يبدِّلوا تبديلاً، أو عاهدته يوم نُكب الإسلام في مكانٍ ما في هذا الزمان، أو عاهدته لما رأيتَ الصليب يرتفع على أرضك، أو عاهدته حين رأيتَ الأعراض تُهتك، أو عاهدته بعد معصية أو بعد طاعة، أو عاهدته عند جنازة، أو عاهدتَ الله وأنت على جرف القبر، أو عاهدته وأنت في ذروة خشوعك وقربك من ربك، أو عاهدته لما رأيت جند الشيطان من كل مكان يتكالب على الشام يريد قطع رأس الإسلام... وقد ربط الإسلام، وقيَّد أعضاءه، وأشبعه طعنات، وأنهكه نزفًا، ثم قدم السكين في يد النصيريين وإخوانهم وصرخ بهم: هيا اذبحوا على بركة النجمة والصليب.

تذكَّر في لحظتك هذه موقف العهد وعهد الموقف، تذكَّره، فلقد ذَكَّر اللهُ الصحابةَ عهدهم في الحديبية حين بايعوا رسولَ الله ﷺ بيعة الرضوان، وقد كان الموقع تحت الشجرة تحديدًا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٣/ ٣١١.

تذكَّرْ أين عاهدت الله، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

اذكرْ موقع عهدك، وذكِّر به نفسك.

فلقد ذكَّر به رسولُ الله ﷺ مَن فرَّ عنه وتركه حين أمر العباسَ أن ينادي: (أصحاب السمُرة...)[١].

وهل ينسى واحدٌ من المعاهدين بعدما ذكَّرهم الله بموقع العهد؟!

وهل تنسى النفوس بيعتها التي كان ثمنها بيع نفسها؟! يقول سلمة بن الأكوع: (بايعنا رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية على الموت)[٢].

أيها المجاهد في الشام وفي بلاد الإسلام: تذكَّر، فلربما كانت صيغة عهدك بلفظ العهد الصريح، أو كانت بمعنى العهد الصحيح، أو كانت بكلمة أو بقصيدة أو كانت ببيعة..

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥) (٧٦) (٧٧)، وأحمد ١/ ٢٠٧. ملاحظة: إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما فإني اقتصر في تخريجه على الكتب الستة ومسند أحمد، وإن لم يكن فيهما أو في أحدهما فإني أخرِّجه مما تيسر لي من كتب السنة المشهورة دون توسع، وقد انتفعت كثيرًا من جهود العلماء المعاصرين كالعلامة أحمد شاكر رحمه الله والعلامة الألباني رحمه الله والشيخ شعيب الأرنؤوط حفظه الله والشيخ عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله وغيرهم. وجميع أحكام الشيخ أحمد شاكر أُخذت من تحقيقه لمسند أحمد، لكني لم أقتصر على تصحيحه مع علمه وفضله؛ لقول العلامة الألباني عنه في «تمام المنة» ص٧٥: (ويصحح أحاديث لم يُسبق إلى تصحيحها)، مع وصفه له بالعلامة، ونقله لكثير من أحكامه. وأخذتُ أحكام الشيخ عبد القادر الأرنؤوط من تحقيقه لجامع الأصول (الذي ضمَّ مع الصحيحين موطأ مالك وسنن أبي داود والترمذي والمجتبى للنسائي)، أما أحكام العلامة الألباني والشيخ شعيب الأرنؤوط فأُخذت من تحقيقاتهم الكثيرة المعروفة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٠) و(٤١٦٩) و(٧٢٠٦) و(٧٢٠٨)، ومسلم (١٨٦٠) (٨٠)، وأحمد ٤/ ٤٧ و٥١ و٥٤، والترمذي (١٥٩٢)، والنسائي ٧/ ١٤١.

تذكَّر كيف كانت؟ وأين كانت؟ يكفيك أنَّ الله سبحانه قد شهدها.

العهد في الموقف سُنَّة: فلقد عاهد موسى عليه السلام ربَّه فورًا في المكان الذي قَتل فيه الرجلَ، ودون تأخير: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧ ﴾ [القصص].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (غزا نبيٌّ من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل مَلَك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها ولَّما يبنِ بها، ولا أحد بنى بيوتًا لم يرفع سقوفها، ولا آخَرُ اشترى غنمًا أو خلفًا وهو ينتظر ولادها. فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة، وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا. فحُبست حتى فتح الله عليهم، فجمع الغنائم، فجاءت، يعني النار، لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إنَّ فيكم غُلولاً، فليبايعني من كل قبيلة رجل. فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك. فلزقت يد رجلين أو ثلاث بيده، فقال: فيكم الغلول. فجاؤوا برأس مثل رأس بقرة من الذهب، فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحلَّ الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا، فأحلَّها لنا)(١).

وعاهد أصحابُ رسول الله ﷺ يوم الحديبية تحت الشجرة، وحفظ الله لهم موقع بيعتهم، فقال سبحانه: ﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٤) و(٥١٥٧)، ومسلم (١٧٤٧) (٣٢)، وأحمد ٢/ ٣١٧ و٣١٨.

فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

هكذا كان دأبُ أصحابِ رسول الله ﷺ، كلما اقتضى الموقف صبرًا فوق الصبر، وهمة فوق الهمم، ووثبة فوق القمم، وثباتًا لرجلٍ يفوق ثبات أمم كانوا رضي الله عنهم هناك، وكانوا هم المعاهدين الصادقين الأوفياء.

كم كانت كلمات العهد عظيمة قُبيل معركة بدر، حين وقف رسول الله ﷺ ينتظر سماعها في موقفها المحدد، فقاموا وقالوا لله ما أقر عين رسول الله ﷺ.

ومن قبل بدر عاهدوا، وكان موقع العهد هو العقبة، فالتصق اسم المكان في سجلات التاريخ التصاق البيعة نفسها فيه، فأصبحت تسمى «بيعة العقبة».

وبعد البيعة، كانت ثمة عهود فردية يطلقها الرجل في لحظة معينة، وحالة معينة، ومكان معين، ويبقى الوفاء بذاك العهد شاغله، ليله ونهاره، ينتظر فرصته لينقض انقضاضة الذي لا يقف له شيء في الدنيا، حتى يلقى الله جلَّ وعلا وقد وفَّى بذلك العهد.

عاهد أنس بن النضر رضي الله عنه بعدما فاتته غزوة بدر، فقال كلمات معدودات، تلك هي: (لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرينَّ اللهُ ما أصنع...)[1].

عاهد القراءُ ربَّهم حين اجتاحت جيوشُ مسيلمة جيشَ المسلمين، حتى دخل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٥) و(٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣) (١٤٨)، وأحمد ٣/ ٢٠١، والترمذي (٣٢٠١).

المرتدون خيمةَ القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه، فحفر القراء لأنفسهم في الأرض إلى الرُّكب، وكان منهم العَجب، فمن ذلك ما جاء في البداية والنهاية: (وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم، ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة، بطل السحر اليوم. وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنَّط وتكفَّن، فلم يزل ثابتًا حتى قُتل هناك. وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نُؤتى من قبلك؟ فقال: بئس حامل القرآن أنا إذن. وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس، عضُّوا على أضراسكم، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدمًا. وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلِّمه بحجتي. فقُتل شهيدًا رضي الله عنه، وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن زيِّنوا القرآن بالفعال. وحمل فيهم حتى أبعدهم، وأصيب رضي الله عنه، وحمل خالد بن الوليد حتى جاوزهم، وسار لجبال مسيلمة، وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله، ثم رجع ثم وقف بين الصفين ودعا البراز...)[1].

ورسالة الحفر إلى الركب تعني الثبات، وتعني حسم وارد التولي عن الزحف من الفكر حسمًا، إنها ممارسةٌ للشهادة، تبعث للجيش كلِّه: إنا قد دفنا بعضنا في الأرض بإرادتنا، فأتموا دفننا؛ لتبقى قبورنا منارات الثبات للأجيال. هي رسالة لإخوانهم المجاهدين: إنَّا لا نريد أن نشارككم في غنيمة، ولا اللحاق بالعدو إن ركبتم ظهره،

(١) البداية والنهاية ٦/ ٣٢٤.

كفانا جزاءً أنا نردُّ الهجمة عن الإسلام، ولتقطفوا أنتم الثمرة من بعدنا، ولتأخذوا الغنائم والسلب، فعزاؤنا بحفظ ظهر الإسلام.

وعاهد ابن رواحة في مؤتة حين شمَّ في نفسه رائحة التردد، وأقسم عليها لتنزلنَّ، وتدخل فورًا الجنة، فما كان لنفسه إلا أن تتقدَّم وتقتحم وتسقط هناك في مؤتة؛ لتحلق من هناك في أعلى سماوات الجنة في سقف عرش الرحمن.

وعاهد عكرمة بن أبي جهل في وقعة اليرموك حين رأى جيوش الروم بحرًا لا يقطعه النظر، فطلب المبايعة لا على الجلد والجدِّ والصبر والثبات فحسب، بل المبايعة على الموت...

وفلسفة هذه البيعة: أننا نحن المبايعين رأس حربة الإسلام اليوم، وقد قطعنا الاستناد على الجيش كله، بل نحن الذين يستند على عملنا الجيش كله، نريد الموت؛ ليحيا الإسلام وتحيوا أنتم.

ولو وجدنا طريقًا لزلزلة حشود الكفر غير هذا الطريق لفعلنا، ولكن لتكن مجرد زلزلة، ولتذهب أرواحنا، وإن لم يكن نصرًا نهائيًا، فلله درُّ أولئك الرجال.

وفار تنور الصليب في العراق ثم فار في الشام، وفارت له الباطنية هنا وهناك، وفارت معه هممُ المجاهدين، وأطلق الصادقون عهودهم؛ منفردين ومجتمعين، معلنين ومُخْفين... وقد علم كلُّ معاهد أنَّ الله في عليائه قد شهد عهده سبحانه جلَّ في علاه.

ولا تزال أرض الإسلام تُفرز المعاهدين، من معاهدٍ باع عهده مع الله فخسر الدنيا

والآخرة، إن مات على ذلك، قد ذكر الله بيعته وشروته في القرآن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٧٧]. إذ كان الثمن البديل الذي باعوا به عهدَ الله هو الطمع في أمان الأيام، أو لقمة من طعام، أو مصروف أيتام، قال سبحانه: ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٥- ٩٦].

أما المعاهد الأعلى فذاك واحد من اثنين: أما الأول فقد قضى نحبه، وختم بختم الشهادة عهده، ولاقى بالوفاء ربه. وأما الثاني فمشفق على عهده، مشتاق للقاء ربه، منتظر ما يبشِّره به رسل الله جلَّ جلاله: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فالبشارة تشمل من قضى نحبه، كما تشمل من ينتظر، بشرى من الله ستقع، وما كان لهذه البشارة أن تكون لو خصَّ الله بها من قضى نحبه دون من ينتظر.

لا يحسبن من لم يعاهد الله تعالى صراحة أنه لم يعاهد الله، أو أنه غير ملزم بعهده، أو أنَّ في الأمر سعة، أو أنه في فسحة، يكفي من حسب هذا الحسبان، أنه خارج عن حسبة القرآن: ﴿ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ .

فما العهود التفصيلية إلا من ذاك العهد الأول، العهد الأشمل: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ

مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ويحفظ النبي ﷺ للعهد الأول موقعه فيقول: (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمَانَ- يعني عرفة- فأخرج من صلبه كلَّ ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذرِّ، ثم كلمهم قِبلاً، قال: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢- ١٧٣][(١)].

يكفي المتخلِّف عن العهد أنَّ الله يشهد عهود أوليائه، ولا يشهده معهم! وما يدريك أنَّ الله حرَمه ذلك المشهد؛ لأنه كرهه وكره حضوره، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾.

يكفيه أنه محروم من كل ما يستحقُّه أهل البيعة وأهل العهد مع الله من معونة الله

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٧٢، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٩١)، والحاكم ١/ ٢٧-٢٨ و٢/ ٥٤٤، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص ٣٢٦-٣٢٧، وصححه الألباني، وقال شعيب: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كلثوم بن جبر، فمن رجال مسلم، ووثقه أحمد وابن معين، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال النسائي: ليس بالقوي. ورجح الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ١٠٥: وقفه على ابن عباس.اهـ. وقال الألباني في «الصحيحة»: (هو كما قال -أي ابن كثير- رحمه الله تعالى، ولكن ذلك لا يعني أنَّ الحديث لا يصح مرفوعًا، وذلك لأنَّ الموقوف في حكم المرفوع، لسببين: الأول: أنه في تفسير القرآن، و ما كان كذلك فهو في حكم المرفوع... الآخر: أنَّ له شواهد مرفوعة عن النبي ﷺ عن جمع من الصحابة...).

لهم على الثبات، ونزول السكينة عليهم عند الملمَّات، وتنَزُّل الملائكة عليهم بالبشائر من الله عند الممات...

نحن لم نطلب لقاء العدو كما طلبه بنو إسرائيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

لكن ماذا نصنع وقد نزل العدوُّ بديارنا، وهتك الأعراض، وشرَّد، وقتل، وأحرق، وهدم، وضرب، ودمَّر؟!

فهل يسعنا ترك العهد، والمقتضى قد تحقق؟!

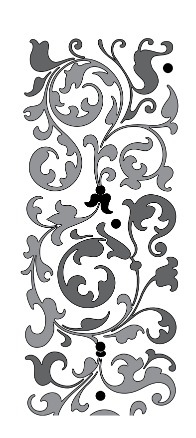
ما أحوجنا للعهود في أيام صِفَتها المشتركة هي التقلب والتغير؛ لتكون مُثَبِّتًا للمعاهد كلَّما ضعفت نفسه عن الثبات، وازدادت الضغوط لأجل القعود.

وأما من لم يثبت وهو معاهد فأنى له أن يثبت من غير عهد، وعدم العهد عنوان النقض، ونية النفاق؟!

فالعهدَ العهدَ حتى قضاء النحب.

ليتحقق فينا قوله تعالى:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٢٣].



الفصل الأول

عاهدوا وبدَّلوا تبديلا!

إقعد فإنما أنت امرأة!

من مواقعنا الجديدة في ميادين الحياة، بعد مواقعنا العتيدة في ميادين الجهاد، بعد قرار التخلُّف والقعود؛ بل بعد الهويِّ والهبوط عن ذروة السنام، مِن على راحلة الإسلام، منشغلين بالتكسب كما يتكسب عامة البشر، متَّبعين أذناب البقر، قد ولَّينا ميدان الجهاد الدُّبُر، متشاغلين عنه بالمال والولد، والحرث والزرع والرعي وطول الأمد!

أرى الآيات التي كانت تمرُّ عليَّ هي الآيات، الأحاديثُ هي الأحاديثُ، العدوُّ هو العدوُّ، الصحبُ هم الصحبُ، فما لي لا أملك الإقدام خطوة، ولا أجد في نفسي رغبة في الجهاد وليس لي عليه قوة؟! فإذا هفت الهمة صُعُدًا إلى العلوِّ شعرتُ أنَّ الأرض كلها أصبحت غِلاًّ، فهوت بي نحو الدنوِّ، فعادت النفس أسفل مما كانت!

أشعر كما يشعر غيري من الخوالف بأنَّ التغير الذي أصابنا لم يكن مجرد تخلُّف الجسد عن ميدان الجهاد، ولا مفارقة الصحب أو مقارعة الصفق بالأسواق.

لا... إنه نوع آخر في الهبوط، وشعور آخر في الدناءة، وحياة أخرى في النتانة، وإن أُلبسنا عليها أحسن الثياب، ووُسمنا بأحسن الألقاب.

تقول: صِف لي التغير الذي أصابكم؟ أقول: لا أستطيع وصْفه!

تقول: اذكر أبعاد التغير وحدوده؟ أقول: لا حدود له في كياني!

تقول: مثِّله لي، قرِّبه لي؟ أقول: لوكان تغيُّرًا في البدن لمثلته بالشلل، أو أنه المرض الخبيث نخر العظم وجرى في الدم، أو هو العطب الذي عطَّل كلَّ عضو وعصب!

أجد تغيُّر التخلف عن الجهاد في الهواء والماء والنور والظلمة، وفي الوجوه، ووجوه الوجوه، فكل شيء بعد ذاك الميدان تغيَّر.

إنه العطب الذي دمَّر همتي، وأتلف نيتي، وخرَّب فهمي وذاكرتي.

فإن أردتَ أن أوضِّح لك ذلك، فاستمع لحديث نفسي في لحظة صدقها، وإن كانت كذوبة خصيمة مبينة في حياتها.

إني لأستمع لحديث نفسي مع نفسي، استمع لحديث عينيَّ وأذنيَّ، استمع لحديث الجوارح يومي ذاك، وحديثها يومي هذا!

أين كانت أنوفنا تشمخ، ولمن أصبحت ترضخ؟!

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ

نَقْعًا ﴾ [العاديات: ١- ٤].

قال لي مُبدِّل: لقد صنعتْ فينا هذه الآيات من قبل ما صنعت، بينما لا أجد لصداها في صدري رجع صدًى، وأنا أستمع إليها اليوم!

كم كانت أنوفنا تعظِّم ذاك الغبار؛ غبار الأرجل وهي تشتدُّ في سبيل الجهاد!

غبار السيارات خلفنا، ونحن نطير بها على بساط الأرض، نبتغي الموت مظانه.

ما أحلى الوجوه المغبرَّة بغبار الجهاد، ينظر بعضها إلى عيون بعض!

ما أطيب الثياب المشبعة بهذا الغبار!

نعم والله، كنا نعدُّه عملاً عظيمًا، كنا نحبه. كان ذاك الغبار أحبَّ إلينا من عطر الجمعة نتطيَّب به لها، وأطيب من طيب الإحرام نتضمَّخ به للإحرام والإحلال، كأنها رياح الجنة هبَّت علينا، فحثت في وجوهنا ذاك الغبار، أو كأنه السعوط نستفُّ منه؛ ليحمي اللهُ به أجوافنا من النار.

إيــه! كم كان واعظ الجهاد يُهيِّج قلوبنا حين يقول: (ولا يجتمعان في جوف مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم)[1].

---

(١) أخرجه الحميدي (١٠٩١)، وسعيد بن منصور (٢٤٠١) و(٢٤٠٢)، وابن أبي شيبة (١٩٧١٠) و(١٩٨٣٠)، وأحمد ٢/ ٢٥٦ و٣٤٠ و٣٤٢، والبخاري في "الأدب المفرد" (٢٨١)، والترمذي (١٦٣٣) و(٢٣١١) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢٧٧٤)، والنسائي ٦/ ١٢-١٤، وفي "الكبرى" (٤٣١٧)، وابن حبان (٣٢٥١) و(٤٦٠٦) و(٤٦٠٧)، والطبراني في "الأوسط" (١٩٣٢)، وفي "الصغير" (٤١٠)، والحاكم ٢/ ٧٢ و٤/ ٢٦٠، والبيهقي ٩/ ١٦١، وفي "الشعب" (٧٧٩) و(٣٩٥٢) و(١٠٣٣٥) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب

كنا نستشعر الغبار واقيًا من جمر جهنم، فنستكثر منه؛ كما في حديث أبي عبس - عبد الرحمن ابن جبر- عن النبي ﷺ: (من اغبَّرت قدماه في سبيل الله حرَّمه الله على النار)[١].

كيف لا نعظِّمه، والله يعظِّم دوابَّ الجهاد تعظيمًا، فيحلف- جلَّ جلاله- بالعاديات للجهاد، ويذكر ضَبْحها، وقَدْحها، ونَقْع غبارها[٢]؟!

أقول لكم: هذا الشعور في داخلي تحوَّل.

لكن لا أدري والله كيف تحوَّل!

الميدانُ هو الميدانُ! الرجالُ هم الرجالُ! الجهادُ هو الجهادُ! العدوُّ هو العدوُّ! الغبارُ هو الغبارُ! لكنَّ الأنوف تغيَّرت، فأصبح غبار الجهاد يزكِّمها، وعفيره يؤذيها!

فلقد وَجَدَتْ أنوفُنا دواءَها الجديد في أنواع الطيب النفاذ، تتعطَّر به إلى المضايف والوظائف، يفوح منها عبقُه، وجدتْ دواءها في طيب الزوجة المثير! وطيب الرجال وأشباه الرجال!

أليس هذا ماضيكِ- يا نفس- وهذا واقعك اليوم؟!

وعبد القادر.

(١) أخرجه البخاري (٩٠٧) و(٢٨١١)، وأحمد ٣/ ٤٧٩، والترمذي (١٦٣٢)، والنسائي ٦/ ١٤.

(٢) قال ابن كثير ٨/ ٤٦٥: (يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت في سبيله فَعَدت وضَبَحت، وهو: الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو. «فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا» يعني: اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار. «فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا» يعني: الإغارة وقت الصباح، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحًا ويتسمَّع أذانًا، فإن سمع وإلا أغار. «فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا» يعني: غبارًا في مكان معترك الخيول).

لكن أيثيركِ هذا الكلام نحو العودة إلى الميدان- ميدان الجهاد- حتى وإن كان في العودة احتمال حتفِك؟

أقولها بملء الفم لكل قاعد غير معذور بعذر شرعي: اقعد فإنما أنت امرأة!

قاتل اللهُ عقبةَ بن أبي مُعيط، كيف استطاع أن يُخرج مَن ظنَّ أنه إذا خرج مع الخارجين فهو مقتول؟!

قال ابن إسحاق: (وحدثني ابن أبي نجيح، أنَّ أمية بن خلف كان قد أجمع القعود، وكان شيخًا جليلاً جسيمًا ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط، وهو جالس في المسجد بين ظهرانَي قومه بمجمرة يحملها، فيها نار ومجمر، حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا علي استجمر، فإنما أنت من النساء. قال: قبَّحك الله، وقبَّح ما جئت به. قال: ثم تجهَّز، وخرج مع الناس)[1].

اقعد خلف الرجال مع القاعدين والقاعدات، وتعزَّ بكثرتهن من حولك، فالمحصنات الغافلات خير من الرجال الخوالف.

لقد تغيَّر الأنف وتغيَّر، فلقد كنتُ أرى أكبر أنف في الكفر أحقر من روثة يدحرجها الجعلان بأنفه، كما في حديث: (ليكونَنَّ أهون عند الله من عِدَّتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن)[2].

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٥٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٦١ و٣٦٦ و٥٢٣، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) وقال: هذا

وأصبح اليوم أنفي يبتغي الشموخ بتلك الأنوف الموسومة بالكفر، الشامخة عليَّ وعلى بني قومي!

أصبحتُ بعد ذاك الشموخ أتشرف بتوسيط الوسطاء لعظيمٍ يَعْرف مَنْ يعرف عظيم قومي الزنديق!

أنا اليوم أكتفي بفتات موائد السرَّاق يلقونها إليَّ من خلف ظهورهم، مستشعرًا العجز عن شكرهم؛ لأنهم قبلوا شفاعتي، أو صدَّقوا شهاداتي، أو استصدروا جواز سفري، أو قبلوا وظيفتي، أو وظيفة من شفعتُ له، أو وقَّعوا عقد صفقة أو وكالة تجارية لي! مبتغيًا تَرْكَهم متابعتي، مظهرًا كلَّ براءة من جهادي ومقاومتي.

إيـه: لو كان الصبر على الحرث لكان الأمر أهون، لكنَّ الأنف رضي بفُساء البقر حين قبل المسير خلف أذناب البقر، فعن ابن عمر، قال: قال ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذُلاًّ لاينـزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[1].

حديث حسن. والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٤٥٨)، والبيهقي ١٠/ ٢٣٢، وفي «الشعب» (٤٧٦٣) و(٤٧٦٤) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ. وحسنه الألباني وعبد القادر، وصححه شعيب لغيره، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح!

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٨ و٤٢ و٨٤، وأبو داود (٣٤٦٢)، والبزار (٥٨٨٧)، وأبو يعلى (٥٦٥٩)، والطبراني (١٣٥٨٣) و(١٣٥٨٥)، والبيهقي ٥/ ٣١٦، وفي "الشعب" (٣٩٢٠) و(١٠٣٧٣)، وصححه ابن القطان في "بيان الوهم والإيهام" (٢٤٨٤)، وحسَّن شيخُ الإسلام ابن تيمية إسنادين من أسانيده في "مجموع الفتاوى" ٤/ ١٩ و٦/ ٤٤، وقال الحافظ في "بلوغ المرام" عن إسناد أبي داود: في إسناده مقال. وقال عن إسناد أحمد: ورجاله ثقات. والحديث صححه أحمد شاكر والألباني وعبد

متى أصبحت الرِّجْل تُشرِّف الرَّجل؟

إنه الجهاد، ويا للجهاد الذي جعل غبار أرجل دواب الجهاد يُشرِّف الرجال عند الله، يشرِّفهم في الدنيا والآخرة!

فإذا أردتَ أن تعرف شرف ذاك الغبار، فانظر لمن يموت ولم يمسه بالشرف ذاك الغبار، وقد كان يقدر على ذلك! بينما تَلطَّخ بغبار العواصف والملاعب والمصانع!

وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾.

فأين كانت أنوفنا تشمخ، ولمن أصبحت ترضخ؟!

أين العيون المشرفة من العين المستشرفة؟!

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (ولا يجتمعان في جوف مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم)[1].

كم كنتَ تقلِّب النظر في الظلمات، وتستطيب الكرى في الكربات؛ لأجل أن لا يفوتك التسجيل في صفحة: من حُرِّمت عيونهم على النار؟!

كم كنتَ تقف مترصِّدًا بعينيك صيدًا خلف تجمعات العامَّة أحيانًا، وتسير مع المارين أحيانًا أخرى، تنظر بعينيك هاتين كما ينظرون، وتتلفَّت كما يتلفتون، لكنَّ الله تعالى يعلم أنَّ بصرك- آنذاك- يرقب عدوًا من أعدائه، يتقلب في بلادك مستكبرًا،

القادر، وحسّنه شعيب الارنؤوط بمجموع طرقه.

(١) حديث صحيح، وقد سبق تخريجه.

ولسان حالك يقول: لأتقربنَّ إلى الله بفلق هامته، أو إبلاغ إخواني الكماة عما رأت عيناي من قافلة العدو المتهادية في أسواقنا أو شوارعنا؟!

وكم كانت هذه العين حاملة للبشائر بصيدٍ عظيم لإخواني المجاهدين؟!

وكانت هذه العين حارسة لإخواني المرهقين عند نومتهم حتى يستيقظوا، وكنتَ ترى أنَّ الله تعالى يرعاها حتى فيما يريك من رؤى المنام، ألم يقل الله تعالى للأولين: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾؟! [الانفال:٤٣]. فكيف لا يحميها من النار بفضله ورحمته؟!

إيــه أيتها النفس: أراكِ- اليوم- تغسلين وميض نور الراجمة، ووميض الزناد، بوميض التلفاز السحري، أو شاشة العجل الفضي، الذي أصبح زادك اليومي، أخبار إثر أخبار، ورياضة وبرامج وانحدار، حتى ألفَتْ عيناكِ التسمُّر أمامه تسمُّر الخشبة بالمسمار، وأُشْرب قلبك حبه حتى لا يكاد يقوى على فراقه، مع يقينكِ أنكِ أصبحتِ تغترفين بمغراف عينيك أكوام الران الأسود؛ لتفرغينها في قلبك المريض، حتى إذا خلدت للراحة في آخر الليل، خلدت وفي صحيفتك ما يسوِّدها، وعلى ظهركِ ما يثقله، والأدهى أنَّ في قلبك نية الإصرار على المواصلة في الغد!

فأين حصاد العين اليوم من حصاد العين بالأمس؟! عينٌ كان الله يحبُّ بريقها إذا برقت، ويرعاها إذا نامت، فعينك كانت محفوظة في عين حفظه جلَّ جلاله.

أيتها العين ذكِّريني، أما كنتِ تنظرين لجمال جسد الكافر وكبر منزلته على أنه غنيمة كبيرة، وصيد ثمين تعودين به وبسلبه إلى رحلك، أو تحملين بشرى قتله إلى إخوانك؟!

لِمَ أصبحتِ اليوم تحملين لعلج الكفر تعظيمًا، وإن لم يتحدَّث بذلك لسانك؟! كيف لا وهو القائد الفلاني، أو قائد منطقة كذا، أو المسؤول الكبير عن كذا وكذا، وبإشارته سوف يسخِّر لنا أكبر مسؤول في هذه البلاد!

أين هذه العين المستشرفة لوجوه هؤلاء، ولما في أيدي هؤلاء، من تلك العين التي كانت ترى الشرف في قطع أيدي هؤلاء وأرجلهم، وطردهم من بلادي؟!

كنتُ أحدِّث نفسي، فأقول: حتى وإن ذهبت العينان، وذهب نورهما بالعمى فذلك- والله- أعظم شهادة صدق لي، وشفاعة بدخول الجنة، كيف لا! والنبي ﷺ يقول، كما في حديث أبي هريرة: (يقول الله عز وجل: من أذهبتُ حبيبتيه، فصبر واحتسب، لم أرض له بثواب دون الجنة)[1]. وفي حديث أنس، عن النبي ﷺ أنه قال: (إنَّ الله قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة)[2].

إذا كان هذا أجر من ذهبت عيناه لمرض ونحوه، وصبر على ذلك، فكيف بمن ذهبت عيناه في سبيل الله وصبر؟!

وأما إن فُقأت إحداهما فذاك والله ختم الشرف العالي، أحمله في الدنيا إلى يوم القيامة.

قال ابن كثير: (أنَّ قتادة بن النعمان رضي الله عنه أصيبت عينه يوم أحد حتى سالت

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٢٦٥، والدارمي (٢٨٣٧)، والترمذي (٢٤٠١) وقال: حسن صحيح. والنسائي في «الكبرى» (١١٤٤٦)، وابن حبان (٢٩٣٢)، والطبراني في «الأوسط» (١٧٩). وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب وعبد القادر.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٣)، وأحمد ٣/ ١٤٤، والترمذي (٢٤٠٠).

على خدِّه، فردَّها رسول الله ﷺ مكانها، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى... ولهذا لما وفد ولده على عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال له: من أنت؟ فقال له مرتجلاً:

أنـا ابـن الذي سـالت عـلى الخـدِّ عينـه فـردَّت بكـفِّ المصطفـى أحسـن الـردِّ

فعـــادت كـما كانـت لأول أمـرهـا فيـا حسـنها عينًـا ويـا حسـن مـا خـدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلـك المـكارم لا قعبـان مـن لبـن شـيبا بـماء فعـادا بعـد أبـوالا

ثم وصله فأحسن جائزته رضي الله عنه)[1].

فبالله عليك أيتها العين التي أصبحتِ- اليوم- متفرجة مع المتفرجين والمتفرجات، على أخبارنا من خلف الشاشات: ألا تلذعك أخبارُ إخوان الأمس وصولاتهم الجهادية؟!

ألا تترجمينها نداءَ إحياءٍ جديد لك من وراء الهواء والفضاء: أن هلمِّ فميدان الجهاد ميدانك، وإخوة الجهاد إخوانك، أم أنَّ النداء في وادٍ، والقلب سقط ميتًا في وادي الصياد، فأصبح لا يشعر بهذا الوخز الذي تتلقاه العينان.

لا تنم الليلة حتى تجيب عن سؤال يُفترض أنه الآن في داخلك، يقول لك: كم بين عيني الآثمة اليوم، وبين عيني الحارسة بالأمس؟!

---

(١) البداية والنهاية ٤/ ٣٣-٣٤.

عفت عين السوء- اليوم- على خير أثر، وأُذهبت حسناتها بأسوأ أثر، وما عادت تشمئز من منظر شرار البشر!

يا إخوة الجهاد السابقين: لقد تحولت همةُ صائد الأمس إلى همة مصيدٍ يرتعد في موضعه، إذا رأى شبح صياده، أو سمع قعقعة "بسطاله"، أو أصوات أدراعه، أو عجمة كلامه!

أيها المجاهدون: لا تستغربوا هذا الوصف لمن ترك ميدان الجهاد، فاحمدوا الله تعالى أنكم لم تتذوقوا طعم الذلِّ، ولم تتجرعوا كأسه، فكيف إذا كان كأسًا ممزوجًا من الذل، والنفاق، والجبن، والخوف، وسوء الظن بالله تعالى؟!

هذا حال العينين، فلا تسألوا- بعدها- عن حال الفرائص، والأرجل، والأيدي، فليس بعد وصف الله وصفٌ، وهو القائل سبحانه: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۚ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ ﴾ [الأحزاب: ١٩].

أين لسان الصدِّيق من لسان الزنديق؟!

عاتبتُ يومًا متخلِّفًا من المتخلفين، فقال لي بصراحة وتأثر: لا تزال كلمات شهيد يمشي على الأرض- نحسبه كذلك- في هذا الزمان حاضرة حية في ذاكرتي حين قال بعدما فاته ما فاته بسبب الاعتقال وأسمعنا بلسانه ما عاهد الله عليه قلبُه: لئن أشهدني الله مشهدًا آخر ليرينَّ الله ما أصنع. فيا له من وفيٍّ على طريقة أنس بن النضر رضي الله عنه

وأرضاه، ذاك الذي عاهد اللهَ تعالى بعد أن فاتته غزوة بدر، وفاتت أخانا هذا صولاتٌ لجند الجهاد، وجاءته الفرصة على غير موعد وإعداد، فشهق عندها- صاحبنا- شهقة الصدْق تزفر من قلب صدِّيق تحرك بالعهد لسانُه. وجاءت ليلة الاختبار لهذا المجاهد، وأقبل العدوُّ في ليله بخيله ورَجِله، وسار أخونا إليه، وكأنه على موعد مع محبوب هو له مشتاق... فنسي ذاك المعاهدُ نفسَه، وتهادى نحو العدوِّ متبخترًا كتبختر أبي دجانة في ميدان أُحد، حاملاً على الأرتال كحملة القعقاع ليلة الهرير[1]، مستعرضًا أمام الناس كاستعراض خالد، داخلاً بجسده فيهم كدخول الزبير صفوف الروم يوم اليرموك، طالبًا الموت طلب عكرمة لما رأى أمواج الروم المتلاطمة.

الناظر له يقول: مالأبي فلان؟! ماله، ماله؟! بينما هو يرى في تلك الجموع المواجِهة له حافزه وزاده وعرسه. ولو كُشف الغيبُ عن أعيننا في تلك اللحظة لعذرناه، فمن رآه تلك الليلة أقسم بالله أنَّ صاحبنا رأى بعينيه- وهو يمشي بيننا- ثمنَ البيع في صورة حوراء تدعوه وهي تتطوى، أو روضة من رياض الجنة تهتز، أو شمَّ رائحة من ريحان الجنة أطارت عقله! فكأنَّ رجليه غدت جناحين طار بهما نحو العدوِّ... فلو قاتلناه ليرجع إلى أهله وولده لما رجع والله!

كنت أقول ولا أزال: هنيئًا لك يا أبا فلان، الآن كُشف لنا الغيب، فإذا بالله قد كتب

---

(١) ليلة اليوم الرابع من أيام القادسية تدعى ليلة الهرير، قال ابن الأثير في «الكامل» ٢/ ٨٢٣: (قيل إنما سميت بذلك؛ لتركهم الكلام إنما كانوا يهرون هريرًا).

انضمامك لقافلة الشهداء المنصوصة في القرآن ونحن لا ندري، نحسبك كذلك والله حسيبك، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

تُرى ما رسالتك لمن خلفك يا أبا فلان؟

هل تودُّ أن تكون عندنا؟

ولو كنت فهل ستصنع كما نصنع؟

عن أنس رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ فقال: (أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذها جعفرٌ فأصيب، ثم أخذها عبدُ الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرةٍ ففُتح له). وقال: (ما يسرُّنا أنهم عندنا). قال أيوب: أو قال: (ما يسرُّهم أنهم عندنا)، وعيناه تذرفان[1].

وعن أنس رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: (ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة)[2].

وقال معاهد مبدِّل متحسِّرًا: أنظرُ اليوم إلى عهودي التي نطق بها لساني يومًا،

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٤٦) و(٢٧٩٨) و(٣٠٦٣) و(٣٦٣٠) و(٣٧٥٧) و(٤٢٦٢)، وأحمد ٣/ ١١٣ و١١٧، والنسائي ٤/ ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨١٧)، ومسلم (١٨٧٧) (١٠٩)، وأحمد ٣/ ١٠٣ و١٧٣ و٢٥١ و٢٧٦ و٢٨٩، والترمذي (١٦٦١) و(١٦٦٢).

فلا أرى صورتها إلا في عهود طلاب الجهاد من بني إسرائيل الذين قرأت سيرتهم، واستغربت- يومها- تخلفهم في مسيرتهم، فاستكثرتها آنذاك، حتى أصبحتُ أنا وريثهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥١].

أذكر ذلك جيدًا، وأتطلَّع في وجوه أصحابي الذين من حولي- الآن- فأرى منهم من تساقط في المرحلة الأولى عند أول الأمر بالجهاد، ومنهم من تساقط في النهر، ومنهم من تساقط بعد ذلك، وفي النهاية أنني لم أكن من الثابتين حتى النهاية!

ليس المهم كم كانت المسافة التي قطعها مجاهدو بني إسرائيل، وفي فترة كم من الزمن!

ليس المهم متى تساقط هذا الإسرائيلي أو ذاك، أو هذا الشامي أو ذاك!

المهم من الذي ثبت حتى الموت؟ من الذي وفَّى بما عاهد اللهَ عليه وصبر؟ سواء كان لقاء العدوِّ بعد نهر واحد، أو نهرين، أو ألف نهر، أم في بلاد الأنهر التي لا تعدُّ ولا تحصى.

أم كان لقاؤه بعد ساعتين، أم بعد سنتين، أم استمر وسقط قبل الموت بلحظة.

أرأيتم كيف أصبح أمرنا؟!

لا تستغربوا اطمئناننا للقعود، ولا فرحنا به... فإذا كان أولئك يفرحون بالتخلُّف عن رسول الله ﷺ، فكيف لا نفرح بالتخلف عنكم؟ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ

بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

هل من عزاء؟

كل ما يمكن أن يتصوره المرء من ثمرات الجهاد على حياة المجاهد يُسْلب منه بتخلُّفه، ولربما انقلبت تلك الثمرات إلى ضدِّها، فآثار التخلُّف تدميرية شاملة.

أرأيتَ رجلاً رقى إلى ذروة القمم خطوة خطوة، وبعدما استقرَّ على أعلاها، ارتدَّ على الأعقاب يرجع القهقرى، منحدرًا ينقلب إلى الوراء، خطوة إثر خطوة، فهل ترى هذه الخطوات المتسافلة سوف تستقيم على الطريق حتى النهاية؟!

إنَّ الأمنية بالنسبة لهذا الهابط هو أن يصل إلى الأسفل سالمًا، وهذا بعيد بعيد، لكنه وإن وصل سالمًا فسيفقد مزايا الذروة العليا كلها... إنه الحرمان بسلب مزايا ذروة سنام الإسلام! وما مقتضى هذا الحرمان إلا تخلي الله تعالى عن تاركي الجهاد، وذهاب إعانته... فإذا ترك اللهُ عبدًا، فلا تسل في أيِّ وادٍ مهلكه! ولن يجد هؤلاء لهم عزاءً عن فضائل الجهاد، وإن ضربوا أودية الدنيا، أو عكفوا في محاريب الصالحات!

أين العزاء؟

لا وألف ألف لا، وزيادة لا، وما لا يُحصى من اللاءات أضعها في وجه كل من يحاول أن يزكِّي عملاً من أعمالهم العبادية متعزيًا به أومتسليًا عن الجهاد.

لا والله! لا عزاء، ولا سلوة، ولا عمل صالح، ولا عبادة خلوة أو جلوة!

لقد ذهبت رياح الأجر في تلك السوح، ولا تعويض ولو بقيتَ عليها العمر تنوح...!

حتى وإن اتحدت صورة العمل في أعين الناس مع نفس العمل في تلك السوح، فإنَّ لعبادة الجهاد، أو العبادة في الجهاد عند الذي رفع السماء ووضع الميزان ثقلاً آخر.

إليك الخوف مثلاً:

فأين خائف من العدوِّ في سوح الجهاد، من خائف من العدوِّ في سوح الدنيا؟!

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من غازية أو سرية تغزو في سبيل الله، فيسلمون، ويصيبون، إلا تعجَّلوا ثلثي أجرهم، وما من غازية، أو سرية تخفق، وتصاب، إلا تمَّ لهم أجرهم)[1].

أين منـزلة هذا الخائف الطاهر المطهَّر العظيم، من منزلة خائف من مشرك معادٍ يرجو بِرَّه ويخاف ضُرَّه، قد خالط الشركُ قلبَ هذا الخائف حين نسي الله تعالى، وذكر عدوَّه، فتحوَّل من وليٍّ للرحمن إلى وليٍّ للشيطان؟! والله تعالى يقول عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ [الأنعام: ٨١].

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٦) (١٥٣) و(١٥٤)، وأحمد ٢/ ١٦٩، وأبو داود (٢٤٩٧)، وابن ماجه (٢٧٨٥)، والنسائي ٦/ ١٧-١٨.

أين خوفُ من صبَّر نفسه بين الصفين، وقلبه يرتجف خوفًا، فعلم الله ما في قلبه من خوفٍ لوجهه سبحانه، مِن خوف مَن ترك الجهاد، وصبَّر قلبه خائفًا فوات العرَض الزائل!

أين خوفُ مَن ذلَّ لله، مِن خوف مَن ذلَّ للشيطان ولأوليائه؟!

أين منـزلة خائفٍ وسط الأعداء يُنزل الله في قلبه السكينة، فإذا الحياة من حوله أمان، وإذا المخاوف سكينة واطمئنان، وإذا العدوُّ حارس في ذاك المكان، فلربما غشيته سِنة أو نام، ولربما احتقر العدوَّ، ودخل فيهم غير هيَّاب ولا وجِل؟!

ولربما قام يصلي لله ركعتين، والعدوُّ حوله يدور، ركعتين لم يتذوق مثلهما أبدًا، كأنهما ركعتا عمار في حراسته بسورة الكهف، والنشَّاب يقع في ظهره؟

أين هذا من وساوس خائفٍ مضطرب مرتبك من عدوٍّ في ميدان الدنيا أن يردَّه في معاملةٍ مادية، أو طلب شفاعة دنيوية، واللهُ لا يزيده إلا خوفًا على خوفه؟!

أيُّ عزاء لكم- أيها المتخلِّفون- حتى وإن اعتزلتم للعبادة، أو العلم إلا ما كان في خدمة الجهاد؟! ورسولُ الله ﷺ لا ينصح صحابته رضي الله عنهم، وهم أعظم العباد عبادة، بترك ميدان الجهاد والتفرغ لعبادته سبحانه!

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: مرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعب فيه عُيينة من ماء عذبة، فقال: لو اعتزلتُ الناسَ فأقمتُ في هذا الشعب؟ ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: (لا تفعل، فإنَّ

مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة)[١].

قال ابن النحاس: (فُواق الناقة، بضم الفاء وتخفيف الواو وآخره قاف، قال الجوهري وغيره: هو ما بين الحلبتين من الوقت؛ لأنها تُحلب ثم تُترك سويعة يرضعها الفصيل لتدرَّ ثم تحلب، انتهى. وقيل: هو ما بين أن تضع يدك على الضرع وقت الحلب وترفعها. وعلى هذا فيكون من باب المبالغة في التحريض على القتال والترغيب فيه، لا من باب إرادة حقيقة اللفظ)[٢].

وقال أيضًا: (يا هذا، ليت شعري من يقوم مقام هذا الصحابي في عزلته وعبادته وطيب مطعمه، ومع هذا فقد قال له النبي ﷺ: (لا تفعل)، وأرشده إلى الجهاد، فكيف لواحد منا أن يتركه مع أعمال لا يوثق بها مع قِلَّتها، وخطايا لا ينجى معها لكثرتها، وجوارح لا تزال مطلقة فيما مُنعت منه، ونفوس جامحة إلا عما نهيت عنه، ومآكل حُكْمُ حِلِّها عند رازقها، وخواطر عِلْمُ أصلها عند خالقها، ونيات لا يتحقق إخلاصها، وتبعات لا يرجى بغير العناية خلاصها ثم النظر في خواتم الأعمال،

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٤٤٦ و٥٢٤، والترمذي (١٦٥٠)، وقال: هذا حديث حسن. والبزار (٨٣٩٤)، والحاكم ٢/ ٦٨، والبيهقي ٩/ ١٦٠، وفي «الشعب» (٣٩٢٥)، وحسَّنه الألباني وشعيب وعبد القادر.
(٢) مشارع الأشواق ١/ ١٥٢.

مجال الخطر وعظائم الأوجال؟! فالسعيد من وفَّقه اللهَّ للجهاد ويسَّره عليه، والشقي من جبن فغبن وظهر الخسران عليه، اللهم يسِّر علينا الجهاد ويسِّرنا له، واجعلنا بفضلك ممن رام أمرًا فناله، وقرنت بالتوفيق أحواله وأفعاله، إنك قريب مجيب)[١].

لا تقارن نفسك بهذا الصحابي حتى لو أذِن له النبي ﷺ، ذلك أنَّ الصحابي لم يُرد التخلُّف عن الجهاد، إنما جاء يريد الخيار بين الاثنين، مبتغيًا الأفضل من الأعمال، راغبًا في الخلوة بالله ولله ومع الله عند هذه العُيينة من الماء.

فبأيِّ شيء تحاول أن تجد عزاءك اليوم وأنت المتخلِّف عن ميدان الجهاد؟!

هل تجده في السعي على الأهل بسيارتك ذاهبًا وآيبًا، تريد أن يكتب الله لك خطواتك بعد تخلُّفك؟!

هيهات فيوم كنت في الجهاد كنت أنت ومركوبك وآثاره ومخلفاته كلها في ميزانك، ثقلاً مرجِّحًا كفتك، فماذا تجد من هذا في كفة سعيك اليومي في طرائق الدنيا؟!

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (الخيل ثلاثة: هي لرجل وزر، وهي لرجل ستر، وهي لرجل أجر. فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رياءً وفخرًا ونواءً لأهل الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم ينس حقَّ الله في ظهورها ولا رقابها، فهي له ستر. وأما التي هي له أجر، فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مرج، أو روضة، فما أكلت من ذلك المرج أو

(١) مشارع الأشواق ١/ ١٥٣.

الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات، وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طولها فاستنت شرفًا أو شرفين إلا كتب له عدد آثارها وأرواثها حسنات، ولا مرَّ بها صاحبها على نهر فشربت منه، ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله تعالى له عدد ما شربت حسنات). قيل: يا رسول الله فالحمر؟ قال: (ما أنزل عليَّ في الحمر إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾[1].

هيهات، حتى لو كنت تراوح من بيتك إلى مسجد رسول الله ﷺ، فلن تنال منزلة المجاهد.

هل تجد عزاء التخلُّف عن الجهاد في الإكثار من ذكر الله تعالى؟

لا والله، ولا يومًا واحدًا من أيام الجهاد! فيوم واحد من تلك الأيام لو استمرت بلا رِدَّة لساوت الدنيا بأكملها وزيادة! بل لو كانت رَوْحةً واحدة، أو غدوة واحدة.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٧١) و(٢٨٦٠) و(٣٦٤٦) و(٤٩٦٢) و(٤٩٦٣) و(٧٣٥٦)، ومسلم (٩٨٧) (٢٤) و(٢٦)، وأحمد ٢/ ٢٦٢ و٣٨٣ و٤٢٤، والترمذي (١٦٣٦)، وابن ماجه (٢٧٨٨)، والنسائي ٦/ ٢١٦. والروايات مطولة ومختصرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٤) و(٢٨٩٢) و(٣٢٥٠) و(٦٤١٥)، ومسلم (١٨٨١) (١١٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلَّني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: (لا أجده). قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟) قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إنَّ فرس المجاهد ليَستنُّ في طِوَلِه فيُكتبُ له حسنات[1].

فكيف وقد جمع أولئك المجاهدون بين جهادهم وذكر الله تعالى الذي لا يكاد يفتر؟! هذه هي الحقيقة التي وجدناها، وهو ما أمر الله تعالى به إذ قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال لهم بعد صلاة الخوف: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء: ١٠٣].

لا تقل بعد الإدبار: أتعزَّى بالإنفاق، اللهم إلا إن كنت كُلِّفت به كجزء من الجهاد الذي وُكِّل إليك، وإلا فلا عزاء للمُدْبِر في إنفاقه!

ولعلك تظنُّ أنك وجدت سلوتك بعد التخلُّف بالعبادات!

أيُّ عزاء في عبادة من العبادات بعد ترك الجهاد؟! وسلمان رضي الله عنه، يقول:

و(١١٤)، وأحمد ٣/ ٤٣٣، و٥/ ٣٣٠ و٣٣٥، والترمذي (١٦٤٨) و(١٦٦٤)، وابن ماجه (٢٧٥٦) و(٤٣٣٠)، والنسائي ٦/ ١٥، والروايات مطولة ومختصرة.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨) (١١٠)، وأحمد ٢/ ٣٤٤ و٤٢٤ و٤٥٩، والترمذي (١٦١٩)، والنسائي ٦/ ١٩. وليس في النسائي قول أبي هريرة.

سمعت رسول اللهّ ﷺ يقول: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتَّان)[١].

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (كلُّ ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه يُنْمى له عمله إلى يوم القيامة، ويأمن فتنة القبر)[٢].

قال ابن النحاس: (قال القرطبي في تفسيره: في هذين الحديثين- يعني حديث سلمان وحديث فضالة- دليل على أنَّ الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت، كما جاء في حديث أبي هريرة: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[٣]. فإنَّ الصدقة الجارية، والعلم المنتفع به، والولد الصالح الذي يدعو لأبويه، ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد، والرباط يضاعَف أجره إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب، فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم

(١) أخرجه مسلم (١٩١٣) (١٦٣)، وأحمد ٥/ ٤٤٠ و٤٤١، والترمذي (١٦٦٥)، والنسائي ٦/ ٣٩.
(٢) أخرجه سعيد بن منصور (٢٤١٤)، وأحمد ٦/ ٢٠، وأبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٦٢١) وقال: حسن صحيح. والبزار (٣٧٥٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٣١٦)، وابن حبان (٤٦٢٤)، والطبراني ١٨/ (٨٠٢) و(٨٠٣)، والحاكم ٢/ ٧٩ و١٤٤، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٨٢). وصححه الألباني وشعيب وعبد القادر.
(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١)، وأحمد ٢/ ٣٧٢، وأبو داود (٢٨٨٠)، والترمذي (١٣٧٦)، والنسائي ٦/ ٢٥١.

من الله تعالى إلى يوم القيامة، وهذا لأنَّ أعمال البر كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدوِّ، والتحرز منهم بحراسة بيضة الدين، وإقامة شعائر الإسلام، انتهى كلامه[١]. وهو مليح جدًّا فتأمله)[٢].

وعن سهل ابن الحنظلية رضي الله عنه، أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين فأطنبوا السير، حتى كان عشية، فحضرت صلاة الظهر مع رسول الله ﷺ، فجاء فارس فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت على جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم ونسائهم اجتمعوا إلى حنين. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: (تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله تعالى). ثم قال: (من يحرسنا الليلة؟)، قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله. قال: (اركب)، فركب فرسًا له، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: (استقبل هذا الشِّعب حتى تكون في أعلاه ولا تَغُرَّنَّ[٣] من قبلك الليلة)، فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين، ثم قال: (هل أحسستم فارسكم؟). قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه. فثوَّب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشِّعب، حتى إذا قضى رسول الله ﷺ صلاته وسلَّم، قال: (أبشروا فقد جاء فارسكم)، فجعلنا ننظر إلى

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٢٥.
(٢) مشارع الأشواق ١/ ٣٧١- ٣٧٢.
(٣) قال في «عون المعبود» ٧/ ١٢٩: (أي لا يجيئنا العدو من قبلك على غفلة، كذا في فتح الودود).

خلال الشجر في الشِّعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشِّعب حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشِّعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحدًا. فقال له رسول الله ﷺ: (هل نزلت الليلة؟). قال: لا، إلا مصليًا أو قاضي حاجة، فقال له رسول الله ﷺ: (قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها)[(١)].

لا عزاء لك- أيها المتخلِّف- عن الجهاد، ولو تشاغلت عنه بطلب العلم، أو بالتعليم إلا ما كان في خدمة الجهاد!

فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه في غزوة خيبر... الحديث وفيه: قال: فلما تصافَّ القوم، كان سيفُ عامرٍ، يعني ابن الأكوع، فيه قصر، فتناول به يهوديًا؛ ليضربه ويرجع ذباب سيفه[(٢)] فأصاب ركبةَ عامر فمات، فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ شاحبًا، فقال لي: (مالك؟)، فقلت: فدى لك أبي وأمي، زعموا أنَّ عامرًا أُحبط عملُه. قال: (من قاله؟)، قال: فلان، وفلان، وأسيد بن الحضير الأنصاري. فقال رسول الله ﷺ: (كذب من قاله،[(٣)] إنَّ له لأجرين- وجمع بين أصبعيه- إنه لجاهد

---

(١) أخرجه أبو داود (٩١٦) و(٢٥٠١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٧٠)، وابن خزيمة مختصًرا (٤٨٧)، والطبراني (٥٦١٩)، والحاكم ١/ ٢٣٧ و٢/ ٨٣-٨٤، والبيهقي ٢/ ١٣ و٩/ ١٤٩. وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٢٧، وعبد القادر الأرنؤوط، وصححه الألباني وشعيب.

(٢) ذباب سيفه: طرفه الذي يضرب به.

(٣) قال في «فتح الباري» ٧/ ٤٦٧: أي أخطأ.

مجاهد، قلَّ عربيٌّ مشى بها مثله)[١].

خطأُ العالم المجتهد بأجر واحد، وخطأُ المجاهد بأجرين، فمَن مثل المجاهد؟!

وهل يُطلب العلم إلا لمثل هذا؟! ثم هل يُطلب العلم لشيء أكرم من هذا؟!

وهل من قيمة للعلم إذا أصبح صاحب العلم من الخوالف؟!

وخرَّج الخطيب في «تاريخ بغداد»، عن محمد بن الفضيل بن عياض، قال: رأيتُ ابن المبارك في النوم، فقلت: أيُّ العمل وجدتَ أفضل؟ قال: الأمر الذي كنتُ فيه. قلت: الرباط والجهاد؟ قال: نعم. قلت: فما صنع بك ربك؟ قال: غفر لي مغفرة ما بعدها مغفرة، وكلمتني امرأة من أهل الجنة أو امرأة من الحور العين[٢].

والرسالة من ابن المبارك لها مزية خاصة! رسالة من إمام في الميدان، جمع الإمامة في مختلف الأعمال، فقد وجد ابن المبارك حقيقة الحصاد، ونتائج الأعمال، وعرف الأثقل والأعلى والأحب عند الله سبحانه.

رسالة ممن كان شيخًا للأئمة الأعلام، وكان العلم له ميدانًا في تدريس، وتأليف في مختلف العلوم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٩٦) و(٦١٤٨) و(٦٨٩١)، ومسلم (١٨٠٢) (١٢٣) و(١٢٤) و(١٨٠٧) (١٣٢)، وأحمد ٤/ ٤٧ و٤٨ و٥٠ و٥١، وأبو داود (٢٥٣٨)، والنسائي ٦/ ٣٠-٣٢. وقوله ﷺ: (قلَّ عربي مشى بها مثله). قال في «الفتح» ٧/ ٤٦٧: (الضمير للأرض أو المدينة أو الحرب أو الخصلة).

(٢) تاريخ بغداد ٢/ ١٩٩. ولا يخفى أنَّ الرؤى يُستأنس بها، ولا يؤخذ منها حكم شرعي.

كيف إذا عرفنا أنَّ جهاد ابن المبارك جهادُ فتوح وطلب، وجهادنا جهاد دفع عن الإسلام وبلاد الإسلام، والضرورات التي جاءت جميع الأنبياء لحفظها! فجهاده فرض كفاية، وجهادنا فرض عين.

جهادنا جهاد من لو تراخى في لحظة ربما ذهبت أجيال مستعبدة للنصيريين وأحفادهم، وطالت غربة المشردين مثلما طالت غربة الفلسطينيين، وزاد الفساد بينهم، بل فتح باب الردة... فمن يعذرنا في تفريط هذه تبعاته حتى لو كان إغفاءة لحظات...

وقال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبد الله- يعني أحمد بن حنبل- وذُكر له الغزو، فجعل يبكي ويقول: ما من أعمال البر شيء أفضل منه. وقال عنه غيره: ليس يعدل لقاء العدوِّ شيء، ومباشرة القتال بنفسه أفضل الأعمال، والذين يقاتلون العدوَّ هم الذين يدفعون عن الإسلام وعن حريمهم، فأيُّ عمل أفضل منه؟! الناس آمنون وهم خائفون، قد بذلوا مهج أنفسهم. ذكره صاحب المغني(١).

وخرَّج ابن عساكر بإسناده، عن المفضل بن فضالة، عن أبيه، قال: استأذن قوم على عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، وهو شديد المرض، فدخلوا عليه، فقال: إنكم دخلتم عليَّ في حين إقبال آخرتي وإدبار دنياي، وإني تذكرت أرجى عمل لي فوجدته غزوة غزوتها في سبيل الله، وأنا خِلو من هذه الأشياء، فإياكم وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها.

---

(١) المغني ٩/ ١٦٤.

قال ابن النحاس: (كان عبد الملك رحمه الله من علماء التابعين، وكان معاوية رضي الله عنه قد استعمله على المدينة وهو ابن ست عشرة سنة، فركب بالناس البحر غازيًا)[1].

وهكذا كلما حاولت أن أتعزَّى بشيء بعد تركي ساح الجهاد صدمني حديثٌ بصدمة، تقول: لا عزاء لك إلا بالعودة لذاك الميدان، ولا فضل كفضل هذا الميدان، ولوكان قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود.

وقد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه كان في الرباط، ففزعوا إلى الساحل، ثم قيل: لا بأس، فانصرف الناس، وأبو هريرة واقف، فمرَّ به إنسان فقال: ما يوقفك يا أبا هريرة! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)[2].

هذا رباط من غير جهاد، فكيف لو اجتمعا وتحقق ما تخوَّف منه المرابط من هجوم العدوِّ.

قال ابن النحاس : (الرباط المطلوب عبارة عن ربط الإنسان نفسه في ثغر يتوقع فيه نزول العدو، بنية الجهاد أو الحراسة، أو تكثير سواد مَن فيه مِن المسلمين، وكلما كان

---

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ١/ ١٤٥.

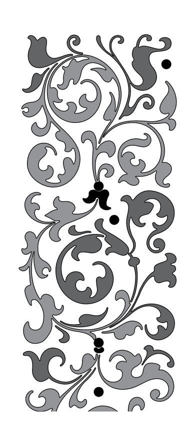
(٢) أخرجه ابن حبان (٤٦٠٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٩٨١)، وابن عساكر في «الأربعون في الحث على الجهاد» (الحديث رقم ١٨). وصححه الألباني وشعيب.

الخوف أشدَّ في مكان، كان الرباط فيه أفضل، والثواب أجزل، وسواء كان ذلك المكان ساحل بحر، أو غيره...

من كان ساكنًا بثغر لا يربطه فيه إلا توقع الجهاد أو قصد الحراسة، ولو شاء أن يرحل عنه لرحل من غير مشقة عليه في الرحيل أنه مرابط، وله أجر الرباط، وإن كان معه أهله وولده أو كان له فيه سبب بشرط أن يكون لو عرض عليه زوجة أجمل من زوجته، أو سبب أوسع من سببه أو غير ذلك بمكان ليس بثغر، لما خرج من الثغر رغبة فيما عرض عليه، فإنَّ الأعمال بالنيات، وما زال السلف الصالح من الصحابة والتابعين يسكنون الثغور بأهلهم وأولادهم بنية الرباط)[1].



(١) مشارع الأشواق ١/ ٤٠٨-٤٠٩.



خاتمة الفصل

مادام لهذا الخطاب في قلبك أقل إحساس بجواب، فاعلم أنَّ ذرة إيمان- أو أكثر- مازالت في قلبك باقية، وإنك إن راعيتَ تلك الذرة أنارت القلب كلَّه، وأعادتك الذرَّة ثانية إلى الذروة- بإذن الله جلَّ في علاه- لكن ما أسرع مَن فقد جبال الإيمان أن يفقد الذرَّة!

أوقِد على هذه الذرَّة بالعَوْدة للقرآن وسنة النبي ﷺ، وستعيدك بإذن الله إلى الميدان.

أَحْي هذه الذرَّة بمفارقة مجاميع النفاق، وإن قرب نسبهم أو لزمتْ صحبتهم.

وثِّق هذه الذرَّة بعهد جديد تعقده ولا تحله حتى لقاء الله تعالى!

ادخل الفصل القادم، إذ هو فصل عهود من لم يبدِّلوا تبديلاً!

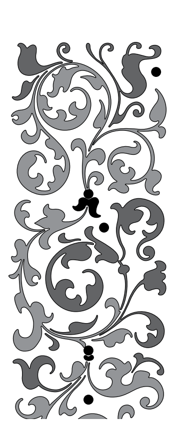


الفصل الثاني

عهود القرآن

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦- ١٤٨].





المقدمة
توثيق العهود

لا بد أن يجد المجاهد سرَّ الحياة في هذه العهود، وذلك لارتباطها بمصدر الحياة، وبكلمات الله العظيمة التامة الكريمة من كتابه الكريم، فهلمَّ ننظر فيها من جديد، وسوف نراها غيثًا جديدًا يغيثنا كلَّ مرة بجديد، يحيينا في هذه المرحلة والمراحل القادمة بإذن الله، بعدما أخذ التعثر من المرحلة الجهادية الماضية ما أخذ، وقد كان أعظم مصاب المجاهدين من المنافقين، وكان الواجب تأصيل الموقف من المنافقين تأصيلاً من الكتاب والسنة، وفَهْم كلام الله تعالى الفهم الواسع الشامل، ومعرفة أسباب النزول الصحيحة، وحُسْن تنزيلها على الواقع، مع العمل على أحسن وجهٍ بالقاعدة العظيمة: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)، واليقين عند النظر في الآيات بأنَّ واقعنا هذا الذي نراه لم يخرج عن علم الله أبدًا، ولم يتجاوز كتاب الله قيد شعرة، مع وجوب دقة الانتباه إلى أنَّ كل آية من تلك الآيات التي ذكرت المنافقين، أو أعمالهم، أو أوصافهم، أو أقوالهم، إنما تقتضي عملاً معينًا ينبغي

للمؤمنين أن يقوموا به.

ومن قال: لا ينبغي تنزيل الآيات على الواقع الشامي بتكلُّف.

أقول: نعم، ذاك هو التكلُّف المنهي عنه في القرآن وفي السنة، المنهي عنه حتى في الكلام العادي، والعمل، والخُلُق، فربنا جلَّ جلاله ينفي التكلُّف عن رسوله ﷺ فيقول: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦].

أما إذا كان تنزيل الآيات على واقعنا تنزيلاً مناسبًا وصحيحًا فهذا أمر مطلوب ومهم.

وإلا فهل المطلوب أن ننحِّي القرآن عن واقعنا؟!

وأيُّ مكسب للعدو أكبر من أن نقطع مصدر حياتنا عن حياتنا، ونخرجه من معركتنا؟!

هل تريدون أن نُبعد أعظم أسلحتنا عن الميدان؟! أم تريدون أن نُبعد أعظم ما يكشف النفاق والمنافقين؛ ليتفرغوا لنا؟!

حتى إذا ما انتهت المعركة بعد ذلك، وعدنا لنقرأ القرآن عضضنا عندها أصابع الندم قائلين: ليتنا قرأناه أثناء المعركة.

لقد كتبتُ ما كتبت من تنزيل للآيات على واقعنا الشامي وأنا مطمئن لهذا المنهج، بل كنتُ والله متعجبًا أشدَّ العجب في أحيانٍ كثيرة لما في الآيات من أسرار معركتنا خاصة! وما فيها من أسرار منافقينا خاصة! وما فيها من أسرار انتصاراتنا خاصة!

ومن أسرار علاقاتنا بعضنا مع بعض نحن خاصة!

نعم والله، عجبت من ذلك، وعجبت، وعجبت، ولكن ليس من أمر الله عجب.

ثم عجبت كذلك عندما وقع بين يديَّ وأنا في مرحلة مراجعة البحث النهائية تنزيلاً أوسع من تنزيلنا بكثير... تنزيل الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية -قدَّس اللهُ روحه- الآيات على واقعهم في الشام يوم دهمهم التتار، بل تمثيله ما أصابهم مع التتر بما أصاب النبي ﷺ يوم الخندق، وتفسيره الآيات على ذلك، فحمدًا لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فتأمل ماذا يقول شيخ الإسلام: (فإنَّ هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدوِّ المفسد الخارج عن شريعة الإسلام، قد جرى فيها شبيه ما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتابه، وابتلى بها نبيه والمؤمنين ما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا إلى يوم القيامة، فإنَّ نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي، أو بالعموم المعنوي، وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة كما نالت أولها، وإنما قصَّ الله علينا قصص من قبلنا من الأمم؛ لتكون عبرة لنا، فنشبِّه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين شبه بما كان للكافر والمنافق من المتقدمين، كما قال تعالى لما قصَّ قصة يوسف مفصَّلة، وأجمل ذكر قصص الأنبياء ثم قال: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا

يُفۡتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١]، أي: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يُفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب وفي السير المكذوبة...

وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴾ [النازعات:٢٥- ٢٦]. وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها: ﴿ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٣]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر: ٢].

فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها من الأمم، وذكر في غير موضع أنَّ سنته في ذلك سنة مطَّردة، وعادته مستمرة. فقال تَعَالَىٰ: ﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦٢]. وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣].

وأخبر جلَّ جلاله أنَّ دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين، فينبغي للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شررها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشَّر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيه عمود الكتاب أن يُجتث ويُخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظنَّ المنافقون والذين في قلوبهم مرض أنَّ ما وعدهم الله ورسوله إلا غرورًا، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهليهم أبدًا، وزُيِّن ذلك في قلوبهم، وظنوا ظنَّ السوء، وكانوا قومًا بورًا، ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران، وأنزلت الرجل الصاحي منـزلة السكران، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوب المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان، وميَّز الله فيها أهل البصائر والإيقان، من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية، كما خفض بها أقوامًا إلى المنازل الهاوية، وكفَّر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى.

فإنَّ الناس تفرَّقوا فيها ما بين شقي وسعيد، كما يتفرَّقون كذلك في اليوم الموعود، وفرَّ الرجل فيها من أخيه وأمه وأبيه، إذ كان لكل امرئ منهم شأن يغنيه، وكان من

الناس مَنْ أقصى همته النجاة بنفسه، لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه، كما أنَّ منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال، وآخر منـزلته منـزلة الشفيع المطاع، وهم درجات عند الله في المنفعة والدفاع، ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلا الإيمان والعمل الصالح والبر والتقوى، وبليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكتمها الضمائر، وتبين أنَّ البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المآل، وذمَّ سادته وكبراءه من أطاعهم فأضلوه السبيل، كما حمد ربه من صدق في إيمانه، فاتخذ مع الرسول سبيلاً، وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون، وواطأتها قلوب الذين هم في هذه الأمة محدَّثون، كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون، وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة.

حيث تحزب الناس ثلاثة أحزاب، حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام.

وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور، وآخر قد غرَّه بالله الغرور، وكان هذا الامتحان تمييزًا من الله وتقسيمًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1]. انتهى كلامه

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٢٥-٤٢٩.

رحمه الله.

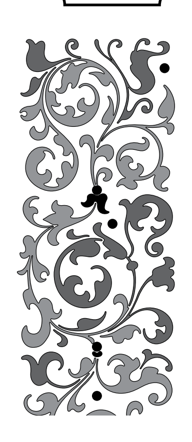
ولا يزال المسلمون منذ عهد عمر رضي الله عنه يقرؤون بعض سورة آل عمران، ويقرؤون سورة الأنفال، وسورة القتال على الجيش قبل معارك الإسلام الحاسمة.

فلزم أن نفهم القرآن الفهم الصحيح، الفهم المعتمد على تفسير القرآن بالقرآن، وصحيح السنة وأقوال العلماء المعتبرين، الفهم المرتبط بحياتنا، المصحح لطريقنا؛ كي نغلق الأبواب التي يتسلل منها المنافقون، ونسوِّيَ بالأرض الأكَمات التي يكمن خلفها الزنادقة والمتربصون... وإنه لأمر عظيم يحتاج إلى عهود نتعاهدها، ووصايا نتواصى بها، ولذا سميتها «عهود القرآن»، وما من عهد إلا وأنتج «وصايا» عملية.

فاللهم اشهد عهودنا، واجعلنا ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأعنَّا على الوفاء.

فأنعم بقلوب استخلصت عهودها من القرآن، وأنعم بأيادٍ جعلت صفقتها «عهود القرآن».

فاللهم اشهدها من عهود، ووثق مصافحتها في البيعة على تلك البنود، واجعل لنا نصيبًا من تشريفك لمن قلت فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ (الفتح: ١٠).



العهد الأول
إخلاص المحسنين في الجهاد

قال الله تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٠].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: يحسب هؤلاء المنافقون الأحزابَ، وهم قريش وغطفان... وقوله: ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ يقول: لم ينصرفوا، وإن كان قد انصرفوا جبنًا وهلعًا منهم... وقوله: ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾، يقول تعالى ذكره: وإن يأت المؤمنين الأحزابُ وهم الجماعة، واحدهم: حزب. ﴿ يَوَدُّوا۟ ﴾، يقول: يتمنوا من الخوف والجبن أنهم غُيَّب عنكم في البادية مع الأعراب خوفًا من القتل، وذلك أنَّ قوله: ﴿ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ﴾، تقول: قد بدا فلان إذا صار في البدو، فهو يبدو، وهو بادٍ. وأما الأعراب: فإنهم جمع أعرابي، وواحد العرب: عربي، وإنما قيل: أعرابي لأهل البدو، فرقًا بين أهل البوادي والأمصار، فجعل الأعراب لأهل البادية، والعرب لأهل المصر. وقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾،

يقول: يستخبر هؤلاء المنافقون- أيها المؤمنون- الناس عن أنبائكم، يعني عن أخباركم بالبادية، هل هلك محمد وأصحابه؟ يقول: يتمنون أن يسمعوا أخباركم بهلاككم، ألا يشهدوا معكم مشاهدكم، ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾، يقول تعالى ذكره للمؤمنين: ولو كانوا أيضًا فيكم ما نفعوكم، وما قاتلوا المشركين، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، يقول: إلا تعذيرًا؛ لأنهم لا يقاتلونهم حسبة ولا رجاء ثواب)[١].

وقال القاضي ابن عطية الأندلسي: (ثم سلَّى اللهُ تعالى عنهم، وحقَّر شأنهم، بأن أخبر أنهم لو حضروا لما أغنوا، ولما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً لا نفع له، قال الثعلبي: هو قليل من حيث هو رياء من غير حسبة، ولو كان لله لكان كثيرًا)[٢].

وقال البغوي: ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾، تحذيرًا، أي: يقاتلون قليلاً، يقيمون به عذرهم، فيقولون: قد قاتلنا)[٣].

وقال البقاعي: ﴿ وَلَوْ ﴾، أي: والحال أنهم لو ﴿ كَانُوا فِيكُم ﴾، أي: حاضرين لحربهم ﴿ مَّا قَاتَلُوا ﴾، أي: معكم، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، نفاقًا، كما فعلوا قبل ذهاب الأحزاب من حضورهم معكم تارة، واستئذانهم في الرجوع إلى منازلهم أخرى، والتعويق لغيرهم بالفعل كرَّة، والتصريح بالقول أخرى)[٤].

---

(١) جامع البيان ٢٠/ ٢٣٤.
(٢) المحرر الوجيز ٤/ ٣٧٧.
(٣) معالم التنـزيل ٦/ ٣٣٥
(٤) نظم الدرر ٦/ ٩٠.

إنَّ المفسرين جميعًا متفقون على أنَّ قتال المنافقين، إن قاتلوا، فهو قتال رياء وسمعة، كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١- ١٤٢].

هكذا هو قتالهم على وجه الحقيقة حتى وإن رأى الناس أنَّ الجميع مؤمنون حين رأوا بأعينهم أنهم قد استووا في قتال الكفار، كما استووا في صورة القتل في سبيل الله، إلا أنَّ الله سبحانه قد اطلع على ما في قلب هذا وما في قلب ذاك، فأما قلب هذا المؤمن المخلص فليس فيه إلا تعظيم الله سبحانه، وأما قلب ذاك المنافق فالشركاء فيه يتزاحمون، فلا هو من آخرته التي أضاعها، ولا هو من دنياه التي خسرها، وروحه التي أزهقها!

ولقد كشف رسول الله ﷺ لصحابته ما دار في ساح الصدور بشكل واضح وأمثلة حية في ساح المعركة، فرأوا ذلك أمام أعينهم، رأوا أشخاصًا يعرفونهم، يعجبون بشجاعتهم وفدائهم وسبقهم الصحابة إلى الموت، هاهم سقطوا في المعركة، دماؤهم تفور، تعالوا اسألوهم، وتيقنوا بأنفسكم.

فمن ذلك ما روى سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ

التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه...، وفيه: فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: (وما ذاك؟)، قال: الرجل الذي ذكرتَ آنفًا أنه من أهل النار، فأعظَمَ الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجتُ في طلبه حتى جُرح جرحًا شديدًا فاستعجل الموت، فوضع نصلَ سيفِه بالأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه... الحديث[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال شهدنا مع رسول الله ﷺ خيبر، فقال ﷺ لرجل ممن يدَّعي الإسلام: (هذا من أهل النار). فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً شديدًا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت أنه من أهل النار قاتل اليوم قتالاً شديدًا، وقد مات، فقال النبي ﷺ: (إلى النار)، فكاد بعض القوم يرتاب، فبينما هم على ذلك، إذ قيل: فإنه لم يمت ولكن به جراح شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: (الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله). ثم أَمر بلالاً فنادى في الناس: (إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإنَّ الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)[2].

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨) و(٤٢٠٧) و(٦٤٩٣) و(٦٦٠٧)، ومسلم (١١٢) (١٧٩)، وأحمد ٥/ ٣٣٢.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٢) و(٤٢٠٣) و(٦٦٠٦)، ومسلم (١١١) (١٧٨)، وأحمد ٢/ ٣٠٩.

أيها المجاهد: ليكن العمل ما يكون عظمة في أعين الناس، فهل هناك أعظم من الصلاة والقرآن إذا اجتمعا؟ وهل هناك أعظم من الجهاد والشهادة إذا اجتمعا؟ وهل هناك أعظم من الإنفاق والكثرة في الإنفاق إذا اجتمعا؟

انظر إذن، ماذا صنع الرياءُ في هؤلاء الثلاثة لما خالط قلوبَهم؟ وانظر ماذا صنع هذا الحديث في الأولين؟ وانظر إلى تأثيره في نفسك مهما كان بعدك عن الرياء!

فقد صح أنَّ شفيًّا الأصبحي دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ قالوا: أبو هريرة، قال: فدنوتُ منه حتى قعدتُ بين يديه وهو يحدِّث الناس، فلما سكتَ وخلا، قلت له: أسألك بحق لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته. فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته. ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكثنا طويلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح عن وجهه، فقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره. ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه فأسندته طويلاً ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ : (أنَّ الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد؛ ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله عزَّ وجلَّ للقارئ: ألم أعلِّمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يا رب.

قال: فما عملتَ فيما علمتَ؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله عزَّ وجلَّ: كذبتَ. وتقول له الملائكة: كذبتَ. ويقول الله تعالى: بل أردتَ أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك. ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله: ألم أوسِّع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب. قال: فماذا عملتَ فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبتَ. وتقول الملائكة كذبتَ. ويقول الله تعالى: بل أردتَ أن يقال: فلان جواد، وقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله، فيقول الله له: في ماذا قتلتَ؟ فيقول: أي رب، أمرتَ بالجهاد في سبيلك فقاتلتُ حتى قُتلتُ، فيقول الله له: كذبتَ. وتقول له الملائكة: كذبتَ، بل أردتَ أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: (يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة). قال الوليد أبو عثمان المدني: وأخبرني عقبة، أنَّ شفيًّا- هو الذي دخل على معاوية- فأخبره بهذا، قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم، أنه كان سيَّافًا لمعاوية، قال: فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس، ثم بكى معاوية بكاء شديدًا حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشرٍّ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا

صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[1] [هود: ١٥- ١٦].

إنَّ هذا الحديث من الخطورة بحيث يجعل كلَّ مجاهد على وجل عظيم لا يكاد يفارقه حتى يلاقي ربه، فيعلم حينها أنه ليس ذاك الرجل الذي ذكره المصطفى ﷺ، فمهما قال الناس عنه أو تحدثوا عن إخلاصه وشجاعته فإنَّ لسان حاله يقول: لا، حتى ألقى الله، فقد قيلت المدائح لمن كان أشجع مني في عصور خير من عصري فأمنوا واطمأنوا حتى لاقوا الله وهو عليهم غضبان، فطلبوا العودة وما مُكِّنوا!

لا، فلستم- أيها المادحون- أكثر معرفة بحقائق الرجال من أصحاب الرسول ﷺ، ومع هذا شهدوا لرجل بأنه من أهل الجنة، فإذا به من أهل النار! وتكرر الأمر معهم مرارًا!

لا، فنحن أعلم بأنفسنا من أصحاب المنامات، كما قال الإمام أحمد.

---

(١) أخرجه بهذه القصة الترمذي (٢٣٨٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن خزيمة (٢٤٨٢)، وابن حبان (٤٠٨)، والحاكم ١/ ٤١٨-٤١٩. وصححه الألباني وشعيب، وقال الشيخ عبد القادر الأرنؤوط: وفي سنده عند الترمذي الوليد بن أبي الوليد المدني أبو عثمان، وهو لين الحديث، ولكن يشهد له من جهة المعنى حديث مسلم والنسائي.اهـ. وقول الشيخ عبد القادر: لين الحديث، هو ما قاله الحافظ ابن حجر في «التقريب». وقد تعقبه العلاَّمة الالباني في «السلسلة الصحيحة» فقال: (قال ابن أبي حاتم: «... سئل أبو زرعة عنه؟ فقال: ثقة»، قلت -أي الألباني-: وهذا التوثيق مما فات الحافظ ابن حجر، فلم يذكره في ترجمة الوليد هذا من «التهذيب»... وظني أنه لو وقف على توثيق أبي زرعة إياه لوثقه ولم يلينه، والله أعلم).اهـ. وقد قال الذهبي في «الكاشف» في الوليد بن أبي الوليد: (ثقة). والحديث من غير هذه القصة أخرجه مسلم (١٩٠٥) (١٥٢)، وأحمد ٢/ ٣٢٢، والنسائي ٦/ ٢٣- ٢٤، من طريق سليمان بن يسار عن أبي هريرة، أنَّ ناتلَ أهل الشام سأله أن يحدثه بحديث، فذكره أبو هريرة مرفوعًا.

لا، حتى تخرج هذه الروح من هذا الجسد!

وكما أنَّ الرياء خطير ويفعل بصاحبه ما ذكر رسول الله ﷺ، فإنَّ للإخلاص منزلة عظيمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ عمرو بن أقيش كان له رِبا في الجاهلية، فكَرِه أن يُسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد. قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد. فلبس لأمته، وركب فرسه، ثم توجه قِبلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنتُ. فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحًا، فجاءه سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال لأخته: سليه، حميَّةً لقومك أو غضبًا لهم، أم غضبًا لله ورسوله؟ قال: بل غضبًا لله ورسوله. فمات، فدخل الجنة، وما صلى لله صلاة[1].



(١) أخرجه أبو داود (٢٥٣٧)، والطبراني في الكبير ١٧/ (٨٣)، والحاكم ٢/ ١١٣، والبيهقي ٩/ ١٦٧، وفي «الدلائل» (١١٠٠)، و«الشعب» (٤٠٠٧)، وأبو نُعيم في «معرفة الصحابة» (٤٩٦٥). وحسنه الحافظ ابن حجر في «الإصابة» ٤/ ٦٠٩، والألباني وشعيب وعبد القادر.

الوصايا[١]

الوصية الأولى: احتط لإخلاصك ما استطعت

لا بد لكل فرد مجاهد مهما كان مغمورًا وسط الصفوف أن لا يفتح على الإسلام ثغرة يدخل منها العدوُّ حين يفتح في قلبه للرياء ثغرة يدخل منها الشيطان.

فاحتط لإخلاصك بأسوار وأسوار وأسوار، فلعلك تسلم من تسلل هذا الرياء المدمر الذي يطلب افتراس إخلاصك متى وجده، فغذاؤه الوحيد هو إخلاصك، فإنه يتغذى منه وإلا مات، فهو يقاتل قتال المستميت الذي يرى بقاءه مرهونًا بالقضاء على إخلاصك!

احتط لإخلاصك عند الحديث عن نفسك، بل عند السكوت، وإياك ثم إياك أن تتخفى بالعبارة؛ ليفهم السامعون أنك تتخفى، وأنَّ ما عندك أكبر مما أدركوه بفطنتهم! فذلك هو صيغة مركبة تخادع بها نفسك وتخادع الآخرين، تريد أن يحسبها لك الله إخلاصًا، وأنت تعلم أنَّ ذلك لا يخفى عليه سبحانه!

احتط لإخلاص جهادك بفيض الدموع تسقي بها بذرة الإخلاص في خلوتك

---

(١) الوصايا: جزئيات عملية تعين على الوفاء بالعهد، ويتبين من خلالها مقتضيات عملية محددة للعهد الذي استخلصناه من الآية وأخذناه على أنفسنا.

مع الله.

احتط لإخلاص جهادك بدوام استغفارك حتى يجلو القلب، وتتطهر الصحيفة من الذنب.

احتط لإخلاص جهادك بدعاء من اطَّلع على الحقيقة، وإن خفيت عن كل عين، بأن يرزقك الإخلاص، ويعيذك من الشرك ظاهرًا وباطنًا.

احتط لإخلاص جهادك بصلاتك، فميزان القرب الضابط لحركة الحياة مع الإيمان وللإيمان مع حركة الحياة هي هذه الصلاة: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود: ١١٢- ١١٥].

إياك أن تفهم أنَّ الاحتياط للنفس إنما يكون بالإحجام عن الجهاد والعمل الصالح، فالقعود هو مراد الشيطان منك ومنتهى أمانيه، ولكنَّ الاحتياط بمزيد الإقدام، ومزيد العمل، مع مزيد الإخلاص.

ذكر ابن الجوزي رحمه الله، أنَّ عبدة بن سليمان رحمه الله قال: كنا في سرية مع عبد الله بن المبارك في بلاد الروم فصادفنا العدو، فلما التقى الصفَّان خرج رجل من العدو، فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر

فطعنه فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه الرجل فقتله، فازدحم الناس عليه فكنت فيمن ازدحم عليه، فإذا هو ملثم وجهه بكمه، فأخذتُ بطرف كمه فمددته، فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال: وأنت يا أبا عمرو ممن يشنِّع علينا.

قال ابن الجوزي: (فانظروا رحمكم الله إلى هذا السيد المخلص كيف خاف على إخلاصه برؤية الناس له، ومدحهم إياه، فستر نفسه)[1].

الوصية الثانية: إياك وقلم الزور

يستغل البعض وضع الساحة الجهادية الصعب إعلاميًّا، فيذهب ليستثمر هذه الفجوة مستخدمًا علاقاته وعلاقات فصيله ببعض الإعلاميين؛ لينسب لنفسه أعمالاً جهادية يعلم الله سبحانه أنه لم يعملها، ويذهب الفصيل يخرجها للإعلام باسمه زورًا وبهتانًا، وهذا فيه من المخالفات الشرعية الكثير:

أولها: الكذب، فالجماعة التي تربي الأفراد على الكذب، وتكافئ الكذاب، وتقمع المخلص الصادق الذي ينكر هذا المنكر في الجماعة، على خطر عظيم.

ثانيها: لباس ثوب الزور، فالعملية الجهادية التي عملت ولم تنسب لأحد لظروف الجهاد المعروفة، ويعلم الله سبحانه أنها لفلان من الناس، وأنه غالبًا ما يتبع جماعة

---

(١) تلبيس إبليس ص ١٣١.

جهادية معروفة، وأحيانًا غير مشهورة، فيعلن فصيل نسبتها لنفسه، فيقع الآخرون في حرج، فإنهم إن جاؤوا بعد ذلك وأعلنوا أنهم أصحاب العملية الحقيقية، وقالوا الحقيقة، قال لسان الشارع لهما: أحدكما كاذب.

وإن سكتوا ازداد أولئك في تماديهم. وهنا أسأل هؤلاء: ألهذا التصرف علاقة بقول النبي ﷺ كما في حديث جابر بن عبد الله: (الحرب خَدعة)[(١)].

إنَّ الواقع أنَّ خداعك مع الفصائل الأخرى وليس مع الكفار وعملائهم.

وهل ترضى أن يُفعل هذا الفعل معك؟! وماذا لو فعلوا؟ هل ستكتفي بالسكوت أم ستصعِّد الأمر إلى أعلى درجة؟!

هل سألتم أنفسكم- يا قادة هذا الفصيل وأفراده- ماذا لو كان عند أصحاب العملية تصوير يظهر كذبكم؟!

أليست فضيحة لكم؟!

إنَّ ما تجمعونه من حسنات ولو كانت جبالاً من الخيرات عظيمة فإنكم تبطلونها في لحظتها بالمراءاة والمسامعة... فلم هذا العناء، ومصير الوجه الذي تعمل له الفناء؟!

أيها المجاهدون: أما مرَّ عليكم حديث يصوِّر فيه النبي ﷺ صنيعكم هذا بتبني مكتسبات الآخرين بصورة معينة؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٧٣٩) (١٧)، وأحمد ٣/ ٢٩٧ و٣٠٨، وأبو داود (٢٦٣٦)، والترمذي (١٦٧٥).

فعن كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[١].

ومع كل هذا، فوالله لو أكل فصيل كذاب ثمرات المجاهدين الصادقين في الإعلام، لما رفعهم تعالى في الدنيا ولا في الآخرة.

فعن أسماء رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: إنَّ لي ضرة، فهل عليَّ جناح أن أتشبع من مال زوجي بما لم يعطني؟ فقال رسول الله ﷺ: (المتشبع[٢] بما لم يعط كلابس ثوبي زور)[٣].

هذه امرأة أرادت إغاظة ضرتها بزعم كاذب استحقت ثوب الزور، لو أنها فعلت، وحاشاها، فكيف بمن ادعى حقَّ غيره كذبًا، وابتزَّ من تلك الدعوى من أموال الناس ومعوناتهم كذبًا؛ ليوصف بالشجاعة والنجدة وما إلى ذلك بناءً على هذا الكذب؟!

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٥٢٠)، وأحمد ٣/ ٤٥٦ و٤٦٠، والدارمي (٢٧٩٥)، والترمذي (٢٣٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والنسائي في «الكبرى» (١١٧٩٦) [تحقيق شلبي بإشراف شعيب، والأصل أني أحيل إلى تحقيق البنداري وسيد كسروي، لكنَّ هذا الحديث غير موجود في هذه الطبعة]، وابن حبان (٣٢٢٨)، والطبراني ١٩/ (١٨٩)، والبيهقي في «الآداب» (٧٩٧). وصححه الألباني وشعيب وعبد القادر.

(٢) قال النووي في شرحه على مسلم ١٤/ ١١٠: (قال العلماء: معناه المتكثر بما ليس عنده، بأن يظهر أنَّ عنده ما ليس عنده، يتكثر بذلك عند الناس، ويتزين بالباطل، فهو مذموم كما يذم من لبس ثوبي زور).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٢١٣٠) (١٢٧)، وأحمد ٦/ ٣٤٥ و٣٤٦ و٣٥٣، وأبو داود (٤٩٩٧).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (رأيت الليلة رجلين أتياني...)، الحديث، وفيه: (قالا: أما الذي رأيته يشق شدقه فكذاب، يكذب الكذبة تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به هكذا إلى يوم القيامة)[١].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟)، ثلاثًا، قالوا: بلى يارسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين)، وجلس -وكان متكئًا- فقال: (ألا وقول الزور)، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[٢]. قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

قال ابن كثير رحمه الله: (لا يريدون علوًا في الأرض، أي: ترفعًا على الخلق، وتعاظمًا عليهم)[٣]. كانوا حرَّاسًا على الإخلاص خشية أن يدخل الرياء أو الإعجاب أو مدح الناس إلى قلوبهم. عن سليمان بن حنظلة، قال: أتينا أبيَّ بن كعب رضي الله عنه؛ لنتحدث إليه، فلما قام قمنا، ونحن نمشي خلفه، فرهقنا عمر، فتبعه فضربه بالدُّرة، قال: فاتقاه بذراعيه، فقال: يا أمير المؤمنين، ما نصنع؟ قال: أو ماترى فتنة للمتبوع

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) و(٦٠٩٦) و(٧٠٤٧)، وأحمد ٥/ ٨-٩.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٤) و(٥٩٧٦) و(٦٢٧٣) و(٦٢٧٤) و(٦٩١٩)، ومسلم (٨٧) (١٤٣)، وأحمد ٥/ ٣٦ و٣٨، والترمذي (١٩٠١) و(٢٣٠١) و(٣٠١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٥٨.

مذلة للتابع؟[١].

وهذا عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله قام من المجلس فتبعه الناس فقال: يا قوم، لا تطؤوا عقبي، ولا تمشوا خلفي، حدثنا أبو الأشهب، عن الحسن، قال عمران: خفق النعال خلف الأحمق قلَّ ما يبقي من دينه[٢].

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما صدق اللهَ عبدٌ أحب الشهرة[٣].

وقال ابن المبارك رحمه الله: قال لي سفيان: إياك والشهرة، فما أتيت أحدًا إلا وقد نهى عن الشهرة[٤].

وقال الإمام مالك رحمه الله: إنَّ الرجل إذا ذهب يمدح نفسه ذهب بهاؤه[٥].

وقال يحيى بن معين رحمه الله: ما رأيت مثل أحمد صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير[٦].

وهذا الشيخ الإمام الحافظ محمد بن أحمد البغدادي ابن الخاصبة لما علم أنَّ ابن عقيل الحنبلي يجعله من أولياء الله قال: اغترَّ الشيخ[٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣١٢٤٤)، والدارمي (٥٤٠)، وقال حسين سليم أسد محقق سنن الدارمي: إسناده جيد.
(٢) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٠٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٩٣.
(٤) المصدر نفسه ٧/ ٢٦٠.
(٥) المصدر نفسه ٨/ ١٠٩.
(٦) المصدر نفسه ١١/ ٢١٤.
(٧) المصدر نفسه ١٩/ ١١١.

الوصية الثالثة: لا تفتروا عن الهتاف بالله

ملاحظةٌ دقيقة أخصُّ بها المجاهدين في سبيل الله بأنفسهم أولاً، ثم من يمدُّونهم في كل مجالات الجهاد، بعيدة كانت أم قريبة: (ألاَّ تفتروا عن مناشدة ربكم)، ذلك أنَّ إخلاص المجاهدين ينبغي أن يكون إخلاصًا من منـزلة الإحسان، فبوابة طريق منـزلة الإحسان في الجهاد هو هتاف القلب مع ربنا، فكلما كثرت مناشدة المجاهدين لله، عاش المجاهد وكأنه يرى الله سبحانه وتعالى عيانًا حتى يستقرَّ قلبه في منزلة الإحسان.

وكم عجبتُ حين تأملتُ دعاء المجاهدين المخلصين في كتاب الله تعالى، وجدته مناشدة لله من منزلة الإحسان، تعبق ألفاظه بروح العبد الذي كأنه يرى ربه، وكأنه قد باشر لقاءه.

اقرأ من جديد هتاف الربيين بربهم سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦ – ١٤٨].

اقرأ من جديد هتاف الصفوة التي خلصت مع طالوت: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ

فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

اقرأ من جديد هتاف سيد المحسنين المخلصين في غزوة بدر، وهو يهتف بالله سبحانه، ويناشده سبحانه، كما يرويه عنه عمر رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه، فجعل يهتف بربه: (اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض. فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك[1] مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال:٩]، فأمده الله بالملائكة... الحديث[2].

---

(١) في رواية: كذاك، وهما بمعنى.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣) (٥٨)، وأحمد ١/ ٣٠ و٣٢، وأبو داود مختصًرا (٢٦٩٠)، والترمذي (٣٠٨١).

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني: (وعن سعيد بن منصور، من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم، وإلى المسلمين فاستقلَّهم، فركع ركعتين، وقام أبو بكر عن يمينه، فقال رسول الله ﷺ وهو في صلاته: (اللهم لا تودع مني، اللهم لا تخذلني، اللهم لا تترني، اللهم أنشدك ما وعدتني). وعند الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود قال: ما سمعنا مناشدًا ينشد ضالة أشدَّ مناشدة من محمد لربه يوم بدر: اللهم إني أنشدك ما وعدتني)[1].

تأمل إدراك الصدِّيق حقيقة منزلة الإحسان، وهو أعرف الناس برسول الله ﷺ وأحواله، فقال له: (كفاك مناشدتك ربك)، فأيُّ تعبير عن حقيقة الحال من تعبير الصدِّيق.

وتأمل في كلمات ابن مسعود: (ما سمعنا مناشدًا ينشد ضالة أشد مناشدة من محمدٍ ربَّه).

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يناشدون ربهم مناشدة مَن كأنه يراه، حتى لكأنَّ الجيش البدري كلَّه يرى ربه، فلا ينقطع هتافه إذ ذاك أبدًا بشهادة القرآن الكريم في ضمير الجمع، في قوله سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]، بل منهم من لم يطق لهتاف القلب كتمانًا، ولم يجد لانتظار لقاء ربه في القلب مكانًا، فهتف بالله منطلقًا وكان ما كان.

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٨٨-٢٨٩.

فقد صح عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ، قال: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض). فقال عمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: (نعم). قال: بخٍ بخٍ. فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قول بخٍ بخٍ؟)، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها). قال: فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها حياة طويلة. قال: فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل، رحمه الله.[1]

وقد ذكر ابن جرير أنَّ عميرًا رضي الله عنه قاتل وهو يقول:

ركضًا إلى الله بغير زاد

إلا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد

وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد[2]

إنَّ هتاف الإحسان لا يبدأ من لحظة لقاء العدو، بل يبدأ من لحظة البيعة مع الله، ذلك العهد الذي صاغ الله سبحانه كلمات عقده، فقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ

(١) أخرجه مسلم (١٩٠١) (١٤٥)، وأحمد ٣/ ١٣٦.
(٢) البداية والنهاية ٣/ ٢٧٧.

ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١١١].

عقد بغير وسيط، وصاحبه ينتظر، وقلبه دائم الهتاف اشتياقًا للقاء الله تعالى، فكيف سيكون هتاف هذا البائع وهو يتقلَّب في هذه الحياة، وقلبه معلَّق في الثمن؟!

كيف سيكون هتافه إذا اقترب من الميدان؟! كيف سيكون هتافه إذا انطلق السباق واشتد؟!

كيف سيكون إذا حمي الوطيس، ورأى من الصحب من قبضوا الثمن بالشهادة؟! كيف؟!

لحظات وألاقيك يا رب.

تأمل خطاب المسلمين وهم يحفرون الخندق، وتأمل الإحسان في جواب النبي ﷺ لهم، يُذهل العبد عن كلِّ شيء إذا اقترب اللقاء إلا عن اللقاء.

فاللقاء الذي يُنسي أهل الجنة نعيم الجنة على عظمته حريٌّ به أن يُنسي الدنيا على قباحتها، ويُنسي المجاهد باقي عمره وأيامه.

يُنسي المشتاق ذاته لله، ينسيه أهله وأحباءه، ينسيه بعضه وكله وأعضاءَ أطرافِه!

فعن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: حدثني أبي، أنَّ عبد الله بن جحش قال يوم أحد: ألا تأتي ندعو الله تعالى؟ فخلو في ناحية، فدعا سعد فقال:

يارب، إذا لقينا العدوَّ غدًا فلقِّني رجلاً شديدًا بأسه، شديدًا حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه. فأمَّن عبد الله ثم قال: اللهم ارزقني غدًا رجلاً شديدًا بأسه شديدًا حرده، فأقاتله ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا قلت لي: يا عبد الله، فيم جُدِع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت. قال سعد: كانت دعوته خيرًا من دعوتي، فلقد رأيته آخر النهار وإنَّ أنفه وأذنه لمعلق في خيط[١].

لا ينبغي لعبد عرف لذة هذه المناشدة أن يقطعها يومًا، بل ولا ساعة، حتى لو كان بين الصحب، أو كان في الوحدة، حتى لو كان بعيدًا عن ميدان الجهاد إعدادًا أو إمدادًا.

حتى إذا ما خرج من الخلاء، قال عند أول خطوة خارجة مخاطبًا ربه مباشرة:

---

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٧٦، وأبو نعيم في «الحلية» ١/ ١١٥، والبيهقي ٦/ ٣٠٧. قال العراقي في تخريج الإحياء: إسناده جيد. وعزاه الهيثمي في «المجمع» إلى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح! [في إسناده إسحاق بن سعد، لم يرو عنه غيرُ يزيد بن عبد الله بن قسيط كما في «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم ٢/ ٢٢١]، وأخرجه ابن سعد ٣/ ٩٠، وأبو نعيم ١/ ١١٥ عن سعيد بن المسيب، وفي إسناده عبد الله بن جُدعان، قال عنه في «التقريب»: ضعيف. وأخرجه الحاكم ٣/ ١٩٩ من طريق آخر عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وقال عنه الذهبي: مرسل صحيح. وصححه بشواهده العلامة الألباني في تحقيقه لفقه السيرة ص٢٨٢. وذكر ابن حجر في «الإصابة» ٤/ ٣٦: أنَّ البغوي رواه عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، ورواه عن سعيد بن المسيب مرسلاً ابنُ المبارك في «الجهاد» وابنُ شاهين. وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن جحش كما في الإصابة ٤/ ٣٦: له صحبة دعا اللهَ يوم أحد أن يرزقه الشهادة.

غفرانك[1].

تذكَّر مزية كلِّ عبادة لمجاهد حال جهاده أو رباطه، ثم انظر كيف تختلف عن نفس العبادة في غير الجهاد.

تذكَّر ذلك وأنت تضع أصبعك كلَّ مرة تقرأ في الأحاديث على كلمة (في سبيل الله).

فهذه الكلمة تعني وقوع العمل الصالح المذكور في أثناء الجهاد، فلا تسأل بعدها عن منزلة ذاك العمل وفضله.

فعن أبي أيوب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (غدوة في سبيل الله، أو روحة، خير مما طلعت عليه الشمس وغربت)[2].

وعن خُرَيم بن فاتك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من أنفق نفقة في سبيل الله كُتبت بسبع مئة ضعف)[3].

---

(١) كما جاء ذلك في السنة الصحيحة، أخرجه ابن أبي شيبة (٧) و(٣٠٥٢٤)، وأحمد ٦/ ١٥٥، والدارمي (٧٠٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٣)، وأبو داود (٣٠)، والترمذي (٧)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٣٠٠)، والنسائي في «الكبرى» (٩٩٠٧)، وابن خزيمة (٩٠)، وابن حبان (١٤٤٤)، والحاكم ١/ ١٥٨، والبيهقي ١/ ٩٧، من حديث عائشة، عن النبي ﷺ. وصححه النووي في «المجموع» ٢/ ٧٥، والألباني. وقال شعيب: حديث حسن.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٣) (١١٥)، وأحمد ٥/ ٤٢٢، والنسائي ٦/ ١٥.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٧٧٠)، وأحمد ٤/ ٣٤٥، والترمذي (١٦٢٥) وقال: حديث حسن، والنسائي ٦/ ٤٩، وفي «الكبرى» (٤٣٩٥) و(١١٠٢٧)، وابن حبان (٤٦٤٧)، والطبراني (٤١٥٥)، والحاكم ٢/ ٨٧، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٦٣). وصححه الألباني وعبد القادر، وقال شعيب:

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من عبد يصوم يومًا في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا)[١].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (من صام يومًا في سبيل الله جعل الله بينه وبين النار خندقًا، كما بين السماء والأرض)[٢].

هذه الخاصية (في سبيل الله) إذا دخل تحتها أيُّ عمل من الأعمال تحوَّل ذلك العمل إلى شيء آخر.

فلنعوِّد القلب الهتاف بالله، لنعوِّده مناشدة الله حتى وإن وقف اللسان أحيانًا، ما دمنا في سبيل الله.

لنعوِّده المناشدة وكأنه يرى ربه ونحن نذكره، ونحن نسكت، ونحن نتوضأ، ونحن نصلي، وعند النوم، ونحن نستيقظ... وهكذا فكأنَّ القلب في حديثٍ دائمٍ مع الله.

فوالله لئن صدقنا مناشدتنا الله في كلِّ وقت فسيهزم الجمع ويولون الدبر.

فما بيننا وبين أن نراه بأعيننا سبحانه، إلا أن يقبض هو هذه الروح ويكشف الحجاب سبحانه.

حسن.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٠)، ومسلم (١١٥٣) (١٦٧) و(١٦٨)، وأحمد ٣/ ٢٦ و٤٥ و٨٣، والترمذي (١٦٢٣)، وابن ماجه (١٧١٧)، والنسائي ٤/ ١٧٣ و١٧٤.

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٢٤)، وقال: هذا حديث غريب من حديث أبي أمامة. والطبراني (٧٩٢١). وصححه الألباني. وقال شعيب وعبد القادر: إسناده حسن.

الوصية الرابعة: الإخلاص للممدِّين

لا يُخشى من الرياء على الذي يجاهد ويغامر بنفسه بين الصفوف فحسب، إنما يُخشى على كلٍّ من لهم حكم المجاهدين.

نخاف الرياء على ذلك الخطيب الذي يُخرج العبارة عن الجهاد في عصر الخذلان، لا يريد بذلك إلا أن يقول للناس: إنه شجاع، إنه جريء...!

نخاف الرياء على ذلك الداعي الذي يُسْمِع دعاءه الناس، لا يريد مَنْ تُرفع له الأدعية فيجيبها، ولكن يريد من يؤمِّن على الأدعية حين يستمع لها ويعجب بها!

نخاف الرياء على ذلك الكاتب المجاهد الذي يتخلل بقلمه الكلام كما تتخلل البقر بألسنتها العشب، وهو لا يريد إلا إعجاب الناس بقلمه!

يا أيها المجاهد خطيبًا كنت أو كاتبًا: إن كنتَ تعتقد أنَّ ما تقوله أو تكتبه هبة من الله وفتح من عنده، فكيف ترائي به على أنه من عند نفسك، فتنازع اللهَ فضله، وترائي بشيء لست بصاحبه! وإن كنت تعتقد أنَّ حُسْن ما تقوله أو تكتبه مِن عند نفسك فبئس ما تعتقد، وبئس مَن ورثت عنه هذا المعتقد؛ ذلك هو من قال الله تعالى فيه: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص:٧٨].

أيها المجاهد خطيبًا كنت أم كاتبًا أم مستشارًا أم واعظًا: السباق ليس في سعة انتشار

ما تقول في لحظته، فما أسرع انبعاث الشرارة، وما أسرع انطفاءها، ولكن ما أقلَّ انتفاع الناس بها! إنما السباق في مَنْ يوضع له القبول في الأرض، ومَنْ يجعل الله النفع بكلماته، وتوجيهاته، ومشورته، وخطبته.

من يبارك في إحيائه، وإحياء من يحيى بسببه، ودون ذلك الإحسان في الإخلاص.

الوصية الخامسة: لا تتهم نوايا الشهداء

إياك والتعجل في اتهام النوايا، إياك والحكم على إخوانك بأنَّ هذا المجاهد ليس بمخلص، وهذا الفصيل ليس بمخلص، وهذه المجموعة ليست بصادقة...!

وسوف أذكر لك ما ذكره أهل العلم؛ لترى كم من هؤلاء الذين معك في الجهاد من أفراد ومجاميع ممن أسأتَ في قتلاهم الظن، هم شهداء إن شاء الله تعالى.

يقول الإمام ابن النحاس رحمه الله: (فاعلم أنَّ أنواع النية في الجهاد لا تنحصر؛ لتنوع المقاصد فيه، ولكن نذكر منها ما هو الغالب وجودًا، ويقاس عليه ما قد يقع، والتوفيق بيد الله سبحانه. فمنهم من يقصد بجهاده وجه الله سبحانه؛ لاستحقاقه هذه العبادة، وأمره بها وافتراضها على عباده، من غير التفات عنده إلى جزاء عليها في الآخرة، وهذا عزيز الوجود نادر الإمكان[1]...

ومنهم من يحمله على الجهاد غيرةُ الإسلام والحرص على إعلاء كلمة الله تعالى

(١) لا يُعرف هذا عن خير هذه الأمة، وهم صحابة النبي ﷺ.

وإعزازها، وإذلال كلمة الكفر وأهلها، وهاتان النيتان لا شك في صحتهما ولا ريب في الفوز عند الله بهما...

ومنهم من يقصد بجهاده الجنة وثوابها، وكواعبها، وأترابها، والنجاة من النار وعقابها وأليم عذابها، من غير تصور لغير ذلك، هذا هو الأغلب وجودًا...

ومنهم من إذا دهمه القتال يقاتل مقبلاً غير مدبر، ليس له نية البتة غير الدفع عن نفسه، وهذا قريب من أصحاب النية الثالثة وليس مثلهم، وهو شهيد؛ لأنَّ من دفع عن نفسه قُطَّاع الطريق فقتلوه كان من الشهداء، فكيف لا يكون شهيدًا من قُتل بسيوف الأعداء؟! بل هو شهيد في الفضل والحكم...

ومنهم من يخرج إلى الجهاد مُكثِّرًا سواد المجاهدين ليس له نية أن يَقتل ولا يُقتل، وهذا إذا قُتل شهيدٌ؛ لأنَّ من كثَّر سواد قوم فهو منهم...

ومنهم من يجاهد ونيته وجه الله تعالى ونيل الغنيمة جميعًا، ولو انفرد قصد الجهاد عنده لكان كفيلاً بإنهاض القدرة إلى الجهاد بحيث لو دعي إلى غزو طائفة فقراء ليس لهم ما يغنيهم لما أقعده عدم وجود ما يغنم عن الجهاد في سبيل الله، بل كان يجاهد، ولو دعي إلى غزو طائفتين إحداهما فقيرة والأخرى غنية لرغب في جهاد الأغنياء رجاء الغنيمة، وهذه النية مما اختلف وفي أشباهها أئمة السلف، فذهب بعضهم: إلى أنَّ النية فاسدة وأنَّ صاحبها يعاقب عليها؛ لإدخاله قصد الدنيا في عمل الآخرة... وذهب آخرون: إلى أنَّ هذه النية صحيحة وهذا هو المذهب الصحيح... وإليه ذهب حجة

الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله، فإنه قال في "الإحياء" في كتاب الأمر بالمعروف: وما عندي أنَّ الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزوِ جهةٍ تكثر فيها الغنائم، وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلية ثواب جهادهم، بل العدل أن يقال: إن كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالى، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية بحيث لو لم تكن غنيمة لما ترك الغزو فإنَّ هذا لا يحبط به الثواب، نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً، فإنَّ هذا الالتفات نقصان لا محالة...

وهذا تصريح منه بأنَّ هذه النية صحيحة، ومن قتل بها فهو شهيد، ولكنه أنزَلُ رتبة من أصحاب النيات الثلاث الأول...

وكذلك صرَّح القرطبي بصحتها، فإنه قال في التفسير: دلَّ خروج النبي ﷺ لتلقي العير -يعني عير أبي سفيان- لما قدم من الشام على جواز النفر للغنيمة؛ لأنها كسب حلال، وهو يردُّ ما كره مالك من ذلك...

ومما يدل كذلك على ما ذكرناه من صحة هذه النية ونيل الشهادة بها وترغيب الله عباده المؤمنين في الغنيمة في غير ما آية من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ٢٠] ونظائرها، ويبعد أن يرغِّب الله عباده في الغنيمة ويعدهم بها ويمتن عليهم بنيلها ثم يحظر عليهم نيتها وقصدها، ومن أعظم الدلالة أيضًا على ذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان يرسل السرايا؛ ليغيروا على نَعَمِ المشركين

وأموالهم وذراريهم، وكانوا إذا لحقهم المشركون قاتلوهم دفعًا عما معهم من الغنائم وقصدًا لإعلاء كلمة الله، فلربما انتصر المسلمون وذهبوا بما معهم، وربما كانت الأخرى، وقد استشهد منهم في ذلك خلق كثير، كما هو معروف في كتب المغازي والسير، وكانوا إذا انهزم المشركون لم يتبعهم المسلمون، بل يذهبون بما معهم.

وروى البيهقي في "الشعب" بإسناد حسن[1]، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ مرَّ بخباء أعرابي وهو في أصحابه يريد الغزو، فرفع الأعرابي ناحيةً من الخباء، فقال: مَن القوم؟ فقيل: رسول الله ﷺ وأصحابه يريدون الغزو. فقال: هل من عرض الدنيا يصيبون؟ قيل له: نعم، يصيبون الغنائم ثم تقسم بين المسلمين. فعمد إلى بكر له فاعتقله وسار معهم، فجعل يدنو ببكره[2] إلى رسول الله ﷺ، وجعل أصحابه يذودون بكره عنه، فقال رسول الله ﷺ: (دعوا لي النجدي، فوالذي نفسي بيده إنه لمن ملوك الجنة). قال: فلقوا العدوَّ فاستشهد. فأُخبر بذلك النبيُّ ﷺ فأتاه فقعد عند رأسه مستبشرًا، أو قال: مسرورًا يضحك، ثم أعرض عنه، فقلنا: يا رسول الله رأيناك مستبشرًا تضحك ثم أعرضت عنه. فقال: أما ما رأيتم من استبشاري ـ أو قال سروري ـ فلما رأيت من كرامة روحه على الله عزَّ وجلَّ، وأما إعراضي عنه فإنَّ زوجته من الحور العين الآن عند رأسه...

---

(١) برقم (٤٠٠٨)، وحسنه المنذري والألباني.
(٢) ببكره: أي الفتي من الإبل. الصحاح للجوهري ٢/ ٥٩٥.

ومنهم من يجاهد ونيته تحصيل عرض الدنيا من غير التفات إلى قصد نوع من العبادة بحيث لو عُرِض عليه غزو طائفة من الكفار ليس لهم ما يغنم، أو عَلم أنه يُمنع من الغنيمة لم يغز، فهذا إذا قُتل ليس بشهيد، وإن كان حكمه في الظاهر حكم الشهداء، وليس له أجر البتة...

واختار الغزالي وجماعة: أنه إن كان باعثُ الآخرة أقوى من باعث الدنيا أثيب بالقدر الزائد، وإن كان باعث الدنيا أقوى أو استوى الباعثان حَبط العمل كأن لم يكن...

وأما من غزا رياءً وسمعة وافتخارًا ليقال: هو غازٍ أو شجاع أو نحو ذلك، ولم يخطر بباله قصد التقرب إلى الله تعالى البتة بحيث لو خلا من الاطلاع ممن يتوقع منه الثناء والمدح أو قرب المنـزلة، لما حمله قصد القربة على الجهاد وبذل نفسه فيه، فإنَّ هذا إذا قُتل ليس بشهيد عند الله بلا خلاف، بل هو خليق في صفقته بالخسران، وجدير في آخرته بالمذلة الهوان، وهو أحد الثلاثة الذين تُسعَّر بهم النار يوم القيامة قبل الخلائق، وإنما استوجب من الله هذا المقت العظيم وحقَّ عليه العذاب الأليم؛ لتقربه بالعبادة إلى غير من شرعها ويستحقها لذاته، وعبد بها غيره، فختم له بالإشراك...

فإن غزا ليقتل فيستريح مما هو فيه من ضعف مؤلم، أو دين لازم، أو فقر ملازم، أو شر يتوقعه، أو مصيبة تنزل به، ولم يخطر بباله التقرب إلى الله ولا إعلاء كلمته، وكان بحيث لو عُرِض عليه قتل ظالم له أو قطاع طريق ونحوهم أو موت بطاعون ونحوه

لما رغب فيه، وإن كان يحصل له بكل ذلك الشهادة والراحة مما هو فيه، فهذا مما للنظر فيه مجال، فيحتمل أن يقال: ليس بشهيد عند الله، إذ لم يتمحض قصد التقرب إلى الله تعالى وإعلاء كلمته، ويحتمل أن يقال: إنه شهيد؛ لكونه لم يسمح بنفسه إلا في هذا الوجه دون غيره ورغبته فيه دون غيره، وإن كان شهيدًا- أيضًا- في قتل الظالم أو قُطَّاع الطريق أو الطاعون ونحوه، يدلُّ على قصدٍ باطنٍ في التقرب إلى الله تعالى، وعلى إيمان وتصديق بما جاء عن الله ورسوله في ثواب مَن قتله الكفار شهيدًا، وهذا الاحتمال أقرب من الأول، ولكنه لا يلتحق بالمخلصين ولا يلحق شأن الشهداء الأولين)[1].

انتهى كلامه رحمه الله.

ألا ما أعظم الإخلاص حين ألحق أصحابَه المتخلفين برسول الله ﷺ بنياتهم الخالصة بلا سيوف ولا خيول ولا حضور، فعن أنس رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ كان في غزاة، فقال: (إنَّ أقوامًا بالمدينة خلفنا، ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر)[2].

ما أعظم إخلاص النية في الجهاد حين ربط النصر الذي يطلبه المجاهدون بإخلاص الضعفاء، لا بفضل المجاهدين الأقوياء.

(١) مشارع الأشواق ٢/ ٦١٢-٦٣٥.
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٩) و(٤٤٢٣)، وأحمد ٣/ ١٠٣ و١٦٠ و١٨٢ و٢١٤، وأبو داود (٢٥٠٨) وابن ماجه (٢٧٦٤).

فعن مصعب بن سعد قال: رأى سعدٌ رضي الله عنه أنَّ له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم)[١].

ألا ما أعظم تحقيق الجهاد لحقيقة التجرد لله الواحد الأحد.

يقول سيد قطب رحمه الله: (إنَّ هذه العقيدة تُعلِّم أصحابها - فيما تُعلِّم - أن ليس لهم في أنفسهم شيء، فهم كلهم لله، وأنهم حين يخرجون للجهاد في سبيله يخرجون له، ويتحركون له، ويقاتلون له، بلا هدف آخر لذواتهم في هذا الجهاد، وأنهم يسلمون أنفسهم لقدره، فيتلقون ما يأتيهم به هذا القدر في رضى وفي تسليم، كائنًا هذا القدر ما يكون)[٢].



(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٦)، والنسائي ٦/ ٤٥. وأخرجه أحمد ١/ ١٧٣ من طريق مكحول عن سعد بن أبي وقاص. قال شعيب عن طريق أحمد: حسن لغيره. وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٦/ ٨٩: (فالمراد بالفضل: إرادة الزيادة من الغنيمة، فأعلمه ﷺ أنَّ سهام المقاتلة سواء، فإن كان القوي يترجح بفضل شجاعته، فإنَّ الضعيف يترجح بفضل دعائه وإخلاصه).

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٥-٤٩٦.

العهد الثاني
ألا نعتمد شهادة منافق، ولا خَبَره

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ (المنافقون: ١-٤).

قال الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾، يا محمد، ﴿قَالُواْ﴾ بألسنتهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، قال المنافقون ذلك أو لم يقولوا، ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾. يقول: والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم، أنها تشهد إنك لرسول الله، وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به، فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك)[1].

وقال البقاعي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

---

(١) جامع البيان ٢٣/ ٣٩٠.

(أي: وقاية تقيهم المكاره الدنيوية ويستترون بها منها، فيصونون بها دماءهم وأموالهم، فاستضاؤوا بنور الإجابة فلم ينبسط عليهم شعاع نور السعادة، فانطفأ نورهم بقهر الحرمان، وبقوا في ظلمات القسمة السابقة بحكم الخذلان)[١].

وقال ابن كثير: (﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾، أي: اتقوا الناسَ بالأيمان الكاذبة والحَلفات الآثمة؛ ليصدقوا فيما يقولون، فاغترَّ بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون، وصدَّقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً، فحصل لهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس)[٢].

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾، أي: أعرضوا، وهو من الصدود، أو صرفوا المسلمين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسبي وأخذ الأموال، فهو من الصدِّ، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويقتدي بهم غيرهم)[٣].

وقال البغوي: (﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾، منعوا الناس عن الجهاد والإيمان بمحمد ﷺ)[٤].

(١) نظم الدرر ٧/ ٦٠٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٢٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٢٤.
(٤) معالم التنـزيل ٨/ ١٢٦.

وقال الماوردي في تفسيره "النكت والعيون": (﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾، فيه وجهان: أحدهما: عن الإسلام بتنفير المسلمين عنه. الثاني: عن الجهاد بتثبيطهم المسلمين، وإرجافهم به، وتميزهم عنهم)[١].

وقال الشوكاني: (﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾. أي: منعوا الناس من الإيمان والجهاد)[٢].

أيها المجاهدون على أرض الشام المباركة وفي كل مكان: أعيدوا النظر في هذه الآية؛ لتعرفوا السبل التي يمكن أن يتخذها المنافقون لإحكام سِتْر ما في بواطنهم من نفاق عن أعينكم.

فقوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ﴾، فمن جاء رسولَ الله ﷺ؟! والوحيُ يأتيه بخبر السماء صباح مساء، وينـزل عليه يخبر ما في صدورهم، وما أضمروه من سوء، مرارًا وتكرارًا، ومع هذا يأتونه! فإنهم أعظم جرأة على مَنْ بعد رسول الله ﷺ!

أما قوله: ﴿ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾، فإنَّ من اتخذ شهادة أن لا اله إلا الله محمد رسول الله، غرضًا لنفاقه، وسترًا لكفره، فلا عجب أن يتخذ ما دونها من الحرمات غرضًا، وكلُّ شيء دونها!

أما قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، فاليمين هي اليمين، لكنك تتخذها أنت تأكيدًا لعزمك الصالح على معروف ما، أو

---

(١) النكت والعيون ٦/ ١٥.
(٢) فتح القدير ٥/ ٢٣٠.

حقيقة ما، وهذا يحلف الأيمان؛ ليتخذها جُنَّة، ليصد بها عن سبيل الله!

ولو رجعتم- أيها المجاهدون- إلى مواقف نُكبتم بها لوجدتم أنَّ الكثير منها كانت بسبب الثقة بمنافق، وتصديق أَيْمانه، والاغترار بمظهره ومعسول كلامه!

فعن عمر بن الخطاب أنَّ رسول الله ﷺ قال: (إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان)(١).

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ [المنافقون].

يقول الإمام الطبري: (وإذا رأيت هؤلاء المنافقين يا محمد، تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورها)(٢).

وقال البقاعي: (ولما وصف جلَّ جلاله بواطنهم بما زهَّد فيهم؛ لأنَّ الإنسان بعقله كما أنَّ المأكول بشكله، وكانت لهم أشكال تُغرِ ناظرها؛ لأنَّ العرب كانت تقول: جمال المنظر يدل غالبًا على حسن المخبر. قال تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾، أي: أيها الرسول على مالَكَ من الفطنة ونفوذ الفراسة، أو- أيها الرائي- كائنًا من كان بعين البصر، ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾؛ لضخامتها وصباحتها، فإنَّ غايتهم كلَّها بصلاح ظواهرهم

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٢و٤٤، وعبد بن حميد (١١)، والبزار (٣٠٥)، والبيهقي في «الشعب» (١٦٤١). قال الهيثمي: رجاله موثقون. وصححه أحمد شاكر والألباني، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي.

(٢) جامع البيان ٢٣/ ٣٩٥.

وترفيه أنفسهم، فهم أشباح وقوالب ليس وراءها ألباب وحقائق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ابن أُبيٍّ الذي نزلت السورة بسببه جسيمًا فصيحًا صحيحًا ذلق اللسان، وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ ويستندون فيه، ولهم جهارة المناظر، وفصاحة الألسن، وكان رسول الله ﷺ ومن حضر يُعجبون بهياكلهم. ولما وصف البواطن والظواهر، ولما كان قولهم: المرء بأصغريه قلبه ولسانه. مشروطًا كما هو ظاهر العبارة بمطابقة اللسان للقلب، قال معبرًا بأداة الشاك إشارة إلى أنهم لا يكلمونه ﷺ إلا اضطرارًا؛ لأنهم لا يحبون مكالمته، ولا باعث لهم عليها لما عندهم من أمراض القلوب، ﴿وَإِن يَقُولُواْ﴾، أي: يوجد منهم قول في وقت من الأوقات،﴿تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾، أي: لأنه يكون بحيث يلذذ السمع ويروق الفكر؛ لما فيه من الإدهان مع الفصاحة، فهو يأخذ بمجامع القلب.

ولما أخبر عن ظاهرهم دلَّ على أنَّ ذلك الظاهر أمر لا حقيقة له، وأنهم لما وطَّنوا أنفسهم على الوقاحة، وخلعوا لباس الحياء بالكذب، بذلوا جميع الجهد في تحسين القول؛ لأنه لا درك عليهم فيه فيما يحسبون بوجه؛ لأنهم لا يحسبون للآخرة حسابًا، فقال: ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾ أي: في حسن ظواهرهم، وسوء بواطنهم، وفي الجبن والخور وعدم الانتفاع بهم في شيء من فهم أو ثبات، فأنهم لا حقيقة لهم، ﴿خُشُبٞ﴾، جمع كثرة لخشبة، وهو دليل على كثرتهم، ولما كان الخشب ربما أطلق على المغروس نفى ذلك بقوله منبهًا بالتشديد على الكثرة ﴿مُّسَنَّدَةٞ﴾ أي: قد قطعت من مغارسها وقشرت

وأسندت إلى الجدر؛ لئلا يفسدها التراب، فهي بِيضٌ تلوح تعجب ناظرها، ولا ثبات لها، ولا باطن بثمرة ولا سقي فلا مدد سماوي لها أصلاً يزكيها نوع زكاء، فقد فقدت روح الإنبات الذي به كمالها، كما فقد المنافق روح الإيمان الذي به كمال الناطق وبقاؤه، فهم في تلك الحالة أشباح بلا أرواح، أجسام بلا أحلام)[١].

وقال القرطبي: (﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ وجهان، أحدهما: فاحذر أن تثق بقولهم أو تميل إلى كلامهم. الثاني: فاحذر مما يلتهم لأعدائك وتخذيلهم لأصحابك)[٢].

وقال الآلوسي: (﴿ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ... والخطاب قيل: لكل من يصلح له، وأُيِّد بقراءة عكرمة وعطية العوفي يُسمع بالياء التحتية والبناء للمفعول. وقيل: لسيد المخاطبين عليه السلام، وهذا أبلغ على ما في «الكشف»؛ لأنَّ أجسامهم إذا أعجبته ﷺ فأولى أن تعجب غيره، وكذا السماع لقولهم... والسماع مضمَّن معنى الإصغاء، فليست اللام زائدة. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾... وفي مثلهم قال الشاعر:

لا يخدعنك اللحى والصور تسعة أعشار من ترى بقر

...﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ ﴾ استئناف، أي: هم الكاملون في العداوة، والراسخون فيها، فإنَّ أعدى الأعادي العدو المداجي الذي يكاشرك، وتحت ضلوعه الداء الدوي، ككثير

(١) نظم الدرر ٧/ ٦٠٨-٦٠٩.
(٢) الجامع لأحكام القران ١٨/ ١٢٤-١٢٦.

من أبناء الزمان)[١].

وقال الشوكاني: (﴿ فَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾ أن يتمكنوا من فرصة منك، أو يطلعوا على شيء من أسرارك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار)[٢].

وقال سيد قطب عند قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾: (هم العدو الحقيقي، العدو الكامن داخل المعسكر، المختبئ في الصف، وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح)[٣].

وقال النسفي: (﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾، دعاء عليهم أو تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك)[٤].

تُرى أي مظهرٍ يمكن أن يُعجب رسول الله ﷺ إلا مظهر الصلاح والتقوى، أو مظهر الجمال وطيب الرائحة، وهكذا يصنع المنافقون طوال التاريخ، فالمبالغة بتزيين الظاهر صفة نفاقية على مرِّ التاريخ، وهو نوع من التغرير في السلعة، كما أنه تغرير بالشخص وإيمانه وعمله، وهم يتخذون لكل من يقصدونه في كل زمن ما يقنعهم من الزينة.

قد قال لي منافق، وصدق وهو كذوب: نعرف مداخلَ قلوبكم وقبولكم، فنفتح أوسع أبواب قلوبكم بأصغر مفاتيحنا، فما هي إلا كلمات قليلة، وتأوهات ثقيلة،

---

(١) روح المعاني ٢٨/ ١١١-١١٢.
(٢) فتح القدير ٥/ ٢٣١.
(٣) في ظلال القران ٦/ ٣٥٧٥.
(٤) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٤/ ٣٧٧.

وحسرات مريرة، ربما رافقتها قطرات من دموع، أو احمرار المقلتين واحتباس الأنفاس مع مظهر خشوع، وإذا بحصون قلوبكم قد تهاوت مع بواباتها.

أيُّ حذاقة تبصر النفاق، وأيُّ احتياط يكفي للاحتراز منه بعدما حذَّر اللهُ تعالى أعظمَ الناس بصيرة محمد بن عبد الله ﷺ؟!

ولو نظرتم- أيها المجاهدون- اليوم كيف تفرَّغ بعضُ من تَرَكَكُم لتزيين جسده، وملبسه، وكرسيه، ومكتبه، وحذائه، وربطته، وعرفتم أنهم لا مقصد لأحدهم بذلك إلا أن يستر خواءه بملبسه! ثم نظرتم إلى هذا النصيري أو الرافضي الذي تقاتلون، وكيف اختار أشكال صحْبه الزنادقة، فهم أحسن القوم أجسادًا، وزيَّنهم بألبسة خاصة... لعرفتم أيَّ أثر لهذا المظهر في العيون الناظرة، أيًّا كانت تلك العيون، ولعرفتم كذلك ضرورة التنبه لتحذير الله من الوقوع في هذه الوسيلة النافذة.

وبناءً على هذا أودُّ التنبيه على بعض الوصايا التي نستخلصها من هذه الآية:



الوصايا

الوصية الأولى: شِراك المظاهر

إياكم أن يقع في قلوبكم بما يظهره الإعلام عن زنادقتهم من خلال مظاهرهم، وكلامهم وتصريحاتهم، وما يدور عنهم من أخبارهم، ومؤتمراتهم، وكلماتهم، وتشدقاتهم، أيُّ أثر، فليس مرادهم من كل هذا البث والوصف إلا إدخال المنافقين إلى قلوبكم، وقبولكم، وهم على ذلك مستمرون ومصرون ومتعاهدون مهما طال الزمن؛ لأنه لا بقاء لسادة المنافقين إلا بهؤلاء الزنادقة، وحين نذكر نحن إصرارهم على الاستمرار في النفاق مهما تكشفوا فذلك من قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً ﴾، وهل فائدة الأَيْمان إلا التوكيد، وإلا فحقيقة الأمر أنهم أحقر الناس في أعين رؤوس الكفر!

ولا يزال الرجل ذا قيمة عندهم مادام ذا مبدأ، فإذا ما وافقهم ونافقهم سقط من أعينهم، وأصبحوا يتلاعبون به كيف شاؤوا، ثم يبدؤون يقيسون ولاءه لهم باختباره في أعز كرامة يمكن أن يدافع عنها.

فالحذر- أيها المجاهدون- من أن لا تقدروا قول ربكم قدره، أو تُحجِّموا كلامه في صورة واحدة جامدة كصورة النفاق القديمة.

إنَّ من أماني الكفار والنصيرية والرافضة أن يصبح المنافقون مصدرًا موثقًا لأخبارنا، فبذلك يصبح المنافقون مصدر التحكم في توجهنا وتوجيهنا بدون إرادة، وبدون شعور منكم بأنكم تابعون لهم.

الوصية الثانية: لا تُصغ لمنافق

الأمر العملي الذي أريد أن تفيدوه من هذه الآيات أنكم إذا عرفتم نفاق المنافق فلا تصغوا له ابتداءً؛ لأنكم إن أصغيتم له أعجبكم كلامه، وتشربته قلوبكم أو تشربت بعضه، وهل في كلامه إلا التشكيك في الدين والوقيعة بين أصحابه...

وهذا مقتضى عملي لقول الله جلَّ جلاله: ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ ﴾ [المنافقون: ٤].

فكيف إذا أتبعتموه نظر الإعجاب مرة إثر مرة!

فبالله عليكم لا تنظروا إلى الأبواق، وانظروا إلى أضرار النفاق.

الوصية الثالثة: خبر المنافق أشد خطورة من خبر الفاسق

فإذا كان الله جلَّ جلاله أوجب التبيُّن من خبر المسلم الفاسق، فما بالك بخبر المنافق؟!

وإذا كان الله تعالى قد أوجب التبيُّن من خبر المسلم الفاسق في كل ظرف من الظروف، فما بالك بظروف المواجهة مع العدو؟!

قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ

فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات:٦].

هذا بالنسبة للخبر، فكيف بالشهادة؟

أيمكن أن تقبل شهادة منافق لدى أيِّ فصيل جهادي؟!

الوصية الرابعة: جهاد الإخبار

كما أنَّ من أقبح الأعمال وأخزاها لصاحبها مهمة التجسس على المجاهدين، فإنَّ أشرف المهام وأعلاها هو أن يكون الرجل مخبرًا لصالح المجاهدين في سبيل الله.

فإنَّ شرف المهمة يثبت بعظم نفعها للأمة، فمن أنفع للأمة من رجل يأتيها بخبر يوفر عليها أرواحًا، وأموالاً، وأمانًا، ويحفظ لها دينها من الردة، وما إلى ذلك؟!

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [القصص].

قال الإمام الطبري عن هذا المُخبِر الكريم: (ذُكر أنَّ قول الإسرائيلي سمعه سامع فأفشاه، وأعلم به أهلَ القتيل، فحينئذ طلب فرعونُ موسى، وأمر بقتله، فلما أمر بقتله، جاء موسى مخبرٌ وخبَّره بما قد أمر به فرعونُ في أمره، وأشار عليه بالخروج من مصر بلد فرعون وقومه)[1].

---

(١) جامع البيان ١٩/ ٥٤٥.

فأكرم به من مخبر! وأكرم به من رجل!

قال ابن كثير: (قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ ، وصفه بالرجولية؛ لأنه خالف الطريق، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه، فسبق إلى موسى، فقال له يا موسى ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾، أي: يتشاورون فيك، ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ ﴾، أي: من البلد، ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾)[١].

ويقول البقاعي: (قوله: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾، أي: ممن يحب موسى عليه الصلاة والسلام، ولما كان الأمر مهمًا، يحتاج إلى مزيد عزم وعِظم قوة، قدم فاعل المجيء على متعلقه بخلاف ما في سورة يس، ولما كان في بيان الاقتدار على الأمور الهائلة من الأخذ بالخناق حتى يقول القائل: لا خلاص، ثم الإسعاف بالفرج حتى يقول: لا هلاك، قال واصفًا الرجل: ﴿ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾، أي: أبعدها مكانًا، وبيَّن أنه كان ماشيًا بقوله: ﴿ يَسْعَىٰ ﴾، ولكنه اختصر طريقًا وأسرع في مشيه بحيث كان يعدو فسبقهم بإعظامه للسعي وتجديد العزم في كل وقت من أوقات سعيه، فكأنه قيل: ما فعل؟ فقيل: ﴿ قَالَ ﴾، مناديًا له باسمه تعطفًا وإزالة للبس: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾، وأكَّد إشارة إلى أنَّ الأمر قد دهم فلا يسع الوقت الاستفصال، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ ﴾، أي: أشراف القبط الذين في أيديهم الحل والعقد؛ لأنَّ لهم القدرة على الأمر والنهي، ﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾، أي: يتشاورون بسببك، حتى وصل حالهم في تشاورهم إلى أنَّ كلاًّ منهم يأمر

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٢٦.

الآخر ويأتمر بأمره، فكأنه قيل: لِمَ يفعلون ذلك؟ فقيل: ﴿لِيَقْتُلُوكَ﴾؛ لأنهم سمعوا أنك قتلت صاحبهم، ﴿فَٱخْرُجْ﴾، أي: من هذه المدينة، ثم علَّل ذلك بقوله على سبيل التأكيد؛ ليزيل ما يطرق من احتمال عدم القتل لكونه عزيزًا عند الملك: ﴿إِنِّي لَكَ﴾، أي: خاصة، ﴿مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، أي: العريقين في نصحك)[1].

ولله درُّ سيد قطب عليه رحمة الله الذي بيَّن أنَّ هذا المخبِر كان اختيار الله سبحانه تشريفًا له، فقال: (لقد عرف الملأ من قوم فرعون، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليها، أنها فعلة موسى، وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر، فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد، والانتصار لبني إسرائيل، وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر، ولو كانت جريمةَ قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء، فانتدبت يد القدرة[2] واحدًا من الملأ، الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه، والذي جاء ذكره في سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾[سورة غافر: ٨٢]، انتدبه ليسعى إلى موسى ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ في جدٍّ واهتمام ومسارعة؛ ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك، ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾)[3].

---

(١) نظم الدرر ٥/ ٤٧٥.

(٢) الصواب أن يقال فانتدب الله سبحانه. ينظر: مجموع فتاوى الشيخ ابن باز رحمه الله ٢٨/ ٣٧٤.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨٥.

من كان يستطيع حماية موسى عليه السلام من فرعون وملئه، وهو في بلد فرعون وبيته؟!

من كان يستطيع حماية موسى عليه السلام من القتل، لو عاد موسى وبات في بيت فرعون تلك الليلة كما كان يبيت، وهو لا يدري بالمؤامرة؟!

كم لهذا المخبِر الغيور من فضل حين بلَّغ موسى عليه السلام بالخطة، وعرَّفه بطريق الخلاص، وخلَّصه من القتل فعليًا؟!

كم حاز هذا المخبِر من شرف حين رفع الله ذكره بذكره في كتابه العظيم، فأصبح يُقرأ على العالمين إلى يوم القيامة؟!

ولا يقتصر عمل المخبر على الرجال، فلربما كان للنساء دور أعظم، وخصوصًا حين يعجز الرجال، فتأتي النصرة من صفوف النساء.

وهل نجحت الهجرة بعد فضل الله إلا بالعمل الاستخباري لذات النطاقين؟!

ويبقى المخبرون المجاهدون في سباق، وصاحب الفضل الأول في المسلمين هو السابق في مجيئهم بالخبر النافع.

فعن يسير بن جابر قال: هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هِجِّيرى، إلا: يا عبد الله بن مسعود، جاءت الساعة، قال: فقعد وكان متكئًا، فقال: إنَّ الساعة لا تقوم، حتى لا يُقسم ميراث، ولا يُفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا ونحاها نحو الشام فقال: عدوٌ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهل الإسلام قلت: الروم تعني؟ قال:

نعم، وتكون عند ذاكم القتال ردة شديدة، فيشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء، كلٌّ غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام، فيجعل الله الدبرة عليهم، فيقتلون مقتلة، إما قال: لا يرى مثلها، وإما قال: لم ير مثلها، حتى إنَّ الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم حتى يخر ميتًا، فيتعاد بنو الأب كانوا مئة، فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد، فبأيِّ غنيمة يُفرح؟! أو أيِّ ميراث يُقاسم؟! فبينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس، هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ: إنَّ الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: (إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ)[1].

إنَّ مهمة الإخبار لهي المهمة العظمى في كثير من الأحيان...

وقد صح أنَّ رجلاً قال لحذيفة: لو أدركتُ رسول الله ﷺ قاتلتُ معه وأبليتُ،

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٩) (٣٧)، وأحمد ١/ ٣٨٤ و٤٣٥.

فقال له حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقرٍّ، فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة)، فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة مثله، ثم قال: (يا حذيفة قم فأتنا بخبر القوم)، فلم أجد بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فقال: (ائتني بخبر القوم ولا تُذعرهم عليَّ)، قال: فمضيتُ كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم، فإذا أبو سفيان يُصْلي ظهره بالنار، فوضعتُ سهمًا في كبد قوسي، فأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ: (لا تُذعرهم عليَّ)، ولو رميته لأصبته، فرجعتُ كأنما أمشي في حمام، فأتيت رسول الله ﷺ، فأصابني البرد حين رجعت وقُرِرت، فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح، فلما أن أصبحتُ قال رسول الله ﷺ: (قم يا نومان).[1]

وكلما اشتدت الفتن على المسلمين ازدادت أهمية المخبرين والمخبرات، وهل من فتنة أعظم من فتنة يأجوج ومأجوج؟! ومع هذا فبعدما تفور تلك الفتنة وتبلغ منتهاها تكون البشارة على يد مخبر باع نفسه لله تعالى.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (..ثم يهزُّ أحدُهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء، فترجع مخضبة دمًا للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله دودًا في أعناقهم كنغف الجراد الذي يخرج في أعناقهم، فيصبحون

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٨) (٩٩)، وأحمد ٥/ ٣٩٢.

موتى لا يسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشري نفسه، فينظر ما فعل هذا العدوُّ؟ قال: فيتجرد منهم رجلٌ محتسبًا لنفسه قد أطَّنها على أنه مقتول، فينـزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادي: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، فإنَّ الله قد كفاكم عدوكم. فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرِّحون مواشيهم، فما يكون لها رعي إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما شَكِرَتْ من نبات أصابته قط)[1].

فيا الله كم للمخبِرِ المجاهد منـزلة عند الله وعند رسوله ﷺ! كم له من نفع للإسلام والمسلمين!

وكم يحتاج هذا المخبِر إلى استفراغ الجهد في التوكل على الله تعالى، وطلب ستره حتى يقضي مهمته؟

وكم يحتاج أن يدعو له القائد وسائر الجيش؟

وكم يحتاج إلى أن تدعو على أخبارهم ومخبريهم : اللهم خذ العيون والأخبار عنهم...

إنَّ الواجب على كل مسلم أن يجعل نفسه عيناً للإسلام، ويجعل قلبه جناحًا يخفق على الإسلام، ويجعل أحاسيسه مجسَّات لاستشعار الخطر على الإسلام، وأذنه سماعة لهذا الدين العظيم...

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٧٧، وابن ماجه (٤٠٧٩)، وأبو يعلى (١١٤٤) و(١٣٥١)، وابن حبان (٦٨٣٠)، والحاكم ٢/ ٢٤٥ و٤/ ٤٨٩-٤٩٠، قال الألباني: حسن صحيح. وقال شعيب: إسناده حسن.

فلكم شرَّف الله تلك الآذان التي استمعت ونقلت لرسول الله ﷺ الخبر حين أنزل قوله سبحانه: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨].

وإذا أوجب الله على المسلم إظهار العيب عند البيع الذي فيه حفظ دراهم، فإنَّ إظهار عيب المشركين، وحماية عيب المسلمين، وستر نقطة ضعفهم أولى وأحرى...

ألم يقل النبي ﷺ كما في حديث تميم الداري: (الدين النصيحة)، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[١].

وقد روى عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ، في البيع صغيرًا كان أم كبيرًا، والعيب صغيرًا كان أم كبيرًا: (المسلم أخو المسلم، ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعًا فيه عيب، إلا بيَّنه له)[٢].

واليوم وبعد تغلغل الكثير من الشاميين في كثير من المجالات، وفي كثير من البلدان، وحسبوا أنَّ ذلك نعمة، وعليهم شكرها، عليهم أن يعلموا أنَّ ذلك ذنب عظيم، إذ هو يقابل الجهاد في سبيل الله، وكل واحد يعرف ماذا يُسمى ما يقابل الجهاد في سبيل الله ويضاده! اللهم إلا أن يسخِّر ذلك في خدمة الجهاد، عندها يتحول إلى نعمة حقيقية.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) (٩٦)، وأحمد ٤/ ١٠٢، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي ٧/ ١٥٦-١٥٧. وعلقه البخاري في صحيحه بعد الحديث رقم (٥٦).

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٨، وابن ماجه (٢٢٤٦)، والطبراني ١٧/ (٨٧٧)، والحاكم ٢/ ٨، والبيهقي ٥/ ٣٢٠. وقال الألباني: صحيح. وقال شعيب: حسن.

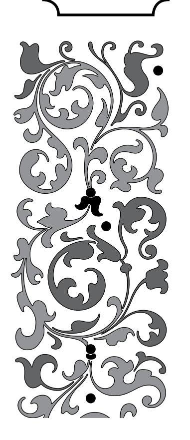
ومن أعظم ما يقدَّم خدمة للجهاد هو مواصلة المجاهدين بالأخبار صغيرة كانت أم كبيرة، وكلما عمَّ نفعُ الخبر عظم أجره.

والتوبة من هذا الذنب العظيم بتسخير العمل للمجاهدين، وعلى الأخص في مجال إخبارهم وإدخالهم وتمكينهم... عندها يصبح عمل الفرد عبادة من أعظم العبادات، والنبي ﷺ يقول كما في حديث عمر: (إنما الأعمال بالنيات)[(١)].

وقد رخَّص النبيُّ ﷺ لمن احتاج من الصحابة أن يتكلم فيه أو في دينه لمصالح عظمى كاغتيال رأس من رؤوس الكفر ونحوِ ذلك، وانظر في هذه المسألة رسالة نافعة للشيخ أبي بصير سمَّاها: (حالات يجوز فيها إظهار الكفر).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (١) و(٥٤) و(٢٥٢٩) و(٣٨٩٨) و(٥٠٧٠) و(٦٦٨٩) و(٦٩٥٣)، ومسلم (١٩٠٧) (١٥٥)، وأحمد ١/ ٢٥ و٤٣، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، والنسائي ١/ ٥٨ و٦/ ١٥٨ و٧/ ١٣.



العهد الثالث
الاستئذان من الإيمان

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النور:٦٢].

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: ما المؤمنون حقَّ الإيمان، إلا الذين آمنوا بالله ورسوله، ﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ ﴾، يقول: إذا كانوا مع رسول الله ﷺ، ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾، يقول: على أمر يجمع جميعهم، من حرب حضرت، أو صلاة اجتمع لها، أو تشاور في أمرٍ نزل، ﴿ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾، يقول: لم ينصرفوا عما اجتمعوا له من الأمر حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ)[1].

وقال ابن كثير: (وهذا أيضًا أدبٌ أرشد اللهُ عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم

(١) جامع البيان ١٩/ ٢٢٨.

بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، من صلاة جمعة، أو عيد، أو جماعة، أو اجتماع لمشورة، ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا ينصرفوا عنه، والحالة هذه، إلا بعد استئذانه ومشاورته، وإنَّ من يفعل ذلك فهو من المؤمنين الكاملين، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء، ولهذا قال: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

وقال البغوي: (﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾، يجمعهم، من حرب حضرت، أو صلاة أو جمعة، أو عيد أو جماعة، أو تشاور في أمر نزل... ﴿ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾... قال أهل العلم: وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن، وإذا استأذن فللإمام إن شاء أذن له، وإن شاء لم يأذن)[٢].

وقال أبو حيان الأندلسي: (وذِكر الاستغفار للمستأذِنين دليلٌ على أنَّ الأحسن الأفضل أن لا يُحدِّثوا أنفسهم بالذهاب، ولا يستأذنوا فيه. وقيل: نزلت في حفر الخندق، وكان قوم يتسللون بغير إذن، لذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم يظاهرونهم، ولا يخذلونهم في نازلة من النوازل، ولا يتفرقون عنهم، والأمر في الإذن مُفوَّض إلى الإمام إن شاء أذن، وإن شاء لم يأذن، على

---

(١) تفسير القران العظيم ٦/ ٨٨.
(٢) معالم التنزيل ٦/ ٦٦.

حسب ما اقتضاه رأيه، وهو تفسير حسن. ويجري هذا المجرى إمام الإمرة إذا كان الناس معه مجتمعين، لمراعاة مصلحة دينية، فلا يذهب أحد منهم عن المجمع إلا بإذن منه)[(١)].

وفي تفسير «اللباب» لابن عادل الحنبلي: (والأمر الجامع هو الذي يعم ضرره أو نفعه، والمراد به الخطْب الجلل الذي لا بد لرسول الله ﷺ من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم، فمفارقة أحدهم في هذه الحالة مما يشق على قلبه، ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ ﴾: أمرهم، ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾، بالانصراف، أي: إن شئت فأذن، وإن شئت فلا تأذن، ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ﴾، وهذا تنبيه على أنَّ الأولى ألا يستأذنوا وإن أذن؛ لأنَّ الاستغفار يكون عن ذنب، ويحتمل أن يكون أمره بالاستغفار لهم مقابلة على تمسكهم بإذن الله تعالى في الاستئذان)[(٢)].

وقال السيوطي: (﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾... أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير في الآية قال: هي في الجهاد والجمعة والعيدين)[(٣)].

وقال البقاعي: (﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾، أي: لهم على الله، كالجهاد لأعداء الله، والتشاور في فعلهم وصلاة الجماعة، ونحو ذلك، ﴿ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾، عن ذلك الأمر خطوة إلى

---

(١) البحر المحيط ٦/ ٤٣٦.
(٢) تفسير اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١٤/ ٤٦٣.
(٣) الدر المنثور ٥/ ١١٠.

موضع من الأرض، ولو أنه بيوتهم، لشيء من الأشياء، ولو أنه أهم مهماتهم؛ لأنه أخذ عليهم الميثاق بالطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره)[(١)].

وقال الآلوسي: (وعن ابن زيد، أنَّ الأمر الجامع: الجهاد. وقال الضحاك وابن سلام: هو كل صلاة فيها خطبة، كالجمعة والعيدين والاستسقاء. وعن ابن جبير، هو الجهاد وصلاة الجمعة والعيدين. ولا يخفى أنَّ الأولى العموم، إن كانت الآية نازلة في حفر الخندق، ولعل ما ذكر من باب التمثيل... ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَ...﴾، فإنَّ الاستئذان وإن كان لعذرٍ قويٍ لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة... وفي أحكام القرآن للجلال السيوطي: إنَّ في الآية دليلاً على وجوب استئذانه ﷺ قبل الانصراف عنه عليه الصلاة والسلام في كل أمر يجتمعون عليه. قال الحسن: وغير الرسول ﷺ من الأئمة مثله في ذلك؛ لما فيه من أدب الدين وأدب النفس. وقال ابن الفرس: لا خلاف في الغزو أنه يستأذن إمامه إذا كان له عذر يدعوه إلى الانصراف)[(٢)].

وقال القاسمي في معنى الأمر الجامع: (وذلك نحو مقاتلة عدو، أو تشاور في خطب مهم، أو تضام لإرهاب مخالف، أو تسامح في حلف، وغير ذلك، أو الأمر الذي يعمُّ بضرره أو بنفعه، وقرئ: (أمر جميع)، وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾، أنه خطب جلل، لا بد لرسول الله ﷺ فيه من ذوي رأي وقوة، يظاهرونه

(١) نظم الدرر ٦/ ٢٣٠.
(٢) روح المعاني ١٨/ ٢٢٣-٢٢٤.

عليه ويعاونونه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم وتجاربهم في كفايته، فمفارقة أحدهم في مثل تلك الحال مما يشقُّ على قلبه، ويشعث عليه رأيه، فمن ثم غلَّظ عليهم وضيَّق عليهم الأمر في الاستئذان مع العذر المبسوط، ومساس الحاجة إليه، واعتراض ما يهمهم ويعنيهم، وذلك قوله: ﴿لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾. وذِكر الاستغفار للمستأذنين دليل على أنَّ الأحسن الأفضل أن لا يحدِّثوا أنفسهم بالذهاب، ولا يستأذنوا فيه)[1].

وقال سيد: (وأيًّا ما كان سبب نزول هذه الآيات، فهي تتضمن الآداب النفسية التنظيمية بين الجماعة وقائدها، هذه الآداب التي لا يستقيم أمر الجماعة إلا حين تنبع من مشاعرها وعواطفها وأعماق ضميرها، ثم تستقر في حياتها، فتصبح تقليدًا متبعًا وقانونًا نافذًا، وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها)[2].

وقال ابن عاشور: (وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة؛ لأنَّ من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع، وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام، ومن السنة أن لا يجتمع جماعة إلا أمَّروا عليهم أميرًا، فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين، فهو في مقام النبي ﷺ، فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه؛ لأنه لو جعل أمر الانسلال لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانفضاض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت

(١) محاسن التأويل ٧/ ٤٢٨.
(٢) في ظلال القران ٤/ ٢٥٣٤.

لأجلها)[١].

وقال السعدي: (ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذَكر لأذنه لهم شرطين، أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر فلا يؤذن له. والثاني: أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالآذن، قال: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾، فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له، ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر اللهُ رسولَه أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصِّرًا في الاستئذان، ولهذا قال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوَّز لهم الاستئذان مع العذر)[٢].



(١) التحرير والتنوير ١٨/ ٣٠٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٥٧٦.

الوصايا

الوصية الأولى: التزام الاستئذان إيمان

لا يستطيع أحد من أهل الجهاد في الشام أن ينازع في أننا اليوم على أمر جامع، ولا يستطيع أحد أن ينازع بأنَّ الأمر الجامع في الآية ليس خاصًا برسول الله ﷺ، وذلك لانتفاء الدليل الدافع للأصل المتفق عليه، وهو أنَّ خطاب الله لرسوله ﷺ خطاب لأمته، وبالإضافة لكل هذا فهنا دليل على أهمية هذا الأمر على وجه الخصوصية، كما ثبت من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (من يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني)[١].

وقد ذكر ابن العربي في معنى الأمر الجامع ثلاثة أقوال:

- الأول: الجمعة والعيدان والاستسقاء وكل شيء يكون فيه الخلطة.
- الثاني: أنه كل طاعة لله.
- الثالث: أنه الجهاد.

وقد اختار القول الثالث ، فقال رحمه الله: (والذي يبيِّن ذلك أمران صحيحان:

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧) و(٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥) (٣٢) و(٣٣) و(٣٤)، وأحمد ٢/ ٢٤٤ و٢٥٢ و٢٧٠ و٣١٣ و٣٤٢ و٣٨٦ و٤٧١، وابن ماجه (٢٨٥٩)، والنسائي ٧/ ١٥٤ و٨/ ٢٧٦.

أحدهما: فهو قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾، وذلك أنَّ المنافقين كانوا يتلوذون، ويخرجون عن الجماعة، ويتركون رسول الله ﷺ، فأمر الله جميعهم بأن لا يخرج أحد حتى يأذن له رسولُ الله ﷺ، وبذلك يتبيَّن إيمانه.

وأما الثاني: قوله: ﴿ لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾، فأيُّ إذنٍ في الحدث والإمامُ يخطب، وليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه، وقد قال: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾، فبيَّن بذلك أنه مخصوص بالحرب التي يؤثر فيها التفرق)[١].

ثم عقَّب القرطبي على قول ابن العربي فقال: (القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى)[٢].

ومع هذا فإنه لا يوجد أمر جامع أولى وأرفع وأحسن وأعلى من الأمر لمنازلة العدو، ونشر الدين، فإذا كان في جهاد الدفع كان أعظم أهمية، وأكثر تعيينًا في الوجوب.

ولقد تهاون العديد من الناس في أرض الجهاد في الاستئذان حتى لم يعد الكثيرون يعيرون الأمر مزيد اهتمام في القدوم، والقعود، والانصراف في الإياب، والذهاب، وأصبح البعض يختار أسلوب «الأمر الواقع» مع أمير جهاده، رضي الأمير أم لم يرض، فهو إذا أراد أن يذهب ذهب دون إعلام؛ ليصبح ذهابه أمرًا واقعًا! وربما يسافر إلى

---

(١) أحكام القرآن ٣/ ٣٤٣-٣٤٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٣٢١.

منطقة أخرى للزيارة، أو في بلاد أخرى للتجارة، أو الإقامة، أو الهجرة، ويترك صحبه وراءه، بل يترك أمر الله وراء ظهره.

يقول الإمام القرطبي: (وظاهر الآية يقتضي أن يستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة)[1].

والملاحظ أنك تجد هذا التصرف من المنافقين في كل عصر من العصور.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عمن كان يستأذن يوم جاء التتار إلى الشام: (﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾؛ لأنَّ الله يحفظها، ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾، فهم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجون بحجة العائلة، وهكذا أصاب كثيرًا من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا. وهم يكذبون، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لوْ دَنا العدو كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم، والمقام للجهاد، فكيف بمن فرَّ بعد إرسال عياله؟!

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٤]، فأخبر أنه لو دُخلت عليهم المدينة من جوانبها، ثم طلبت منهم الفتنة، وهي الافتتان عن الدين بالكفر أو النفاق، لأعطوا الفتنة، ولجاؤوها من غير توقف...

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/ ٣٢١.

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم، ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام، وتلك فتنة عظيمة، لكانوا معه على ذلك، كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا، ما بين ترك واجبات، وفعل محرمات، إما في حق الله، وإما في حق العباد، كترك الصلاة، وشرب الخمور، وسب السلف، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين وحريمهم، وأخذ أموال الناس، وتعذيبهم، وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة)[1].

وكما كان هؤلاء من قبل يحاولون السلامة بأنفسهم بعيدًا عن ميدان القتال، فإنهم يحاولون تأكيد كونهم من المؤمنين، ومع المؤمنين بقلوبهم وإن كانوا بعيدين بأبدانهم.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فقال تعالى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة:٥٧]، فأخبر جلَّ جلاله أنهم وإن حلفوا أنهم من المؤمنين فما هم منهم، ولكن يفزعون من العدو، فلو ﴿ يَجِدُونَ مَلْجَئًا ﴾، يلجؤون إليه من المعاقل والحصون التي يفرُّ إليها من يترك الجهاد، ﴿ أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ ﴾، وهي جمع مغارة، ومغارات سميت بذلك؛ لأنَّ الداخل يغور فيها، أي: يستتر كما يغور الماء، ﴿ أَوْ مُدَّخَلًا ﴾، وهو الذي يتكلف الدخول إليه، إما لضيق بابه أو لغير ذلك، أي: مكانًا يدخلون إليه، ولو كان الدخول بكلفة ومشقة، ﴿ لَّوَلَّوْاْ ﴾، عن الجهاد

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٥٢-٤٥٣.

إليه، ﴿ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ﴾، أي: يسرعون إسراعًا لا يردهم شيء، كالفرس الجموح الذي إذا حمل لا يرده اللجام، وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين في حادثتنا، وفيما قبلها من الحوادث وبعدها...

وكذلك قال تعالى في سورة محمد: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ ﴾، أي: فبعدًا لهم، ﴿ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥] فحصر المؤمنين فيمن آمن وجاهد...

وقال تعالى: ﴿ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة:٤٤-٤٥]، فهذا إخبار من الله بأنَّ المؤمن لا يستأذن الرسولَ في ترك الجهاد، وإنما يستأذنه الذي لا يؤمن، فكيف بالتارك من غير استئذان؟! ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متظافرة على هذا المعنى)[1].

والصفة المشتركة لانسحاب هؤلاء من ميدان الجهاد هي «التسلل»؛ كي لا يعلم

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٣٧-٤٣٨.

بهم أحد فيعوقهم ويمنع خروجهم، وربما افتضح أمرهم قبل الخروج، وربما وافق القائد على خروجهم، وأذن لهم سرًّا إن خرجوا بناءً على حججهم التي يصعب عليه ردها، إما حياءً وإما تصديقًا لأعذارهم، ولو كان غير القائد معه لربما أفسد عليهم تسللهم، وقبول اعتذارهم...!

وتبقى صورة التسلل مفتوحة حسب الزمان والمكان، فلربما كان ليلاً، ولربما كان رسالة، ولربما كان رسالة هاتفية، أو بريدية، أو عن طريق غير مباشر، أو عن طريق وسيط...

يقول القاضي البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ ﴾: (ينسلون قليلاً قليلاً من الجماعة... ﴿ لِوَاذًا ﴾ يستتر بعضكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذن له فينطلق معه كأنه تابعه)[1].

إنَّ الاستئذان قضية في غاية الأهمية، كيف لا! وقد نصَّ عليها القرآن، وجعلها فاصلاً بين الإيمان والنفاق.

الوصية الثانية: أعذار المنافق هي هي

أيُّ قائد جهادي أو أيُّ منافق يصدق مع نفسه، ويستعرض أعذاره وأعذار صحبه، فإنه لا يجدها تخرج عما ذكر الله سبحانه وتعالى، وإنه ليجد في الكلمة القرآنية

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ٢٠٣.

إظهار الأعذار النفاقية على الأراضي الشامية على حقيقتها، وكأنَّ القرآن أُنزل الآن بخصوصنا نحن، هذا هو الأمر وأكثر دون أدنى مبالغة. وهاك أعذارهم باختصار:

العذر الأول: عدم الاستطاعة على الجهاد

يقول الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[التوبة: ٤٢].

يقول ابن الجوزي في تفسيره: (لو قدرنا وكان لنا سعة في المال)[1].

ولكنَّ لفظ الاستطاعة يشمل كلَّ أنواع الاستطاعة.

نعم، فسبب نزول الآية مقصور على حادثة واحدة معينة، لكنَّ الكلمة القرآنية شملت كلَّ معتذر بعدم الاستطاعة وهو كاذب: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

فكم رأينا من يعتذر بعدم الاستطاعة المالية! يقول: أنا فقير ولا أملك سلاحًا، ولا سيارة، ولا شيئًا أقدر أن أخرج أو أقاتل به... أنتم محتاجون وأنا عالة عليكم... والله يكذبهم ويقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، عندهم ما يغنيهم! وميدان الجهاد يكذبهم... ففي ميادين الجهاد من هو أفقر منهم كما قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ

---

(١) زاد المسير ٣/ ٣٦١.

وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة:٩١-٩٢].

يعتذرون بأنَّ مدخولهم المادي لا يكاد يكفي الأسرة، وأنهم إن خرجوا فلا مال للأسرة ولا معيل... فهل من الإسلام أن يصبح الأولاد عالة؟!

والله يكذبهم فيقول: ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾، وميدان الجهاد يكذبهم، إذ كم من معيل وحيد لأسرة فقيرة، لما مات أصبح للأسرة أكثر من معيل، وعاشت الأسرة في بحبوحة ما كانت تعيش عشرها!

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده)(١). فإذا كان الله يستجيب دعاء المسافر، فلِم لا يستجيب دعاء المجاهد، وهو أكرم الناس سفرًا، وأعظمهم في سفره أجرًا؟!

فهل يضمنهم الله ويضيِّع من وراءهم؟! حاشاه سبحانه.

---

(١) أخرجه الطيالسي (٢٥١٧)، وابن أبي شيبة (٣٠٤٤٩)، وأحمد ٢/ ٢٥٨ و٣٤٨ و٤٣٤ و٤٧٨ و٥١٧ و٥٢٣، وعبد بن حميد (١٤٢١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٢) و(٤٨١)، وأبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (١٩٠٥) و(٣٤٤٨)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه (٣٨٦٢)، وابن حبان (٢٦٩٩)، والطبراني في «الدعاء» (١٣١٤) و(١٣٢٣) و(١٣٢٥) و(١٣٢٦). وحسنه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار»، والألباني وشعيب وعبد القادر. وقال أحمد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد: إسناده صحيح!. وجاء في بعض الروايات «لولده» بدل «على ولده».

﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾، يعتذرون بعدم الاستطاعة البدنية، فإنَّ صحتهم لا تتحمل، وأوزانهم لا تصلح للحركة، وإصابتهم القديمة بأرجلهم أو أيديهم تعوقهم عن تحمل تبعات الجهاد! ثم إنهم يخافون على الإسلام أن يؤتى من قبلهم!

والله يكذبهم ويقول سبحانه: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة:٤١].

بل إنهم ليتمنون أن يستروا نفاقهم عن المؤمنين وجبنهم، ولو بإصابة حديثة ظاهرة تجعل المؤمنين يعذرونهم، حتى لو كان كسرًا في الرجل أو في اليد أو نحو ذلك؛ لكيلا يخرجوا للجهاد في سبيل الله!

﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾، يعتذرون بعدم الاستطاعة؛ لأنَّ وضعهم جدٌّ حساس، وخروجهم يكشف المجاهدين، فليتركوا في الخلف خيرٌ للمجاهدين من أن يكونوا معهم.

وهكذا تشمل كلمة الاستطاعة جميع اعتذارات المنافقين بالعجز في الماضي والحاضر والمستقبل، وبصوره المختلفة، والمختلقة، والواقع الشامي كما نشاهده يشهد بهذا.

العذر الثاني: شدة حرارة الأجواء أو برودتها

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨١].

كأنهم إذا جاء الشتاء خرجوا للجهاد!

أو كأنهم متخصصون في الغزوة الشتوية، أما الصائفة فلا!

وهل من اعتذر بأعذار فصلية بحرارة أو برودة يريد أن يبذل روحه؟!

فماذا بعد حرارة السلاح؟! وهل للحر أو البرد بعد ذهاب الروح من قيمة؟!

وهل قولهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾، موجهٌ إلى إخوانهم المنافقين أو موجهٌ إلى المؤمنين؟ ذكر المفسرون القولين.

وعلى أية حال فإن كان خطابهم موجهًا للمنافقين أو ضعفاء الإيمان فهذا يعني أنهم لم يكتفوا بمجرد النهي عن الخروج، بل استخدموا أسلوب الترهيب والترغيب في القعود، فقولهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾، يعني الترهيب من حرِّ الجزيرة وقيظ الصحراء، كما يعني الترغيب في الجلوس في الظلال والثمار والمياه...

وأما إن كان خطابهم موجهًا للمؤمنين فهذا يعني أنهم يثبطون المؤمنين عن الخروج بطريقتين، ويرغبونهم بطريقتين، فلكأنهم يقولون لهم: إن خرجتم فثمة أمران، الأول: حرارة الجو الشديدة، وهي مضرة لنا ولكم. والثاني: أنكم سوف تخسروننا؛ لأننا لا نستطيع الخروج في الحر.

أما قعودكم فلكم فيه مكسبان، الأول: الثمار والظلال والأنهار وما إلى ذلك. والثاني: خروجنا معكم في غير هذا الوقت، والله أعلم.

العذر الثالث: عورة الأهل

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب:١٣].

قال الطاهر بن عاشور: (وجملة ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ ﴾، عطف على جملة ﴿ قَالَت طَّآئِفَةٌ ﴾، وجيء فيها بالفعل المضارع للإشارة إلى أنهم يُلحُّون في الاستئذان ويكررونه ويجددونه)[1].

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾، قال ابن قتيبة: أي: خالية، فقد أمكن من أراد دخولها. وأصل العورة: ماذهب عنه الستر والحفظ، فكأنَّ الرجال ستر وحفظ للبيوت، فإذا ذهبوا أعورت البيوت. تقول العرب: أعور منـزلي، إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. وأعور الفارس، إذا بان منه موضع خلل للضرب والطعن. يقول الله: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾؛ لأنَّ الله يحفظها، ولكن يريدون الفرار. وقال الحسن ومجاهد: قالوا: بيوتنا ضائعة نخشى عليها السُّراق. وقال قتادة: قالوا بيوتنا مما يلي العدو، ولا نأمن على أهلنا، فكذَّبهم الله، وأعلم أنَّ قصدهم الفرار)[2].

وقال سيد: (ذلك كان شأنهم والأعداء بعدُ خارج المدينة، ولم تقتحم عليهم بعد. ومهما يكن الكرب والفزع، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع، فأما لو وقع واقتحمت

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٨٥.

(٢) زاد المسير ٦/ ٢١٣.

عليهم المدينة من أطرافها، ﴿ ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ ﴾، وطلبت إليهم الردة عن دينهم، ﴿ لَآتَوْهَا ﴾، سراعًا غير متلبثين، ولا مترددين، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ من الوقت، أو إلا قليلاً منهم يتلبثون شيئًا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارًا. فهي عقيدة واهنة لا تثبت، وهو جبن غامر لا يملكون معه مقاومة)[1].

أيها المجاهدون: ما أكثر ما سمعتم من يعتذر عن الجهاد في سبيل الله من الشباب بحجة الأهل... فالأهل عورة...! والأهل محتاجون...! والأهل في موقع الخطر...!

ومنازلنا قرب مقرات العدوِّ، كما قال قتادة: بيوتنا مما يلي العدوِّ!

الأهل في وجه المدفع! الأهل، والأهل، والأهل وما أدراك ما الأهل!

وربنا يقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

فهل أبقى الله من عذر لمعتذر بأهله! كيف وجهادنا جهاد دفع لا يستأذن فيه أحد أصلاً؟

اذهب بأهلك حيث شئت من مناطق تأمن فيها عليهم في الداخل أو الخارج، ثم أودعهم من شئت من إخوانك وأهلك، واستودعهم الله، وارجع إلى حيث أمرك الله...!

فماذا سيصنع الأهل إذا متَّ بينهم على فراشك وتركتهم؟!

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٣٩.

وماذا سيصنع الأرامل والأيتام ممن افتقدوا المعيل على الفراش؟!

﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾، والمفهوم أنَّ المنافقين ستر للعورات!

فهل هذا حقيقة؟! وهل تستر العورة بعورة؟!

وهل من مقارنة ما بين عورة الأُمَّة وعورة الأَمَة؟! أو عورة البلد المسلم وعورة البيت المسلم؟!

ومن ثم كان جواب الله جلَّ في علاه أن قال: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب:١٤]. فالآية توضح بجلاء أنهم يتنازلون عن أعظم شيئين، وليس عن العورة فحسب، إنهم يتنازلون عن المدينة برمتها بدل البيت، والدين بدل أيِّ مبدأ كمبدأ العورة... ولذا قال المفسرون: (ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا)، أي: الفتنة عن الدين، والردة، لآتوها، أي: لارتدوا عن دينهم. فأيُّ عورة تبقى إذا ذهب الدين والبلد؟!

وهكذا، فكل عذر إذا تأملته وجدت له في النفس الضعيفة وجهًا من القبول، ولو دققت فيه لوجدت فيه ملاذًا للفرار.

العذر الرابع: خوف الفتنة!

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة:٤٩).

قال ابن عاشور: (نزلت في بعض المنافقين، استأذنوا النبي ﷺ في التخلف عن تبوك، ولم يبدوا عذرًا يمنعهم من الغزو، ولكنهم صرَّحوا بأنَّ الخروج إلى الغزو يفتنهم لمحبة أموالهم وأهليهم، ففضح الله أمرهم بأنهم منافقون؛ لأنَّ ضمير الجمع عائد على الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾. وقيل: قال جماعة منهم: ائذن لنا؛ لأنا قاعدون، أذنت لنا أم لم تأذن، فأذن لنا؛ لئلا نقع في المعصية. وهذا من أكبر الوقاحة؛ لأنَّ الإذن في هذه الحالة كلا إذن، ولعلهم قالوا ذلك لعلمهم برفق النبي ﷺ. وقيل: إنَّ الجد بن قيس قال: يا رسول الله، لقد علم الناس أني مستهتر بالنساء، فإني إذا رأيتُ نساء بني الأصفر افتتنتُ بهن، فأذن لي في التخلف، ولا تفتني، وأنا أعينك بمالي. ولعل كل ذلك كان)[1].

وما نقلناه يدل بوضوح على سعي المنافقين لإلباس أعمالهم النفاقية اللبوس الشرعي؛ لتمريرها على المؤذِنين دون أيِّ استنكار منهم، ولكن أنَّى لهم ذلك، وهم يتمسكون بشبهات هي أوهى من خيوط العنكبوت؟! فأيُّ رجل هذا الذي يخشى على نفسه فتنة النساء، وهو يريد أن يقعد في المدينة وليس بها إلا النساء؟! وكيف يخشى على نفسه المعصية، وهو يسعى نحو النفاق بتركه للجهاد؟!

ولذلك فقد حذَّر النبي ﷺ من الاستجابة لأفكار هؤلاء، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٢٢٠-٢٢١.

مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: (نعم). قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: (نعم، وفيه دخن). قلت: وما دخنه؟ قال: (قوم يهدون بغير هدي، تعرف منهم وتنكر). قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: (نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها). فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال: (نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا). قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم). قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: (فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[1].

فانظر كيف وصف النبيُّ ﷺ هؤلاء الضُّلال بأنهم من جلدتنا، أي ظاهرهم الإسلام، (ويتكلمون بألسنتنا)، أي: يتكلمون بلسان الشرع، ويسوقون الأدلة الشرعية التي تبرر مواقفهم وتضفي عليها نوعًا من الشرعية، ولكنهم في حقيقة أمرهم (دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها)[2].

فكما زعموا هناك بأنَّ بيوتهم عورة، فسقطوا في العورة الأكبر، فإنهم زعموا هنا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦) و(٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧) (٥١)، وابن ماجه (٣٩٧٩) و(٣٩٨١).

(٢) دراسة قرآنية في النفاق وأثره في حياة الأمة، رسالة ماجستير للدكتور عادل بن علي الشدي. قال في الفتح ١٣/ ٣٦: (أي من قومنا ومن أهل لساننا وملتنا، وفيه إشارة إلى أنهم من العرب... وقال القابسي: معناه أنهم في الظاهر على ملتنا وفي الباطن مخالفون).

بأنهم يخافون الفتنة- فتنة النساء- فسقطوا في الفتنة الأكبر، فتنة النفاق.

ومن قبل تحاشوا حر الصيف فسقطوا في حر جهنم.

فأين يذهب المنافق بعذر التخلف عن الجهاد في أرض الشام.

هذه هي أكبر أعذارهم وأشهرها.

الوصية الثالثة: ممَّن الإذن بعد رسول الله ﷺ

أَوْكل الله تعالى الإذن وعدمه إلى الرسول ﷺ، ومن ثم فهو حقٌّ من الله لأمير الرسول من بعد الرسول ﷺ، فإنَّ الأمر لا يخلو من خلاف في وجهات النظر ما بين المستأذِن والأمير، فقطع الله جلَّ جلاله بأنَّ الأمر والمشيئة هنا للأمير وليس للمستأذِن.

الوصية الرابعة: رفق الأمير

لا بد أن يكون الأمير رفيقًا مستغفرًا، ويتقي الله جلَّ جلاله ما استطاع في المؤمنين المستأذِنين، إذ أنَّ الله حمَّله هذه الأمانة، وطلب منه في الختام الاستغفار للجميع والدعاء لهم.

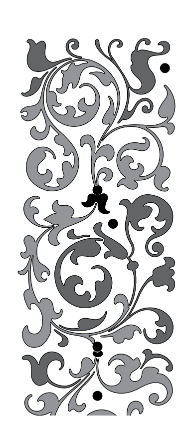
الوصية الخامسة: صراحة الإذن

إذا كان الله تعالى ربط إذن الذهاب بأمر الأمير، فكيف بالخروج عن الطاعة أساسًا؟! إذن فلا بد أن يكون استئذان صريح وإذن صريح.

الوصية السادسة: الاستغفار بشارة النصر

ربْطُ الاستئذانِ بالاستغفار دليل النصر، وفأل به- بإذن الله- إذ أنَّ الاستغفار هو الذكر المطلوب عادة عند مواجهة العدو، فالنصر يقع بين استغفارين، استغفار قبل المواجهة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨]، واستغفار بعد النصر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر:١-٣].

❊ ❊ ❊



العهد الرابع
عهد على حماية الإمداد

قال الله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون].

هذه الطريقة النفاقية، مِن أنفذ ما تكون في تفريق صفِّ المجاهدين، وفي تشتيت جهودهم، وإضعاف قوتهم... والمنافقون أعلم الناس بهذا، وخصوصًا الذين عاشوا هذه المرحلة بين المجاهدين، ورأوا حاجة المجاهدين للدينار والدرهم، ثم إنَّ المنافقين يحرصون دائمًا على معرفة مصادر التمويل والتحويل، وهم أقدر من العدوِّ الظاهر على معرفتها، وأقدر على الدلالة عليها وقطعها من غيرهم، فإذا نظرت بدقة في الآية وجدتهم يوجهون كلامهم لأناس معروفين لديهم بالإنفاق على المؤمنين كما قال الإمام الطبري: (﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ ﴾، يعني: المنافقين الذين يقولون لأصحابهم: ﴿ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾، من أصحابه المهاجرين، ﴿ حَتَّىٰ

﴿ يَنفَضُّواْ ﴾، يقول: حتى يتفرقوا عنه. وقوله ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، يقول: ولله جميع ما في السموات والأرض من شيء، وبيده مفاتيح خزائن ذلك، لايقدر أحد أن يعطي أحدًا شيئًا إلا بمشيئته، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾، أنَّ ذلك كذلك، فلذلك يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضُّوا)[١].

وهم إذ يفعلون ذلك فإنما يفعلونه لغاية محددة، إنها قطع الإمداد عن المؤمنين! إنه تفريق صفِّ المجاهدين، وانفضاض جمعهم بأسوأ صورة، قاتلهم الله أنى يؤفكون!

وقال ابن عطية: (﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ... ﴾، سفَّه أحلامهم في أن ظنوا إنفاقهم هو سبب رزق المهاجرين، ونسوا أنَّ جريان الرزق بيد الله تعالى، إذا انسد باب انفتح غيره)[٢].

وما أجمل ما قال برهان الدين البقاعي رحمه الله: (عبَّروا بحرفِ غايةٍ ليكون لما بعده حكم ما قبله، فقال: ﴿ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ﴾، أي: يتفرقوا تفرقًا قبيحًا فيه كسر، فيذهب أحد منهم إلى أهله وشغله الذي كان له قبل ذلك)[٣].

وقال الآلوسي: (والقائل رأس المنافقين ابن أبيٍّ، وسائرهم راضون بذلك... والانفضاض التفرق، و﴿ حَتَّىٰ ﴾ للتعليل أي: لا تنفقوا عليهم؛ كي يتفرقوا عنه عليه الصلاة والسلام، ولا يصحبوه)[٤].

(١) جامع البيان ٢٣/ ٤٠١.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٣١٤.
(٣) نظم الدرر ٧/ ٦١٢.
(٤) روح المعاني ٢٨/ ١١٤-١١٥.

وقال ابن عاشور: (وصيغة المضارع في ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يشعر بأنَّ هذه المقالة تتكرر منهم لقصد إفشائها)[١].

أرأيتم الدقة في هذه الآية الكريمة؟ والدقة في مخطط العدوِّ الخبيث وغايته؟ وبعدها هل رأيتم انطباق ماورد في الآية القرآنية على واقعنا؟ وهل رأيتم كم نظلم أنفسنا، ونخسر من أرواحنا، ونؤخر تمكيننا حين لا نعطي الآيات القرآنية حقها؟

وهل رأيتم كبار الزنادقة كيف يدندنون ويدينون التمويل الخارجي من أصحاب المجاهدين، ولو من باب الإثارة والتخويف؟

أيها المجاهدون: حقيقة عظيمة يجب أن تعتقدوها وتبنوا عليها أعمالكم، تلك الحقيقة لا يعرفها حق المعرفة أحدٌ سواكم: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾. وما أجمل ما قاله البقاعي في تفسير هذه الآية: (فسبحان مَن يُضلُّ من يشاء حتى يكون كلامه أبعد شيء عن الصواب، بحيث يعجب العاقل كيف يصدر ذلك عن أحد... فقد أرسل جلَّ جلاله إليه ﷺ بمفاتيح خزائن الأرض فأباها، وما كفاهم هذا الجنون حتى زادوه ما دلَّ على أنهم ظنوا أنَّ أبواب الرزق تغلق إذا امتنع المنفقون من الناس عن إنفاقهم... وما درى الأجلاف أنهم لو فعلوا ذلك أتاح اللهُ غيرَهم للإنفاق، أو أمر رسوله ﷺ فدعا في الشيء اليسير فصار كثيرًا، أو كان بحيث لا ينفد، أو أعطى كيلاً يسيرًا من طعام على كيفية لا تنفد معها، كتمر أبي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٤٦.

هريرة وشعير عائشة وعكة أم أيمن رضي الله عنهم، وغير ذلك كما روي غير مرة، ولكن ليس لمن يُضلُّ الله من هاد، ولذلك عبَّر في الرد عليهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾، أي: قالوا ذلك واستمروا على تجديد قوله، والحال أنَّ للملِك الذي لا أمر لأحدٍ معه فهو الآمر الناهي ﴿خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي: كلها، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ كذلك من الأشياء المعدومة الداخلة تحت المقدرة، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون. ومن الأشياء التي أوجدها فهو يعطي من يشاء منها ما يشاء حتى من أيديهم، لا يقدر أحد على منع شيء من ذلك، لا مما في يده ولا مما في يد غيره، وفيه على سوء غباوتهم وأنهم تقيدوا بالوهم حتى سفلوا عن رتبة البهائم، كما قال بعضهم: إن كان محمدٌ صادقًا فنحن شرٌّ من البهائم، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، أي: العريقين في وصف النفاق، ولما كان ما يساق إلى الخلق من الأرزاق فيظن كثير منهم أنهم حصلوه بقوتهم عبَّر بالفقه، الأخص من العلم، فقال: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، أي: لا يتجدد لهم أصلاً؛ لأنَّ البهائم إذا رأت شيئًا ينفعها يومًا ما في مكان طلبته مرة أخرى، وهؤلاء رأوا غير مرة ما أخرج الله من خوارق البركات على يد رسول الله ﷺ فلم ينفعهم ذلك، فمن رأى أنَّ رزقه بيد الخلق فألهاه ذلك عن الله حتى ضيَّع حقوقه، وداهن في دينه فقد برئ من القرآن)[1].

والمنافقون حين يأمرون المنفقين بقطع الإمداد عن المجاهدين إنما يريدون الدين

(١) نظم الدرر ٧/ ٦١٢.

برمته، وتفريق اجتماع حملته، فهو المخطَّط القديم الحديث الذي لا يتخلى عنه المنافقون أبدًا، في أيِّ عصر من العصور.

ويُظهر سيد رحمه الله هذا المعنى جيدًا من قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون:٧]، فيقول: (وهي قولةٌ يتجلى فيها خبث الطبع، ولؤم النحيزة، وهي خطة التجويع التي يبدو أنَّ خصوم الحق والإيمان يتواصون بها على اختلاف الزمان والمكان، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان، ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم، فيحاربون بها المؤمنين، إنها خطة قريش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب؛ لينفضُّوا عن نصرة رسول الله ﷺ، ويسلموه للمشركين، وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية؛ لينفضَّ أصحاب رسول الله ﷺ عنه تحت وطأة الضيق والجوع، وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين؛ ليموتوا جوعًا أو يكفروا بالله، ويتركوا الصلاة، وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق، وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كلُّ خصوم الإيمان، من قديم الزمان، إلى هذا الزمان... ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية: (وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ).

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا

في أرزاق المؤمنين، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم، فما أغباهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين!

وهكذا يُثبِّت الله المؤمنين ويقوِّي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللئيمة والوسيلة الخسيسة، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم، ويطمئنهم إلى أنَّ خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع، والذي يعطي أعداءه لا ينسى أولياءه، فقد شاءت رحمته[1] ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق، وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيرًا ولا قليلاً لو قطع عنهم الأرزاق! وهو أكرم أن يكل عباده- ولو كانوا أعداءه- إلى ما يعجزون عنه البتة، فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء!)[2].

وهذا رسول الله ﷺ وهو الذي يحمل ذاك اليقين، وتجري عليه آيات البركات في مجاري الأرزاق لم يتوان ﷺ في إيجاد الاكتفاء الذاتي والاستغناء كليًا عن أسباب الأرزاق المعتادة بين الناس، ابتداءً بأمره بشراء بئر رومة من اليهود، وتشجيع الصحابة على الصفق في الأسواق، والخروج إلى قوافل قريش التجارية، وتأييد أبي بصير في قطع إمداد الأعداء وإضعافهم اقتصاديًا، وغير ذلك كثير.

(١) قال الشيخ ابن باز رحمه الله في مجموع فتاواه ٢٨/ ٣٧٤ : (كلام لايجوز ، وفيه سوء تعبير ، والصواب أن يقال :شاء الله سبحانه أو شاء ربنا سبحانه أو نحو ذلك من العبارات التي فيها إفراد المشيئة لله لا إلى صفاته) .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٧٩.

ومع هذا فلا بد أن تمرَّ على المؤمنين المجاهدين ظروف عصيبة، وجوع شديد، وفقر مدقع، وهذا جزء من البلاء الذي يصيب المؤمنين، حتى وهُم في مواجهة العدو.

فكم جمع الله على المؤمنين من ابتلاء في الخندق حيث البرد الشديد، والريح الصرصر، والفقر، والجوع، والخوف، ونقض اليهود العهود، حتى أسقط كلُّ بلاءٍ صنفًا من أصناف المنافقين، وما بقي إلا الصفوة، والمعركة لـمَّا تبدأ بعد!

ويكفي أن يصف الله تعالى ظروفهم بقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب:١٠-١١].

يقول الدكتور أكرم ضياء العمري: (وعندما واجهت الصحابة صخرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر، ضربها رسولُ الله ﷺ ثلاث ضربات ففتتها، وقال إثر الضربة الأولى: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة. ثم ضربها الثانية فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض. ثم ضرب الثالثة وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة[(١)]).

وهكذا بشرهم بما سيكون من فتوح لهذه البلدان، وهم محصورون في خندق

---

(١) من رواية أحمد، والنسائي في «الكبرى»، وقال الحافظ ابن حجر: إنَّ إسنادها حسن إلى البراء بن عازب. (حواشي النص الذي نقلته من العمري هي للدكتور العمري).

يقرصهم البرد والجوع، فقال المؤمنون: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾. وأما المنافقون فقد سخروا من هذه البشارة، وقالوا: ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾. وموقف المنافقين كان يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت روايات ضعيفة تحكي أقوالهم في السخرية والإرجاف والتخذيل[1]، ولكنَّ القرآن الكريم يتكفل بتصوير ذلك أدق تصوير، والآيات هي:

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب:١٣].

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾ [الأحزاب:١٥].

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الأحزاب:١٦).

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٧].

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٨].

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ

(١) المعجم الكبير للطبراني ١١/ ٣٧٦.

مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٩].

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:٢٠].

والآيات تشير إلى حالة النفاق وما تولده من القلق في النفوس، والجبن في القلوب، وانعدام الثقة بالله عند تعاظم الخطوب، والجرأة على الله تعالى بدل اللجوء إليه عند الامتحان. ولا يقف الأمر عند الاعتقاد، بل يتبعه العمل المخذِّل المرجف، فهم يستأذنون الرسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل والقتال بحجج واهية، زاعمين أنَّ بيوتهم مكشوفة للأعداء، وإنما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم وللخوف المسيطر عليهم، بل ويحثون الآخرين على ترك مواقعهم والرجوع إلى بيوتهم، ولم يراعوا عقد الإيمان وعهود الإسلام)[1].

لقد أراد المنافقون إثارة المخاوف في نفوس الصحابة مع ما صحب تلك المخاوف من جوع وغدر، وحصار، وتخويف، وإرجاف، بينما كانت حافزًا لأن يستنفروا كلَّ طاقاتهم حماية لدينهم كالأم إذا تعرض صغارها للخطر، وكانت سببًا لاعتقادهم باقتراب النصر.

ويقول الدكتور أكرم ضياء العمري: (فقد لاحظ الصحابي جابر بن عبد الله ما

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٢٣.

أصاب الرسول ﷺ من الجوع الشديد، فطلب من زوجته أن تصنع له طعامًا، فذبح معزى له، وطحنت زوجته صاعًا من شعير، وصنعت برمة، وذهب جابر فدعا النبي ﷺ إلى الطعام، وسارَّه بكمية الطعام، فصاح النبي ﷺ بالمسلمين ودعاهم إلى طعام جابر، فحضر منهم ألف، وأُسقط في يد جابر وأهله، لكنَّ النبي ﷺ بارك في البرمة، فأكل منها الجميع حتى شبعوا وتركوا فيها الكثير، فأكل منه أهل جابر وأهدوا منه)[١].

ويقول أيضًا: (وقد تم الحفر بسرعة رغم الجو البارد والمجاعة التي أصابت المدينة في ذلك الوقت[٢]، فكان طعام الجيش قليلًا من الشعير يخلط بدهن سنخ (متغير الرائحة لقدمٍ) ويُطبخ فيأكلونه رغم طعمه الكريه ورائحته المنتنة لفرط الجوع[٣]، وأحيانًا لا يجدون سوى التمر[٤]، وقد يلبثون ثلاثة أيام لا يذوقون طعامًا، ولكنَّ حرارة الإيمان طغت على آثار البرد والجوع القارصيْن، فكان المسلمون يعملون بقوة، ويحملون التراب على أكتافهم، وفيهم من كان لا يخدم نفسه من التجار والزعماء، وقد استووا جميعًا في الحفر وحمل الأتربة، وهم في غاية الحماس يرددون الأهازيج، والرسول ﷺ يحفر معهم[٥]، وينقل التراب حتى اغبر بطنه ووارى التراب جلده، وقد

(١) السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٢٢، والحديث في صحيح البخاري ٥/ ٤٦.
(٢) صحيح البخاري ٥/ ٤٥.
(٣) فتح الباري ٧/ ٣٩٢ـ ٣٩٣.
(٤) البداية والنهاية ٤/ ٣٩٥.
(٥) البخاري ٥/ ٤٧.

شدَّ على بطنه أحجارًا لفرط الجوع)[١].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: بعثنا رسول الله ﷺ، وأمَّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيرًا لقريش وزودنا جرابًا[٢] من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قال: فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط[٣] ثم نبله بالماء فنأكله...[٤].

فتهديد المنافقين للمجاهدين بقطع الإمداد أمر طبيعي، إنما الأهم هو أن لا تنال هذه الكلمة من معتقد المؤمنين أدنى نيل، فضلاً أن تجعلهم يتنازلون عن أيِّ شيء من دينهم، بل والله ينبغي أن يستثيرهم ذلك أكثر لتحقيق موعود الله لهم بتدخله وإغنائهم غنى لا يحتاجون بعده إلى سؤال أو طلب أو منَّة أو تهديد بقطع، وهم يعلمون أنَّ موعود الله منوط باتباعهم أمره، ومن أمره قتال العدوِّ، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٢٨].

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٢١.

(٢) الجراب: وعاء من إهاب الشاء، لا يوعى فيه إلا يابس. لسان العرب ١/ ٢٥٣.

(٣) الخبط بالتحريك الورق الساقط، فعل بمعنى مفعول، وهو من علف الإبل. النهاية ٢/ ٧.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٨٣) و(٢٩٨٣) و(٤٣٦٠) و(٤٣٦١) و(٤٣٦٢) و(٥٤٩٣) و(٥٤٩٤)، ومسلم (١٩٣٥) (٢٠) و(٢١)، وأحمد ٣/ ٣٠٣ و٣١١ و٣٧٨، وأبو داود (٣٨٤٠)، والترمذي (٢٤٧٥)، وابن ماجه (٤١٥٩)، والنسائي ٧/ ٢٠٧ و٢٠٨ و٢٠٨-٢٠٩.

قال الإمام الطبري: (وقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾، يقول للمؤمنين: وإن خفتم فاقة وفقرًا، بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾...

وإنما قيل ذلك لهم؛ لأنَّ المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحرم انقطاع تجاراتهم، ودخول ضرر عليهم بانقطاع ذلك، وأمَّنهم الله من العَيْلَة، وعوَّضهم مما كانوا يكرهون انقطاعه عنهم ما هو خير لهم منه، وهو الجزية، فقال لهم: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ إِلَى: ﴿ صَٰغِرُونَ ﴾.

وقال قوم: بإدرار المطر عليهم...

وأما قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾، فإنَّ معناه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بما حدثتكم به أنفسكم- أيها المؤمنون- من خوف العيلة عليها، بمنع المشركين من أن يقربوا المسجد الحرام، وغير ذلك من مصالح عباده، ﴿ حَكِيمٌ ﴾، في تدبيره إياهم، وتدبير جميع خلقه)[1].

وفي تفسير البيضاوي: (﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾، فقرًا بسبب منعهم من الحرم، وانقطاع ما كان من قدومهم من المكاسب والأرزاق، ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾، من عطائه أو تفضله بوجه آخر، وقد أنجز وعدَه بأن أرسل السماء عليهم مدرارًا، ووفَّق أهل تبالةَ وجرَشَ فأسلموا وامتارُوا لهم، ثم فتح عليهم البلاد والغنائم، وتوجه إليهم الناس من أقطار الأرض، ﴿ إِن شَآءَ ﴾، قيَّده بالمشيئة؛ ليقطع الآمال إلى الله تعالى، ولينبه على أنه تعالى متفضِّل في ذلك، وأنَّ الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام، ﴿ إِنَّ

---

(١) جامع البيان ١٤/ ١٩٧.

ﵟٱللَّهَ عَلِيمٌﵞ بأحوالكم ﵟحَكِيمٌﵞ فيما يعطي ويمنع)[1].

الوصايا

الوصية الأولى: تحقيق الاكتفاء الذاتي

أيها المجاهدون: إذا كان المنافقون الأولون يطمعون في تحقيق هذا الأثر؛ لقطع الإمداد عن أصحاب رسول الله ﷺ، وفيهم رسول الله ﷺ، فكم هو مطمعهم- يا ترى- على من هو دون رسول الله ﷺ - وكلُّ الناس دونه- ودون أولئك الرجال في الإيمان، ودونهم في الألفة، ودونهم في الجهاد؟

فإيجاد الأوقاف الاستثمارية ونحوها ضرورة لا محيد عنها، فإنَّ مما ندم عليه بعض المجاهدين أنهم كانوا يحرقون كل ما يصلهم من تبرعات في نفقات الحرب دون النظر إلى ما بعد الحرب، أو النظر إلى ظروف أصعب من ظروفهم، فحين قُطع عنهم الإمداد انفض الأصحاب في طلب الأرزاق لعوائلهم، وما أصبح لدى قياداتهم ما يطعمون به جندهم...!

(١) تفسير البيضاوي ٣/ ١٣٩.

الوصية الثانية: حماية سرِّ الإمداد

عدم منح المنافقين أيَّ إشارة على سرٍّ، وأن لا تهبوا المنافقين أيَّ سر عن نفقاتكم مصدرًا وموردًا، فمن لا يؤتمن على سرٍّ ليس له قيمة، كيف يؤتمن على سرٍّ ثمين يقبض في مقابله المئين؟!

أيها المجاهدون: اكتموا ما استطعتم مداخيلكم، ولا تعطوا أسراركم لأيِّ منافق مهما كان سركم محتقرًا، فقد رضي الشيطان عند اليأس بما تحاقرون من أعمالكم وأقوالكم وأسراركم!

وهذا ما ينبغي أن يتعاهد على حفظه كلُّ فرد، ليس سر فصيله فحسب، ولكن سر الإمداد مع أيِّ فصيل جهادي آخر، فلتعتبر أنَّ هذا هو سر الإسلام، وليس سر جماعة خاصة، وإنه كذلك؛ لأنَّ الذي سوف ينتفع بهذا السر هو عدو الإسلام، وليس عدو جماعة معينة.

فلا مجال إذن للتساهل بهذا السر، فالإخبار بطريق مباشر أو غير مباشر عن تمويل أيِّ جماعة جهادية يعتبر خيانة للإسلام وللجهاد.

وهذه المنهجية في التعامل هي منهجية «الوحدة المبدئية» الصحيحة، أي الوحدة على مبادئ معينة، حيث تُحدَّد مبادئ معينة في بنود معينة، يلتزم بالمحافظة عليها جميع المجاهدين من جميع الفصائل، ويتعامل الفرد- من أيِّ فصيل جهادي كان- مع تلك

البنود المبدئية المشتركة معاملته مع مبادئ فصيله، وخيانتها خيانة سرِّ دينه وفصيله.

فهذه هي الوحدة الحقيقية، ولا يضر بعد ذلك تعدد الأسماء، وانفصال الفصائل عن بعضها تنظيميًا، وما فائدة الوحدة النظامية إذا كانت الوحدة المبدئية بين الأفراد فرطًا؟!

وعلى هذا يكون التعاهد.

الوصية الثالثة: الاقتصاد والجهاد معًا

ما تزال طرائق جمع المال طرائق محدودة ومعلومة وبدائية ومحصورة، ولذا توجَّب أن يتحوَّل هذا النوع إلى دراسات ترتكز على أمرين:

الأول: حرمان العدو من تمويله كما صنع النبي ﷺ حين كان يُغِير على القوافل، ويترك أبا بصير رضي الله عنه يصنع بها ما يشاء، فالإبداع في الوصول إلى مقاتل الاقتصاد أمر من الأهمية بمكان، ولن نعدم غيورًا في كلِّ موقع.

ثانيًا: إيجاد مصادر مستقلة تحقق الاكتفاء الذاتي، كما مرَّ معنا في التعاهد الثاني، لكنَّ التعاهد هنا أنَّ هذا الأمر لا بد أن يخضع لدراسات، يشرف عليها أناس متخصصون في جانب الجهاد وآخرون في الاقتصاد، ولتكن صورًا جديدة واضحة ومقنعة ومنطقية ككفالات سنوية لمراتب عسكرية معينة، أو تبرعات بسيارات، أو كفالة عمليات، وما هذا إلا من باب استثارة الأذهان لأشياء أكثر وأكبر.

الوصية الرابعة: التواصي بالنصرة

لا شك أنَّ الدور الفعلي في إمداد الجهاد لمن يقوم على جمع المال مبتغيًا به وجه الله لهو أوسع أهمية من دور آحاد المجاهدين في الميدان، هذه الحقيقة التي ينبغي أن تكون واضحة، ولا ينبغي أن يكون الفهم قاصرًا على أنَّ الجهاد عند إطلاق الزناد فحسب، فما هذه إلا المرحلة الأخيرة التي تسبقها مراحل ومراحل، فعن عقبة بن عامر، أنَّ النبي ﷺ، قال: (إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله...)[1].

كما ينبغي أن نفهم أنَّ موعود الله بإبدال المؤمنين من واسع فضله، إن حاصرهم المشركون، إنما هو اختيار قدري واصطفاء إلهي لمن وفقه للإنفاق بنفسه أو لجمعه ورعايته: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٢٨).

فالشرف كلُّ الشرف أن يمثِّل العبد صورة لإغناء الله المؤمنين المجاهدين من فضله، فيكون هو اختيار الله جلَّ في علاه.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٠٠٦) و(١٠٠٧)، وسعيد بن منصور (٢٤٥٠)، وابن أبي شيبة (١٩٧٧٩) و(١٩٨٩٨) و(٢٦٨٥٠)، وأحمد ٤/ ١٤٤ و١٤٦ و١٤٨، والدارمي (٢٤٤٩)، وأبو داود (٢٥١٣)، والترمذي بعد الحديث رقم (١٦٣٧) وقال: حديث حسن. وابن ماجه (٢٨١١)، والنسائي ٦/ ٢٨ و٢٢٢-٢٢٣، وفي «الكبرى» (٤٣٥٤) و(٤٤٢٠)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٩٥) و(٢٩٧)، والطبراني ١٧/ (٩٤٠) و(٩٤١) و(٩٤٢)، والحاكم ٢/ ٩٥، والبيهقي ١٠/ ١٣-١٤ و٢١٨. وقال شعيب: حديث حسن بطرقه وشواهده.

العهد الخامس
اتقاء الخلل

قال الله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٧-٤٨].

قال الطبري: (﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾، يطلبون لكم ما تفتنون به عن مخرجكم في مغزاكم بتثبيطهم إياكم عنه... قال ابن زيد في قوله: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾، قال: هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك يسلي اللهُ عنه نبيه ﷺ والمؤمنين فقال: وما يحزنكم؟ ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾، يقولون: قد جُمع لكم وفُعل وفُعل، يخذِّلونكم)[1].

وقال الرازي: (واعلم أنَّ حاصل الكلام هو أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا

(١) جامع البيان ١٤/ ٢٨٠.

خبالاً، والخبال هو الإفساد الذي يوجب اختلاف الرأي، وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب؛ لأنَّ عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه)[1].

الوصايا

الوصية الأولى: لا ندم على تخلف الخوالف

فمن رغب عن الجهاد فذلك لرغبة الله عنه، ومن استغنى عن الله فالله غني عنه، وقد أغنى الله عنه، فالطاهر لا يندم على عدم تعلق النجاسة بثيابه، أليس المنافقون رجسًا؟! حتى لو انسحب من صفِّ المجاهدين الثلث، والثلث كثير، وانسحبوا قبل المواجهة بلحظات، فذلك لأنَّ الله أراد أن يخفف عن المجاهدين جميع الأثقال، ويكفيهم شر الأشرار، ولأنَّ الله أراد أن يكشف المنافقين حتى وإن كانوا الثلث، بل لو تساقط الأكثرية وبقيت القلة القليلة، فما ذلك إلا لأنَّ الله أراد أن ينـزل نصره، ونصرُه لا ينـزل على صفٍّ مشوب بهذه الطريقة، ولأنه أراد أن لا يشركه أحد في نسبة النصر لنفسه، أو يكون لأحد منَّة على دينه، أو على أوليائه.

إنَّ المجاهد وهو يقف أمام العدو لابد أن يكون حريصًا على كل فرد من الأفراد

(١) مفاتيح الغيب ١٦/ ٦٦.

المجاهدين، وكم يعزُّ عليه أن يسقط واحدٌ من الآلاف التي تنتمي لفصيله، أو لأيِّ فصيل جهادي صادق، فكيف إذا كان أكثر من واحد، وكيف إذا استطاع العدو توظيف هؤلاء في صفِّ منافقيه؟!

وفي هذه الكلمة أعظم عزاء للمؤمنين الصادقين عن تخلُّف المتخلفين، وتساقط المتساقطين: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾، ومن جهة أخرى فإنَّ العبرة كما هو واضح من الآية بالمخلصين في الصفوف أو بالصفوف المخلصة الخالصة.

والعبرة بتصفية ذلك الفصيل وتلك الجماعة الجهادية من المنافقين، وليست العبرة بالكثرة كيفما اتفق!

الوصية الثانية: لا قليل من النفاق

يقول الله جلَّ في علاه: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم ﴾.

يقول البقاعي: (أي: كانوا قليلاً مغمورين بجماعاتكم)[1].

فمهما كانت أعدادهم قليلة فأخطارهم عظيمة!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (فمن النفاق ما هو أكبر، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أبيٍّ وغيره، بأن يُظهر تكذيب الرسول ﷺ أو

---

(١) نظم الدرر ٣/ ٣٢٧.

جحود بعض ما جاء به أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرَّة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدوًّا لله ورسوله ﷺ.

وهذا القدر كان موجودًا في زمن رسول الله ﷺ، وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده، لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها كان النفاق موجودًا، فوجوده فيما دون ذلك أولى.

وكما أنه كان يعلم بعض المنافقين، ولا يعلم بعضهم، كما بينه قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾، كذلك خلفاؤه بعده وورثته قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم.

وفي المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة، ويسمون الزنادقة)[١].

إنَّ أصعب ما على المنافق وعلى شياطينه أن يُكشف أمرهم فيطردوا من الصف الجهادي، أو يُتخلص منهم... إنها ضربة في الصميم للأعداء، ذلك لأنَّ خطط العدو الأكبر مبنية في الأساس على تلقي المعلومات من هؤلاء المندسين، فعادة ما يضربون ضربتهم الإستراتيجية بناءً على معلوماتهم السابقة التي حصلوا عليها من مصادرهم النفاقية، كما تأتي ضربتهم الفورية للمجاهدين بناءً على المعلومات من منافقيهم وسط

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٣٤.

الصف.

إذن فكم لدى العدو من الاستعداد ليدفع في مقابل منافق داخل صفنا؟!

إنهم يدفعون إذا اقتضى الأمر ما يساوي بقاءهم، وما يساوي انتصارهم، وما يساوي بلادنا، فلا تستكثروا المبالغ التي يدفعها الأعداء للمنافقين من أجل أن يتمكنوا...

فالله جلَّ جلاله- وهو العليم الخبير- حين يوضح للمؤمنين المكاسب المتحققة بالسلامة من عدم وجود المنافقين معهم فإنه يقول: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾.

قال الطبري: (لم يزيدوكم بخروجهم فيكم إلا فسادًا وضرًا، ولذلك ثبطهم عن الخروج معكم)[١].

وأنتم أيها المجاهدون: تذكرون جيدًا كم وفَّرتم من المكاسب لما اكتشفتم منافقًا كان بينكم؟ وكم حقنتم من الدماء والأرواح حين أخرجتم الخبال والفساد من داخل أعضائكم؟ وكم نجحتْ لكم خطط جهادية هجومية ودفاعية كانت توأد في كل مرة من قَبْل حين كُفيتم هؤلاء فأخرجتموهم؟

أيها المجاهدون: بالله عليكم، لمن وجَّه الله تعالى الخطاب في قوله: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾؟ ألم يُوجَّه لأفضل أناس، أصحاب رسول الله ﷺ؟! هذا

(١) جامع البيان ١٤/ ٢٧٨.

وهُم أكثر المجتمعات طهارة، وأنقى الأصحاب، وأبعدهم عن قبول الفتنة والشبهة، ومع هذا لا يمكن أن يسلموا من تأثيراتهم النفاقية لو خرجوا فيهم!

والمقتضى العملي لكم أيتها الجماعات المجاهدة: أن تضاعفوا الجهد؛ لئلا يخرج معكم المنافقون؛ لأنهم إن خرجوا أوقعوا الفتنة فيكم والخبال! فهذه هي غاية خروجهم، وهذا هو هدفهم، ووسيلتهم في ذلك التشكيك والوقيعة، باستغلال الفرص لذلك بانتهاز أوقات المحادثة مع المجاهدين في الطريق، وفي أماكن النـزول، والراحات، والخلوات، مستغلين لهذا الهدف كلَّ كلمة، وكلَّ عمل، وكلَّ خلاف... حاملين أحسن الأعمال والأقوال على أسوأ الظنون من خلال أسوأ التفسيرات! مشككين في أعظم رجالكم، وفي أصعب قراراتهم بطريقة الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس.

فعليكم أن تضاعفوا الحيطة والحذر ابتداءً.

الوصية الثالثة: الوقاية من إيضاعهم

قال تعالى: ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ ﴾.

يقول ابن كثير: (أي: ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة)[1].

وقال البغوي: (﴿ وَلَأَوْضَعُواْ ﴾، أسرعوا، ﴿ خِلَٰلَكُمْ ﴾، وسطكم، بإيقاع العداوة

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٠.

والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض)[(١)].

أيها المجاهدون: تأملوا الآيات، ثم تأملوا واقعكم، وسترون أنَّ الوصية الأعظم هنا هي رصُّ الصف وسدُّ الخلل.

فالمنهجية المتبعة لدى المنافقين الأولين هي الإسراع بنقل الخبر بمجرد تحصيله، فأنت تعجب للجهد الذي يبذلونه حتى تكاد تقسم بأنَّ هذا الجهد المتواصل والعمل الدؤوب لا يقوم به إلا مخلص محتسب غيور على جهاده، والغاية في إيضاع المنافقين منصوص عليها وهي: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾. فإذا نظرنا في الواقع وجدنا إيضاع المنافقين ليس مثله إيضاع، فسرعتهم في نقل الخبر تناسب عصر السرعة.

يقول ابن عاشور: (في ذكر ﴿خِلَٰلَكُمۡ﴾، ما يصلح لتشبيه استقرائهم الجماعات والأفراد بتغلغل الرواحل في خلال الطرق والشعاب، والخلال جمع خَلَل بالتحريك، وهو الفرجة بين شيئين، واستعير هنا بمعنى بينكم تشبيهًا لجماعات الجيش بالأجزاء المتفرقة)[(٢)].

إيجاد الخلل مطلبهم ومطمعهم في صف أصحاب رسول الله ﷺ، ذلك الصف المرصوص، بل إنَّ الله جلَّ جلاله يقرر أنهم لو خرجوا معهم لنجحوا في إحداث هذا الخلل والدخول منه، فيقول: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ

(١) معالم التنزيل ٤/ ٥٦.
(٢) التحرير والتنوير ١٠/ ٢١٧.

خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾، لكنَّ الله عزَّ وجلَّ عصم ذلك الصف وطهرهم من حيث لم يحتسبوا، بل من حيث كانوا يكرهون، إذ كانوا يكرهون نقصان عددهم، وما كان ذاك إلا فضلاً من الله عليهم، ثم لطهارة قلوبهم وبواطنهم التي أثمرت جنسها بطهارة صفهم، وخروج المفسدين من بينهم، فمن يطهِّر صفكم إذا لم يطهرها الله؟! واللهُ لا يطهرها حتى تتطهروا، وتطهروا بواطنكم، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح:١٨]. إذن فالرضى وإنزال السكينة كان لأجل أنه علم ما في قلوبهم سبحانه.

فهذا يجعلنا أشد رقابة على قلوبنا من رقابتنا على صفوفنا، ويجعلنا أشد رقابة على صفوفنا في هذا الوقت بعد هذا العلم من أيِّ وقت مضى، بينما الشيطان يريد أن نهمل هذه الحراسة، حراسة النفوس وحراسة الصفوف؛ ليتفرغ هو وصحبه لإحداث الخلل وتوسيعه، قبل تمزيق الصف وتقطيعه!

أيها المجاهدون: لا يمكنكم أن تصلوا إلى وصف «الصف المرصوص» مالم يتهم الإنسان نفسه قبل غيره، ويحاسب جماعته قبل محاسبته الجماعات الجهادية الآخرى.

لقد أصبح العدو ومنافقوه يشامُّون النفوس، فيعرفون ما بين هذا الفصيل الجهادي وذاك، وما مآخذ هذا على ذاك، وماذا يثير هؤلاء على هؤلاء، وما الفتيل الذي يوقد منه بين هؤلاء وهؤلاء، وكيف ينسفون عقود الوحدة أو التعاون ما بين هؤلاء وهؤلاء...

يعرفونه من خلال الكلمة والإشارة، ومن خلال السكوت أحيانًا، والله عليم خبير!

وأنى لنا أن ننكر هذا الخلاف بين فصائلنا، والجميع أصبح يتحدث فيه من خارج صفوفنا الجهادية.

لا يكفي أن نقول: نحن ملتزمون بعدم نقد بعضنا البعض بالباطل أو لغير ضرورة شرعية، وترك الغيبة والنميمة فيما بيننا، فهل هذا هو الذي يحبه الله فحسب لمثل مَن في حالتنا؟! أليس هذا المستوى هو ما يجب أن يلتزمه عامةُ المسلمين تجاه بعضهم البعض؟!

أما الذين يعدون «قادة وقدوة»، ويريدون أن يحملوا الراية، ويتقدموا المسلمين نحو الفتح المبين، فعليهم أن يكونوا مستعدين للفتنة قبل ورودها، متوقعين لها كما يتوقعون هجمة العدو على صفوفهم، رادين لها بأقوى مما جاءت به.

فإذا كان من مصلحة الجهاد أن نتوزع إلى مجاميع جهادية، أو أننا أُلجئنا لذلك، فليس من مصلحة الجهاد أن يكون تعدد تلك المجاميع ثغرة يتخلل منها المنافقون!

وإنَّ الخطورة علينا كبيرة من المنافقين؛ لأنَّ قابلية الافتراق عند الكثير منا- وللأسف- كبيرة بسبب الضعف التربوي والإيماني.

فإن لم يكن الصف المرصوص على أرض الواقع فليكن صفًّا مرصوصًا في المنهج، والفتوى، والقرار، والتخطيط، والوضوح، والصدق... فما منا من أحدٍ إلا وهو ينادي بترك الخلاف، ويلقي دروسًا في ذلك، ويحفظ من الأدلة ما يحفظ، لكن ما أكثر

من يخالف ذلك!

فما إن تومض له شرارة خلاف هائمة في الفضاء إلا ويتلقاها بثيابه؛ ليشعل منها حريقًا في صدره، وحريقًا في صدر فصيله المجاهد وفصائل الآخرين الجهادية، ولو ترك الشرارة وشأنها لذهبت في الفضاء كما يذهب الشرر الذي ترمي به تنانير الدنيا، فالفضاء يستوعب ذلك، بل يستوعب الشهب والنيازك، أما الصدور فإنَّ الحرارة التي فيها تكفيها!

ووالله ما رأيت مثل بعض بني قومي في تنحية التكليف الشرعي لهم عن أنفسهم، وما رأيت أسرع منهم في إلصاقه بالآخرين.

إخواني المجاهدين: اقرؤا كلام الله تعالى هذا مرة بعد مرة، واجعلوا واقعكم تحت نوره؛ لتروا الحقيقة واضحة ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾.

الوصية الرابعة: لا تهاون مع سمَّاع

قال الطبري: (وأما قوله: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾، فإنَّ أهل التأويل اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم: معنى ذلك: وفيكم سمَّاعون لحديثكم لهم يؤدونه إليهم، عيون لهم عليكم... وقال آخرون: بل معنى ذلك: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيع لهم... وأولى التأويلين عندي في ذلك بالصواب، تأويل من قال: معناه وفيكم سمَّاعون

لحديثكم لهم، يبلغونه عنكم، عيونٌ لهم؛ لأنَّ الأغلب من كلام العرب في قولهم سمَّاع، وصف من وصف به أنَّه سمَّاع للكلام، كما قال الله جلَّ ثناؤه في غير موضعٍ من كتابه: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، واصفًا بذلك قومًا بسماع الكذب من الحديث، وأما إذا وصفوا الرجل بسماع كلام الرجل وأمره ونهيه وقبوله منه وانتهائه إليه، فإنما تصفه بأنه له سامع ومطيع، ولا تكاد تقول: هو له سمَّاع مطيع)[1].

وخالف شيخُ الإسلام ابنُ تيمية ترجيحَ الطبري، فقال: (وليس هذا معنى الآيتين، وإنما المعنى فيكم من يسمع لهم، أي: يستجيب لهم ويتبعهم)[2].

وقال الثعالبي في تفسيره: (﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، قال مجاهد وغيره: معناه جواسيس يسمعون الأخبار وينقلونها إليهم. وقال الجمهور: معناه وفيكم مطيعون سامعون لهم)[3].

وقال ابن كثير: (﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم، وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شرٍّ بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾، أي: عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم. وهذا لا يبقى له

---

(١) جامع البيان١٤/ ٢٨٢.
(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٩٤.
(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٥/ ١٨٨.

اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عامٌّ في جميع الأحوال. والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق)[١].

وقال الخازن: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾، فإن قلت: كيف يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين؟ قلت: يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم، فإذا قالوا قولاً ربما أثَّر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الأحوال)[٢].

وقال ابن عاشور: ﴿ وَفِيكُمْ ﴾، أي: في جماعة المسلمين، أو من بين المسلمين، ﴿ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾، فيجوز أن يكون هؤلاء السمَّاعون مسلمين يُصدِّقون ما يسمعونه من المنافقين، ويجوز أن يكون السمَّاعون منافقين مبثوثين بين المسلمين، وهذه الجملة اعتراضٌ للتنبيه على أنَّ بغيهم الفتنة أشد خطرًا على المسلمين؛ لأنَّ في المسلمين فريقًا تنطلي عليهم حيلهم، وهؤلاء هم سذج المسلمين الذين يعجبون من أخبارهم ويتأثرون، ولا يبلغون إلى تمييز التمويهات والمكائد عن الصدق والحق. وجيء بحرف (في) من قوله: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾، الدال على الظرفية دون حرف (من)، فلم يقل: ومنكم سمَّاعون لهم، أو ومنهم سمَّاعون؛ لئلا يتوهم تخصيص السمَّاعين بجماعة من أحد الفريقين دون الآخر؛ لأنَّ المقصود أنَّ السمَّاعين لهم فريقان، فريق من المؤمنين

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٠.
(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل ٣/ ١٠٤.

وفريق من المنافقين أنفسهم، مبثوثون بين المؤمنين لإلقاء الأراجيف والفتنة وهم الأكثر...)[(١)].

إذا دققت النظر في كلمات الآية تجد أنَّ ﴿ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ ﴾ مطلقة من غير قيد قصد الإضرار والإفساد، بينما الذي ورد في المنافقين الأصليين قوله تعالى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ ﴾، فهؤلاء الـ﴿ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ ﴾، منهم من ينقل الخبر بقصد الإضرار، ومنهم من ينقله كعادة له في النقل، وعدم قدرةٍ على كتمان الأسرار، ومنهم من ينقله لولع بالسبق في النقل، ومنهم من ينقله ثقة بهؤلاء وإحسان ظنٍّ بهم، وكل هؤلاء متوحدون في إيقاع الضرر الفعلي بالأمة والجهاد.

فتوجيه الآية ومقتضاها هنا هو الوقاية الفعلية الدائمة من أضرار هؤلاء وهؤلاء، ومن المقطوع به أن يوجد في الصف أمثال هؤلاء السمَّاعين لهم حتى وإن تخلص الصف من المنافقين الأصليين.

فمع أنَّ الله جلَّ جلاله بين أنه كره خروج المنافقين وأنه ثبطهم، إلا أنه قال للمؤمنين: ﴿ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ ﴾، فوجود السمَّاعين للمنافقين حقيقة واقعية، لكنَّ إخبار الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين بهذه الحقيقة إنما هو خطاب لكل مسلم أن لا يكون من هذا الصنف الخادم للمنافقين، وألا يكون مستغفلاً، فهؤلاء عيون للعيون، وجواسيس للجواسيس (وهذا على اختيار الطبري).

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٢١٨.

وعلى المسلم في مقابل ذلك أن يشيع النصيحة لكل من يخشى أن يكون من هذا الصنف حماية للإسلام، ثم إنَّ في الآية دعوة للمنصوح أن يقبل بهذا النصح ويشكر عليه؛ لأنَّ الله جلَّ جلاله قد نهى عنه، فمن انتهى عنه بعد ذلك فإنما اتبع أمر الله في نهيه، ومن لم يستجب وبقي سمَّاعًا للمنافقين نقَّالاً لأخبار المؤمنين فعلى المؤمنين أن يبعدوه بالحسنى، حتى يتوب من سوء عادته، وحاله في هذا حال العائن الذي لا يتقصد الإيذاء لكنه يؤذي بغير قصد.

فلتتذكر الفصائل الجهادية أيامًا كانت تظن أن ليس فيها منافقون حتى إذا اكتشفوهم وتخلصوا منهم، حسبوا أنَّ الصف قد تطهر من المنافقين، ومع هذا تكرر الأمر وتكرر... وإلى هذه اللحظة- والله أعلم- يوجد آخرون وآخرون، وبعد هؤلاء يوجد الـ﴿ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾، ولذا لزم التطهير الذاتي والمستمر الذي يجعل الصف الجهادي ينفي خبثه، وكلما قوي إيمان المجموعة الجهادية، كان نفيها لخبثها أسرع وأعظم.

أيها المجاهدون: يغفل كثيرٌ منكم حين يتصور النفاق محصورًا بشكل أشخاص، أو يتصور أنَّ وسيلتهم تتمثل في إرسال جواسيس، أو وضع لاقطات أو نحو ذلك فحسب!

إنَّ صورتهم الأوسع فاعلية في المجتمع، وفي المجاهدين كذلك، هي هذه المحطات الفضائية التي لعبت دورًا كبيرًا في إضلال كثير من الناس، فليُتنبه لهذا الخطر.

الوصية الخامسة: ليست بأول مرة

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة].

قال الطبري: (لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنة لأصحابك، يا محمد، التمسوا صدَّهم عن دينهم، وحرصوا على ردهم إلى الكفر بالتخذيل عنه، كفعل عبد الله بن أبيٍّ بك وبأصحابك يوم أحد، حين انصرف عنك بمن تبعه من قومه، وذلك كان ابتغاؤهم ما ابتغوا الفتنة من قبل. ويعني بقوله ﴿مِن قَبْلُ﴾، من قبل هذا، ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾، يقول: وأجالوا فيك وفي إبطال الدين الذي بعثك به الله الرأي بالتخذيل عنك، وإنكار ما تأتيهم به ورده عليك)[1].

أيها المجاهدون: إنَّ من أمسكتم به مرة وهو يوقع الفتنة في صفوفكم فاعلموا أنها ليست المرة الأولى في منهجه، وإن كانت الأُولى في علمكم، فمن العادة أن يكون لمثل هذا سوابق في إلقاء الفتنة، إنهم ﴿ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾، نعم ﴿مِن قَبْلُ﴾، وليس سنة الله المعروفة أن يفضح المذنب من أول مرة، فالله يمهل ولا يهمل، والله يملي للظالم، والله يستدرجه، ومن باب الحذر أن يُعامل من يمسك به المرة الأولى- كما يزعم- كأنه قديم من حيث الحكم العقدي، وإن لم نطبق عليه الحكم

---

(١) جامع البيان ١٤/ ٢٨٣.

العملي في بعض الأحيان لصوارف شرعية تقدر بقدرها... حتى وإن تاب، وأثبت صدق توبته، فإنه لا يولَّى، كما هو عمل الخلفاء مع أبطالٍ عظماء من أمثال طليحة بن خويلد الأسدي وغيره، إذ كتب عمر رضي الله عنه: (شاوروا طليحة في حربكم، ولا تولوه شيئًا)[١].

الوصية السادسة: لا مسامحة بتقليب الأمور

قال القرطبي: (﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾، أي: لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم وينـزل الوحي بما أسرُّوه وبما سيفعلونه)[٢].

وقال البغوي: (أي: طلبوا صدَّ أصحابك عن الدين، وردهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله بن أبيٍّ يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه)[٣].

وقال ابن كثير: (أي: لقد أعملوا فكرهم، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة)[٤].

وقال الشوكاني: (﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾، أي: صرفوها من أمر إلى أمر ودبَّروا

---

(١) ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٢٥/ ١٥٤، وابن الجوزي في «المنتظم» ٤/ ٢٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٥٧.
(٣) معالم التنـزيل ٤/ ٥٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٠.

لك الحيل والمكائد)[١].

فتقليبهم الأمور بقصد إيجاد فهم مقلوب للأمور غير الفهم المستقيم، أو السعي في إساءة تفسير، أو إساءة ظن، أو تلفيق تهمة، أو نحو ذلك، كما فعلوا في مواطن كثيرة، وليس آخرها تقليبهم لأمر تأخر أُمِّنا عائشة رضي الله عنها عن الجيش حتى استخرجوا منها تهمة الإفك، من خلال الربط ما بين تأخر عائشة الطاهرة المطهرة، وتأخر صحابي شريف رضي الله عنهم أجمعين.

فالله جلَّ جلاله حين ذكر منهجهم في إحداث الفتنة من خلال تقليب الأمور، فإنَّ مقتضى هذا أن لا تسمحوا لهم بتقليب الأمور في تفسير تصرفات إخوانكم المجاهدين الآخرين، وأن تحملوا تصرفات إخوانكم على أحسن المحامل، وتلتمسوا لهم الأعذار إذا ضاقت الأمور ما دام الأمر محتملاً.

هنا تعجب من قوله تعالى: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾، فهم لا ييأسون في ردهم وصدهم مرة ومرات، ولا يرتدعون إذا ردَّ عليهم مرة ومرات... فهم مستمرون في تقليب الأمور رغم أنَّ الأمور لا تحتمل.

والأكثر دلالةً على كبير إصرارهم وبجاحتهم هو أنهم يقلبون الأمور حتى لرسول الله ﷺ، وهو أعظم الناس فطنة، وهو الذي يُصبِّحه الوحي ويمسيه لقوله سبحانه: ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ...﴾؛ لأنهم يعلمون ثمرة اقتناع القائد الجهادي، فإنه إن تحوَّل

(١) فتح القدير ٢/ ٣٦٧.

واقتنع بتقليبهم، فسوف يكون على المستوى العام والبعيد، ومن ثم كان تركيزهم عليه!

ونصيحتي لمجالس شورى الجماعات أن لا تتركوا قادة الجهاد لوحدهم مع المنافقين، فإنَّ الخطر أنهم ربما تمكنوا من قلوبهم، ودخلوا باب القبول عندهم، وربما أقنعوهم بعد محاولات بالأمر الذي يريدون، فيصبح هذا القائد أعظم دفاعًا عنهم من غيرهم، وهذه عقبة كأداء تصل لدرجة الإحراج والمفاصلة بين الجماعات الجهادية، ولا يستبعدنَّ قائد جهادي على نفسه ذلك بعد ذكر الله عن رسوله ﷺ ذلك، وقد ذكر عنه أكثر من ذلك فقال له: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥].

أيها المجاهدون: إن لم يكن عندكم استعداد لأن تتنازلوا عن تقريب فلان المتهم وفلان وفلان بحجة أنهم من عناصركم الجهادية الأولى... فلا أقل من أن تحترموا وجهة نظر إخوانكم الآخرين من الجماعات الأخرى، فلا تحضروا هؤلاء تلك الجلسات، وإخوانكم لهم كارهون، ولا تعرضوا عليهم أسرار المشاورات أو الجلسات...

أيها المجاهدون: يجب أن تقبلوا بهذا، فإنَّ كل احتياط إنما هو لمصلحة الإسلام، وعلى هذا فلتتعاملوا مع كل الأمور على أنها ليست أمورًا شخصية، إنما هو الإسلام وكفى!

وكم نتمنى- أيها الإخوة- أن تنشئوا في نفوس الجميع أمرين: (المناصحة، والمصارحة). فبالمناصحة تتحقق طهارة المجموعة المسلمة، وتنـزل عليهم الرحمة التي

ذكر الله جلَّ جلاله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:٧١]. وبالمصارحة ينكشف هؤلاء المندسون بينكم الذين لا يمكنهم العيش في جو المصارحة. وهل كُشف نفاق عبد الله بن أُبيٍّ للعيان إلا بالمصارحة، وذلك حين جاء «زيدُ بن أرقم» مصارحًا النبي ﷺ، كما سيأتي معنا تفصيله في عهد قادم عند قول الله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون:٨].

إنَّ سر كون النصيحة تكشف المنافقين هو أنهم لا يحتملونها في العادة كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (البقرةك٢٠٦).

وسر كون المصارحة بين الإخوة تفضح المنافقين بين الصفوف، هو أنَّ النفاق ينبت في الظلام، ومركبه في التفريق هو إساءة ظن الأخ بأخيه، وتحميل الكلمات ما لا تحتمل، واتهام النوايا ونحو ذلك، فإذا كانت ثمة مصارحة انقشعت تلك الظلمة، وتبين أنها أوهام في أغلب الأحيان.

وليكن العهد على هذا عهدًا مغلظًا، فإنَّ الأخ الآخر، وإن كان مخطئًا، فإنه أضعف ما يكون المخطئ حين يصارح، وأقرب ما يكون من الحق حين يُناصح.

الوصية السابعة: لا أُذُن لتقليب منافق

الناظر في وضع الصفوف الإسلامية في الشام وإرادة الأعداء إحداث خلل يلقون فيه الفتنة... يجد خبث خطط هؤلاء الأعداء وعظيم مكرهم، ودقة معرفتهم بالمجاميع الجهادية مجموعة مجموعة، ودقة معرفتهم غالبًا بالمجموعة الواحدة، وأفراد تلك المجموعة المؤثرين فردًا فردًا...

فتراهم يتصلون بهذا الشخص دون إشعاره بأنهم هم المتصلون ليحفظ لنفسه وشرفه- أول مرة- من أن يمس بخيانة أو يتهم بها!

ويكون العرض عليه عرضًا ظاهره خدمة الجهاد في بلاد الشام، والمحافظة على المكتسبات الجهادية، وقطف الثمرة قبل أن يطير بها الآخرون! وما إلى ذلك من أوهام!

لكنَّ غايتهم البعيدة هي ترك الجهاد، وهذا ما لا يُعرض ابتداءً، فعند الابتداء يكون منطقهم هو إنما هي مفاوضات لمصلحتكم!

فتقع تلك العروض في تلك النفوس موقع القبول، ويطيرون بها فرحًا، ويدافعون عنها دفاعًا، ويتخذونها مشروعهم في داخل تلك المجموعة، ويجمعون حولهم أفرادًا من أمثالهم من نفس المجموعة، ويكون لديهم من الإصرار ما يفاصلون مجموعتهم وقياداتهم لو اقتضى الأمر في النهاية ذلك!

وبإهمال هؤلاء يكونون جيبًا داخل المجموعة قد حدث، وفكرًا نشازًا داخل

فكر المجموعة الجهادية قد نشأ! هو في حقيقته يسبح ضدَّ تيارها وضدَّ توجهها دون ظهور في البداية، وبمجرد وصول الفكرة لقيادة المجموعة يبدأ الحوار ما بين الجماعة والمجموعة كجماعة فكرية ويتكرر الحوار معهم مرة ومرة ومرة...

وفي النهاية- وكما هو المعتاد- تغض قيادةُ المجموعة الكبيرة الطرف عن هذه المجموعة الصغيرة، فتنمو وتنمو بمنحهم هذه الفرصة الذهبية، وبقدر ما تأكل من أفراد الجماعة الأصليين بقدر ما تنمو...

ثم يتحول غض الطرف هذا إلى تنازل جزئي... فإذا ما شاع الخبر أنَّ الفصيل الجهادي الفلاني بدأ بالتنازل ونحو ذلك شعر الفصيل كلُّه أنَّ سمعة المجموعة كلها في خطر، فعليها أن تجعل اختلافها هذا اختلافًا داخليًا، ويجب أن يبقى داخليًا! لنحافظ على مظهر وحدة الصف أمام المجاميع الأخرى، وعندها تتخذ موقفًا موحدًا، ألا وهو نفس موقف تلك المجموعة الصغيرة أو موقف الجيب، ليتحول هذا الفصيل إلى جيب داخلي بين الفصائل كلها... ثم يتطور الأمر أكثر ليتحول هذا الفكر النشاز إلى فكر شرعي، يكون همهم هو البحث له عن أدلة شرعية من هنا وهنا، ورد كل دليل شرعي لا يوافق هذا الفكر، ويتحول هؤلاء إلى دعاة لهذا الانحراف عن الطريق...!

ولو عاد هؤلاء إلى الأصل الذي كانوا عليه قبل التغيير لوجدوا أنهم وقعوا في أمر خطير، خطير!

إذ حاكموا الشرع إلى الهوى، فقبلوا وردوا حكم الله وحكم رسوله ﷺ بالهوى!

والوصية بحسم مادة الفساد في المجموعة الجهادية عند أول ظهور هذا الفكر النشاز بالدليل أولاً مع الحذر من محاورة الجيب كمجموعة، بل يحاورون كأفراد، ويحاور رأسهم أولاً، ثم بالعزل والفصل ثانيًا، ومصارحة الإخوان الآخرين من المجاميع الأخرى بها، فإنَّ التساهل في ذلك يزيد خطره كما يزيد حجم الحية الصغيرة إذا تركت في بستان الطيور، حتى يأتيها اليوم الذي تقتل صاحب الطيور، وتتفرغ لغذائها وغذاء أبنائها بعد ذلك...

فليس العيب في أخ يستعين بأخيه -ولو كان من جماعة ثانية- على إصلاح العيب، إنما العيب بحماية العيب والدفاع عنه...!

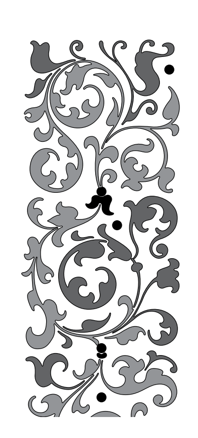
العيب بأن تعتبر الأخوة الناصحين شانئين وشامتين، وتعتبر المبدلين تبديلاً خاصتك الأوفياء الذين يستحقون أن تستر عيوبهم عن إخوانك، وتدرعهم بعرضك وسمعتك، وهم في حقيقة الأمر لا يهمهم إلا إنقاذ مشروعهم وفكرتهم الشاذة، ولو على حسابك وحساب تاريخك وسمعتك، ولو أدى ذلك إلى نسف جهادك...!

وإن طالت الأيام بمن لم يقتنع بهذا الذي أقول فسوف يرى مكافأة هؤلاء له...!

حيث سيكون هو أول الضحايا، والجزاء من جنس العمل، إذ التاريخ يشهد بأحداث لا حصر لها من بطانات السوء التي تغذت دهرًا على سمعة القائد والأمير والخليفة، ورضعت قوتها من قوته، وسمعتها من سمعته، حتى إذا سمنت وصلب عودها، وارتفع رأسها وسهمها واسمها... كان ضحيتها هو قائدها القديم!

والرجوع الحاسم اليوم بمشورة الآخرين الثقات خير من التمادي، فإنَّ في التمادي إصرارًا وإضرارًا واستكبارًا.





العهد السادس
الجماعة الواحدة أو الاتحاد

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[الأنفال:٤٥-٤٦].

يقول الإمام الطبري: (هذا تعريف من الله- جلَّ ثناؤه- أهل الإيمان بالسيرة في حرب أعدائه من أهل الكفر به، والأفعال التي يرجى لهم باستعمالها عند لقائهم النصرة عليهم والظفر بهم).

ويقول رحمه الله: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ ﴾، يقول: ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم فتفشلوا، ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾... وإنما يراد به في هذا الموضع: وتذهب قوتكم وبأسكم فتضعفوا، وَيَدْخُلكُم الوهن والخلل، ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْ ﴾، يقول: اصبروا مع نبي الله ﷺ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، يقول:

اصبروا فإني معكم)[١].

وقال القرطبي: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾، أي: قوتكم ونصركم... وقال قتادة وابن زيد: إنه لم يكن نصر قط إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار، ومنه قوله عليه السلام: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور[٢])[٣].

وقال الثعالبي في تفسيره: (والجمهور على أنَّ الريح هنا مستعارة)[٤].

وقال أبو حيان: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾، والأظهر أن يكون فتفشلوا جوابًا للنهي، فهو منصوب، ولذلك عطف عليه منصوب؛ لأنه يتسبب عن التنازع الفشل، وهو الخور والجبن عن لقاء العدو، وذهاب الدولة باستيلاء العدو[٥].

وما أحسن ما ذكره البقاعي: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، بأن يريد كلُّ واحد نزعَ ما لصاحبه من رأي وغيره وإثبات ما له، وأشار إلى عظيم ضرر التنازع ببيان ثمرته المرَّة فقال: ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾، أي: تضعفوا. قال في القاموس: فشِل كفرِح، فهو فَشِلٌ، كسل وضعف وتراخى وجبن- انتهى. والمادة راجعة إلى الفيشلة وهي الحشفة، ومن لازمها الرخاوة وينشأ عن الرخاوة الجبن مع الصلف والخفة والطيش.

---

(١) جامع البيان ١٣/ ٥٧٦ .

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣٥) و(٣٢٠٥) و(٣٣٤٣) و(٤١٠٥)، ومسلم (٩٠٠) (١٧)، وأحمد ١/ ٢٢٨ و٣٢٤ و٣٤١ و٣٥٥، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٤-٢٥.

(٤) الجواهر الحسان ٥/ ١٤٤.

(٥) البحر المحيط ٤/ ٤٩٩.

ولما كان الفشل ربما كان معه الظفر لفشلٍ في العدو أكثر منه أو غير ذلك، عطف ما يلزمه غالبًا بالواو دون الفاء فقال: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾، أي: غلبتكم وقوتكم، وأصله أنَّ الريح إذا كانت في الحرب من جهةِ صفٍّ كانت في وجوه أعدائهم، فمنعتهم بما يريدون فخذلوا، فصارت كأنها قوة مَن أتت مِن عنده، فصارت يكنى بها عنها، ثم ختم هذه الأسباب بالجامع لشملها الناظم لمقاصد أهلها فقال: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْ﴾، أي: على ما يكون من تلك المشاق، فإنكم إن تكونوا تألمون فإنَّ أعداءكم كذلك، وأنتم ترجون من الله ما لا يرجون، ثم علَّله بما يكون النصر في الحقيقة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: المحيط بصفات الكمال ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، أي: لأنهم لا يصبرون إلاَّ اعتمادًا عليه، ومن كان معه عزَّ، وهذه الجملة جمع فيها – كما قال الإمام شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية في آخر كتاب الفروسية المحمدية– تدبيرَ الحروب أحسنَ جمع على أتم وجه، فأمر فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت قط في فئة إلا انتصرت، وإن قلَّت في جنب عدوها، وخامسها ملاك ذلك وقوامه وأساسه وهو الصبر، فعلى هذه الدعائم الخمس تبنى قبة النصر، ومتى زالت، أو بعضها، زال من النصر بحسبه، وإذا اجتمعت قوَّى بعضها بعضًا، وصار لها أثر عظيم، لما اجتمعت في الصحابة رضى الله عنهم لم تقم لهم أمة من الأمم، ففتحوا البلاد شرقًا وغربًا، ودانت لهم العباد سلمًا وحربًا، ولما تفرَّقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر قليلاً قليلاً إلى ما ترى، فلا قوة إلا بالله، والجامع لذلك كلُّه طاعة الله ورسوله، فإنها موجبة لتأييد المطيع بقوة مَن هو في طاعته، وذلك سرُّ قول

أبى الدرداء رضي الله عنه، الذي رواه البخاري في باب عمل صالح قبل القتال: إنما تقاتلون الناس بأعمالكم[١]...)[٢].

ورحم الله الطاهر بن عاشور، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: (وأمَّا النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك بالتفاهم والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضًا، حتى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣)، ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والنهي عن التنازع أعمُّ من الأمر بالطاعة لولاة الأمور؛ لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم، فالتنازع مع ولي الأمر أوْلَى بالنهي.

ولمّا كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة، بسَطَ القرآنُ القولَ فيه ببيان سيِّءِ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله: (فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ). فحذَّرهم أمرين معلومًا سوءُ مَغبتها، وهما: الفشل، وذهاب الريح.

والفشل: انحطاط القوة، وقد تقدَّم آنفًا عند قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال: ٤٣]، وهو هنا مرادٌ به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو،

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك في «الجهاد» (٥)، والبخاري في صحيحه تعليقًا بصيغة الجزم في «باب عمل صالح قبل القتال» بعد الحديث رقم (٢٨٠٧). وانظر «تغليق التعليق» ٣/ ٤٣١.
(٢) نظم الدرر ٣/ ٢٢٥.

ويصحُّ أن يكون تمثيلاً لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوته وفشلت أعضاؤه في انعدام إقدامه على العمل. وإنَّما كان التنازع مفضيًا إلى الفشل؛ لأنه يثير التغاضب، ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربَّص بعضهم ببعض الدوائرَ، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتِّقاء بعضهم بعضًا، وتوقع عدم إلفاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمَّة عن التوجُّه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكَّن منهم العدوُّ، كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم ﴾[آل عمران: ١٥٢].

والريح حقيقتها تحرُّك الهواء وتموُّجه، واستعيرت هنا للغلبة، وأحسب أنَّ وجه الشبه في هذه الاستعارة هو أنَّ الريح لا يمانع جريها ولا عملها شيء، فشبه بها الغلب والحكم)[١].

ويقول صاحب الظلال عند هذه الآية: (فهذه هي عوامل النصر الحقيقية، الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذكر، والطاعة لله والرسول، وتجنب النـزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة، والحذر من البطر والرئاء والبغي)[٢].

يا أبطال الشام: لكم في هذه الآيات فهم مخصوص... وأريد أن أختصر لكم المسألة، فلتصْدقوا مع الله الذي لاتخفى عليه خافية، الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾،

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ٣٠-٣١.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٨.

ولتتحملوا بعد هذه الإجابة تكاليفها في الدنيا والآخرة، ولتكن إجاباتكم مختصرة كما الأسئلة مختصرة:

أيها المجاهدون: من يغضب لاختلافاتكم؟ أليس هو الله جلَّ جلاله ورسوله ﷺ؟

من يفرح بخلافاتكم؟ أليس هو الشيطان وأولياؤه؟

فلِمَ تُغضبون اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ، وتفرحون الشيطان وأولياءه؟!

وبعد هذا، مَن الضحية لاختلافاتكم؟ أليس هو الإسلام وبلاد الإسلام. أيمكن للعدو أن ينتصر وأنتم موحدون على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؟!

فما جزاء من يقدِّم الإسلام وبلاد الإسلام قربانًا لليهود وللصليب وللباطنيين في هذا الوقت العصيب باختلافكم وأنتم تعلمون؟!

هل الحقيقة أنَّ اختلافاتكم لأجل الإسلام وحده، وأنه لا نصيب لأشخاصكم ولا لأسمائكم ولا لشعاراتكم؟!

فهل الإسلام مانع لكم من التوحد الفكري، والعلمي، والشرعي، وإن لم تتوحدوا بالاندماج؟!

هل ترون الإسلام كان سيقوم لو كانت قابلية الصحابة- رضي الله عنهم- كقابليتنا (الإسفنجية) لامتصاص الفتن من رطوبة الهواء، أو أخبار الفضاء؟!

لقد بلغ الأمر بركب النفاق الأول أن اتهموا النبي ﷺ في عَدْله، وفي عِرضه، وفي قيادته، وفي صحبه، واتهموه بتهم كثيرة، وكان حقهم القتل، ومع هذا ترك النبي ﷺ

قتلهم محافظة على سمعة الصف ووحدته وقيادته.

وفي غزوة بني المصطلق، حدثت حادثة كانت كافية لتعصف بالجيش والأمة، فعن زيد بن أرقم، قال: كنت في غزاة، فسمعتُ عبد الله بن أبيٍّ يقول: لا تُنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فذكرت ذلك لعمِّي، أو لعمر، فذكره للنبيِّ ﷺ، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذَّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قطُّ، فجلست في البيت، فقال لي عمِّي: ما أردت إلى أن كذَّبك رسول الله ﷺ ومقتك، فأنزل الله تعالى:﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾، فبعث إليَّ النبيُّ ﷺ فقرأ، فقال: (إنَّ الله قد صدَّقك يا زيد)[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمَّعها اللهُ رسولَه ﷺ، قال: (ما هذا؟) فقالوا: كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: دعوها فإنها منتنة، قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أبيٍّ: أوَ قد فعلوا؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٠) و(٤٩٠١) و(٤٩٠٢) و(٤٩٠٣) و(٤٩٠٤)، ومسلم (٢٧٧٢)، وأحمد ٤/ ٣٦٨ و٣٧٠ و٣٧٣، والترمذي (٣٣١٢) و(٣٣١٣) و(٣٣١٤).

ليخرجنَّ الأعز منها الأذل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال النبي ﷺ: (دعه لا يتحدث الناس أنَّ محمدًا يقتل أصحابه)(١).

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ الذي كان من أمر أبيه المنافق، فقال له: والله لا تدخل المدينة أبدًا حتى تقول رسولُ الله ﷺ الأعزُّ وأنا الأذلُّ، قال وجاء الى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي، فوالذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له، وإن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك، فإني أكره أن أرى قاتل أبي(٢).

وما أعجب حرص عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ وإشفاقه أن يتشقق الصف المسلم، فيذهب إلى رسول الله ﷺ ويطلب منه طلبه العجيب العظيم، رضي الله عنه، ورضي عن الصحابة أجمعين.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨) و(٤٩٠٥) و(٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤) (٦٣) و(٦٤)، وأحمد ٣/ ٣٩٢، والترمذي (٣٣١٥).

(٢) أخرجه الحميدي (١٢٤٠)، وفي إسناده موسى بن أبي موسى وهو الذي رواه عن الصحابي عبد الله بن عبد الله، قال عنه الذهبي وابن حجر: ثقة. لكنَّ الشيخ الألباني قال في «السلسلة الضعيفة» ١١/ ٣٤٦: (لكنهم لم يذكروا له رواية عن أحد من الصحابة، ولذلك ذكره الحافظ في الطبقة السادسة، أي: أتباع التابعين). فالأثر فيه انقطاع، والله أعلم. وانظر: البداية والنهاية ٤/ ٣٢١، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩٢.

الوصايا

الوصية الأولى: ألاَّ نُعظِّم الخلاف "إن لم يكن عظيمًا"

لا ينبغي أن نُعظِّم شأن كلِّ اختلاف حتى لكأنه سابقة لم يسبقنا إليها أحد.

لقد اختلف الخضر وموسى عليهما السلام، واختلف سليمان وداود عليهما السلام: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]، واختلفا عليهما السلام في شأن المرأتين اللتين اختصمتا في الابن، واختلف آدم وموسى عليهما السلام. ولم يكن هذا الخلاف موجبًا للفرقة والبغضاء.

واختلفت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في شأن قاتل المئة حين مات بين القريتين(١).

ونقل الحافظ في «الفتح» عن القرطبي قوله: (من تأمل ما دار بين أبي بكر وعلي من المعاتبة ومن الاعتذار، وما تضمن ذلك من الإنصاف عرف أنَّ بعضهم كان يعترف

---

(١) ينظر: «إيثار الحق على الخلق، لابن الوزير» ص ١١٩.

بفضل الآخر، وأنَّ قلوبهم كانت متفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشري قد يغلب أحيانًا لكنَّ الديانة ترد ذلك، والله الموفق)[١].

وعن عبد الرحمن بن شماسة قال: أتيتُ عائشةَ رضي الله عنها أسألها عن شيء، فقالت: ممن أنت؟ فقلت: رجل من أهل مصر. فقالت: كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه؟ فقال: ما نقمنا منه شيئًا، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير، والعبد فيعطيه العبد، ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة. فقالت: أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعتُ من رسول الله ﷺ، يقول في بيتي هذا: (اللهم من وَلي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقق عليه، ومن وَلي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به)[٢].

وقد قال مسروق لعائشة رضي الله عنها: لِم تأذنين له يدخل عليك -أي حسان- ؟ وقد قال الله: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[النور١١]، فقالت: فأيُّ عذابٍ أشدُّ من العمى؟ إنه كان ينافح -أو يهاجي- عن رسول الله ﷺ[٣].

وها هو ابنُ عباس رضي الله عنه يثني على ابن الزبير رغم ما كان بينهما.

قال ابن أبي مليكة: وكان بينهما شيء، فغدوت على ابن عباس فقلت: أتريد أن

---

(١) فتح الباري ٧/ ٤٩٥.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٨) (١٩)، وأحمد ٦/ ٩٣ و٢٥٧ و٢٥٨.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٤٦) و(٤٧٥٦)، ومسلم (٢٤٨٨) (١٥٥).

تقاتل ابنَ الزبير فتحل حرم الله؟! فقال: معاذ الله! إنَّ الله كتب ابن الزبير وبني أمية مُحِلِّين، وإني والله لا أحله أبدًا، قال: قال الناس: بايعْ لابن الزبير، فقلت: وأين بهذا الأمر عنه؟ أما أبوه فحواري النبي ﷺ، يريد الزبير، وأما جده فصاحب الغار، يريد أبا بكر، وأمه فذات النطاق، يريد أسماء، وأما خالته فأم المؤمنين، يريد عائشة، وأما عمته فزوج النبي ﷺ، يريد خديجة، وأما عمة النبي ﷺ فجدته، يريد صفية، ثم عفيف في الإسلام، قارئ للقرآن[١].

وفي حديث الإفك تعتذر عائشةُ رضي الله عنها عن سعد بن عبادة فتقول: (فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا ولكن احتملته الحمية)[٢].

وقد خالف ابنُ مسعود رضي الله عنه عمرَ بن الخطاب في مسائل بلغت المئة - كما ذكر ابن القيم في «إعلام الموقعين»، ومع ذلك فحين أتى ابنَ مسعود اثنان أحدهما قرأ على عمر، والآخر قرأ على غيره، فقال الذي قرأ على عمر: أَقْرَأنيها عمر بن الخطاب، فجهش ابن مسعود بالبكاء حتى بلَّ الحصى بدموعه، وقال: اقرأْ كما أقرأك عمر؛ فإنه كان للإسلام حصنًا حصينًا، يدخل الناس فيه ولا يخرجون منه، فلما أصيب عمر انثلم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٤) و(٤٦٦٥) و(٤٦٦٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦١) و(٤١٤١) و(٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) (٥٦)، وأحمد ٦/ ١٩٦ و١٩٧.

الحصن[١].

وقال عمر رضي الله عنه عن ابن مسعود قولته المشهورة: (كُنَيْف مُلِئَ علمًا)[٢].

فالخلاف واقعٌ واقع، وسيقع ويتكرر... ولكن الخلاف لا ينبغي أن يولِّد خلافًا آخر، ويُوسَّع الخلاف الصغير إلى خلاف كبير، أو يُمد في عمر الخلاف أكثر، فإنَّ الخلاف إن لم يقاوم زاد ونما كما ينمو العشب الضار بين الزرع النافع، ولا يوجد علاج للخلاف مثل الجماعة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرَّقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[٣].

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: (إنَّ الله أمر يحيى بن

---

(١) أخرجه ابن سعد ٣/ ٣٧١، وابن أبي شيبة (٣٢٦٤٠)، والطبراني (٨٨٠٤) و(٨٨٠٥) و(٨٨٠٧)، والحاكم ٣/ ٩٣. وصححه ابن حزم في «المحلى» ٩/ ٢١٨، وقال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١٨١٨٧)، وابن سعد ٢/ ٣٤٤ و٣/ ١٥٦ و٦/ ٩، وابن أبي شيبة (٣٢٩٠٢)، والطبراني (٨٤٧٧) و(٩٧٣٥)، والحاكم ٣/ ٣١٨. وصححه الألباني في «الإرواء» ٧/ ٢٨٠. قال القاري: (الكِنْف: وعاء آلات الراعي. والكُنيف -كزبير- لقِّب به ابن مسعود تشبيهًا له بوعاء الراعي، والتصغير للمدح والتعظيم على ما في «المغرب» و«المصباح»، ولا يبعد أن يكون للتشبيه، فإنَّ ابن مسعود كان قصيرًا جدًا، والمعنى بأنه كان صغيرًا في المبنى إلا أنه كبير في المعنى). التعليق المجد على موطأ محمد للكنوي ٢/ ٥٨٠.

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٥) (١٠) و(١١)، وأحمد ٢/ ٣٢٧ و٣٦٠ و٣٦٧. وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، وهو في الصحيحين.

زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها)... الحديث وفيه: قال النبي ﷺ: (وأنا آمركم بخمسٍ، اللهُ أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة؛ فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يرجع)[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس! إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال: (أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلونَّ رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة؛ فإنَّ الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، مَن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، مَن سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن)[2].

---

(١) أخرجه الطيالسي (١١٦١) و(١١٦٢)، وأحمد ٤/ ١٣٠ و٢٠٢، والترمذي (٢٨٦٣) و(٢٨٦٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. والنسائي في «الكبرى» (١١٣٤٩)، وأبو يعلى (١٥٧١)، وابن خزيمة (٤٨٣) و(٩٣٠) و(١٨٩٥)، وابن حبان (٦٢٣٣)، والطبراني (٣٤٢٧) و(٣٤٢٨) و(٣٤٣٠) و(٣٤٣١)، والحاكم ١/ ١١٧ و١١٨ و٢٣٦ و٤٢١، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٥٤). وصححه الألباني وشعيب وعبد القادر. والروايات مطولة ومختصرة.

(٢) أخرجه الطيالسي (٣١)، وأحمد ١/ ١٨ و٢٦، والترمذي (٢١٦٥) وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والبزار (١٦٦)، وابن ماجه (٢٣٦٣)، والنسائي في «الكبرى» (٩٢١٩) (٩٢٢٠) و(٩٢٢١) و(٩٢٢٥)، وأبو يعلى (١٤١) و(١٤٢) و(١٤٣)، وابن حبان (٤٥٧٦) و(٥٥٨٦) و(٦٧٢٨) و(٧٢٥٤)، والحاكم ١/ ١١٣، والبيهقي ٧/ ٩١. وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب وعبد القادر.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه، أنَّ النبي ﷺ قال: (البركة في ثلاثة: في الجماعة، والثريد، والسحور)[١].

وقال البغوي: (بعث الله الأنبياء كلَّهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة)[٢].

وقال الطحاوي: (ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا)[٣].

وقال النووي عن حديث: (إنَّ الله يرضى لكم ثلاثًا...): (وأما قوله ﷺ: "ولا تفرقوا..." فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام)[٤].

ومع كل هذا فيبقى ما بين أفراد الجماعة الواحدة خلافات، فكيف والعصائب متعددة، ولذا وجب أن يشيع الأدب الإسلامي بين القادة والأفراد عند الاختلاف، حتى لكأنَّ الجماعات جماعة واحدة، وكأنَّ العصائب عصبة واحدة، ما لم يكن الخلاف في مسائل لا يجوز فيها الخلاف، وهذا ما يقدِّره أهل العلم.

وقد وضع لنا الشرعُ حدودًا وقواعد واضحة لحسم مسائل الخلاف التي لا يسوغ فيه الخلاف، فليس من شك أنَّ هذا النوع من الخلاف يُضعف الأمة، ولذلك جاءت هذه

---

(١) أخرجه الطبراني (٦١٢٧)، والبيهقي في «الشعب» (٧١١٤). وقال الألباني: حسن لغيره.
(٢) معالم التنـزيل٧/ ١١٨.
(٣) يُنظر: شرح العقيدة الطحاوية للشيخ عبد الرحمن البراك ص٤٠٨.
(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ١٢/ ١١.

القواعد من الشارع؛ لحفظ الأمة من الأثر السيء للخلاف، والحديث في هذا الموضوع يطول، وقد كتب فيه أهل العلم، وسنذكر إشارات موجزة في هذا الموضوع تنفع أفراد الجماعات الجهادية إن شاء الله، ولمعرفة التفاصيل لابد من دراسة العلم الشرعي أو سؤال أهل العلم المعتبرين:

١- لا يجوز الخلاف في المسائل التي أجمع عليها العلماء.

٢- لا يجوز الخلاف في المسائل التي ثبتت بأدلة واضحة سواء كانت مسائل عقدية أم فقهية، فليس كلُّ خلاف بين أهل العلم معتبرًا، فإذا ثبت النص وكانت دلالته على موضع النزاع واضحة - أي كان الدليل صحيحًا صريحًا- فلا يجوز ترك العمل به بحجة وجود خلاف في المسألة.

٣- أما إذا كان في المسألة أدلة تحتمل تأويلاً وفيها أكثر من قول لعالِم معتبر كالأئمة الأربعة ونحوهم فهذا مما يسع فيه الخلاف، وعلى طالب الحق أن يعمل بأقربها إلى الدليل، إن كان أهلاً للبحث، أو يأخذ بترجيح من يثق بعلمه ودينه إن لم يكن أهلاً لذلك.

٤- يجب أن يُحسم الخلاف في المسائل الإدارية ونحوها برأي الأمير، يقول الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرحه المعروف على العقيدة الطحاوية: (وقد دلَّتْ نصوصُ الكتاب والسنة وإجماعُ سلف الأمة أَنَّ ولي الأَمر، وإمامَ الصلاة، والحاكمَ، وأميرَ الحرب، وعاملَ الصَّدقة، يُطاعُ في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أَن يُطيعَ أَتباعه في

موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وتركُ رأيهم لرأيه، فإنَّ مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أَعظم من أَمر المسائل الجزئيَّة)[1].

٥- أما إذا كانت المسألة من المسائل الشرعية المستجدة والتي ليس فيها نصوص صريحة، فالأصل لمن لا يمتلك آلات البحث والاجتهاد أن يسأل مَن عُرف بعلمه ودينه وجهاده وانضباط فتاواه بالكتاب والسنة بفهم علماء السلف الصالح، ويفر من علماء السوء والشذوذ والسلطان والدنيا فرارَه من المجذوم، ومَن يتق الله يجعل له فرقانًا يميِّز به بين أهل الحق وأهل الباطل، كما قال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الأنفال).

٦- والخلاف بين الجماعات الجهادية لا يجوز في المسائل التي ثبتت بأدلة واضحة جلية، وقد سبقت الإشارة لذلك، ويجب نصح الجماعة التي تخرم الثوابت الشرعية، كمن يقتل أو يكفِّر بغير حق، أو يترك قتال مَن وجب قتاله، فإن أصرَّت الجماعة على هذه المنكرات فيجب هجرها، والالتحاق بأقرب الجماعات الجهادية إلى السنة والعلم الصحيح.

٧- ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا الباب، ونقوله بحكم تجربتنا مع النفوس، أنَّ كثيرًا من الخلافات بين أفراد الجماعة أو بين فرد من الجماعة وقيادته سببه عند التأمل

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣.

أمراض نفسية، لكنه يُغلَّف بغلاف فكري ونحو ذلك، حتى يُشعر الناسَ أو يخدع نفسه بأنه صاحب مبدأ أو أنه حريص على العمل، والغريب أنَّ كثيرًا من هؤلاء ينتهي بهم الأمر إلى ترك العمل والجهاد كليًا، بعد أن كان صوتهم عاليًا بالنقد غير الشرعي، وأعني به نقد قيادة الجماعة أمام الأفراد في مسائل إدارية أو اتهامات باطلة سمعوها من مجاهيل أو مجروحين، ولو كان هؤلاء حريصين بصدق على تطوير العمل الجهادي لنصحوا القيادة ومن بيدهم الأمر، أما النقد أمام أفراد الجماعة فقد يؤدي إلى أن يترك هؤلاء العمل عندما تُشوَّه صورة قيادتهم أمامهم بغير حق، ولا ننسى أنَّ كثيرًا من جنود الجماعات ليسوا على مستوى عالٍ في العلم والتربية، فليحذر مَن يريد الله والدار والآخرة من لسانه وقلبه المريض، وليتأمل جيدًا في نفسه ودوافعه للكلام، وليتذكر أنَّ أمراض القلوب كالحسد والعجب والتكبر أشد عند الله من أمراض الجوارح كالزنا والخمر، كما ذكر ابن القيم في مدارج السالكين، وإنما ذكرت هذه الأمراض في هذا الموطن، لأنَّ كثيرًا من هؤلاء لو تأملوا جيدًا في أنفسهم لعلموا أنَّ مرضًا من أمراض القلوب كان هو الدافع الحقيقي وراء كثيرٍ من أفعالهم التي أشرنا إليها، ولنضرب لذلك مثالاً؛ لتتضح المسألة للقارئ الكريم: أحيانًا ينصح المسؤولُ أخاه نصيحة قد تنفعه في آخرته ودنياه لو عقلها، وقد تكون هذه النصيحة قاسية أو أمام بعض الإخوة، فيحملها الأخ المنصوح في قلبه غلاً وحقدًا، ويبدأ بدافع أمراض القلوب بالتشهير بقيادته، وقد يكون ذلك بأسلوب غير مباشر، ولو كان المنصوح ممن يخاف

الله لأخذ اللب «النصيحة» وترك القشور «كونها قاسية أو أمام الإخوة»، وكان بوسع الأخ المنصوح أن ينصح قيادته مباشرة بأنَّ القسوة لا تنبغي في النصيحة إلا في حالات وأنَّ النصح ينبغي أن يكون سرًّا، وينتفع بنصيحة قيادته، وينتهي الأمر، لكنَّ القلب المريض بالكبر ومحبةِ مدح الناس والعجبِ يأبى إلا أن ينتقم لنفسه، وما درى هذا المسكين أنه يُحطِّم آخرته، فقد جمع بين ذنوب عظيمة: الكبر والانتقام للنفس -فهو دافع العمل-، وغيبة أناسٍ نحسبهم من أولياء الله، فمَن أفضلُ عند الله مِن المجاهد المنضبط بالكتاب والسنة؟ وإضعاف جماعة جهادية بإحداث البلبة في صفوفها -فالمشكلة الداخلية قد تكون أشد على الجماعة من المشكلة الخارجية التي يسببها الأعداء-. أتدري لماذا كل هذه الكبائر؟ إنها نفسك المريضة التي نسيت الله، ولاحظت المخلوقين ممن لا يملكون جنة ولا نارًا، إنها نفسك المريضة التي تحب مدح المخلوقين، فنسيت الله وارتكبت الكبائر من عُجب وكبر، والمصيبة أنها لا تشعر بذلك، وهذه من أعظم آفات أمراض القلوب، فأمراض الجوارح يشعر بها المسلم، أما أمراض القلوب ففي كثير من الأحيان لا يشعر بها، وهي كما أسلفنا أخطر من أمراض الجوارح. والمسلم الذي يحرص على لقاء الله جل وعلا بقلب سليم عليه أن يتفحص قلبه ويختبر نفسه، والمثال الذي ذكرته يصلح للاختبار، وهناك أساليب كثيرة لكي يعرف المسلم قلبه، وما نسبة الأمراض الفتاكة فيه من كبر وعجب وحسد وغير ذلك. وننصح كلَّ مسلم أن تكون له عناية خاصة بدراسة الكتب التي تبيِّن وتضع

العلاج لأمراض القلوب كمختصر منهاج القاصدين للمقدسي ومدارج السالكين لابن القيم وكثيرٍ من كتب العلامة الإمام ابن القيم رحمه الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها، وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ (المائدة:١٤). فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإنَّ الجماعة رحمة، والفرقة عذاب)[١].

الوصية الثانية: تقوى الله في السكوت أحيانًا

يا أصحاب الجهاد: لو كانت خصوماتكم شخصية مجردة، أو خلافاتكم فقهية علمية... أَثَرها لا يتعدى أشخاصكم ومن حولكم لربما كان لكم في ذلك مساغ، أَمَا وإنَّ اختلافكم وخصوماتكم في اجتهاداتكم، مما فيه مهلكة الأمة، ونكبة الإسلام، على كل المستويات كعلو الباطنية، وتغيير المناهج التعليمية، وتغيير حياة المساجد وأمانتها، وفتح أبواب الخروج عن الإسلام، وشيوع الفواحش بين المسلمات... وما

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٤٢١.

إلى ذلك من كوارث لا يعلمها إلا الله، ولا يعرف وقت انتهائها إلا الله، فإنَّ خطورة الاختلاف تتعدى بتعدي تبعاته، وامتداد آثاره...

فمن كان منكم متحمِّلاً كلَّ ذلك وغير ذلك من أوزار كاملة يوم القيامة فلا يتنازل عن خلاف! ولا يؤجل خلافًا! ولا يتنازل عن حق شخصي! وليثأر لنفسه ومجموعته! وليُشهِّر بإخوانه أنى ذهب! ولينتقص منهم في كلِّ مكان، فيُظهر نقصهم وعيبهم ولو بالسكوت وعدم الدفاع عنهم إذا ذُكروا! حتى لا يكاد الأخ يذهب إلى مجلس إلا ويقرأ في وجوه الحاضرين أنَّ عيبك قد سبقك، فإن برَّرت فقد كذبت، وإن صدَّقت عيبك فقد أقررت!

فيالورع هذا الساكت! كأنَّ الله لا يعلم أنه أراد أن يجمع بين سيئتين، سيئة إشاعة عيب الأخ وسيئة إشاعة تزكية النفس بإظهار الورع وأنه أكبر من أن يتكلم في إخوانه!

وهذا الأسلوب أصبح مكشوفًا، بل ممجوجًا وفاضحًا لأصحابه، ومصير صاحبه مهما كان لحنًا في حجته، أو لسنًا في كلامه، هو السقوط من الأعين الطاهرة كما يسقط القذى والأذى منها عند الطهارة، وما يصنعه الله به في الآخرة أعظم ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

الوصية الثالثة: فقه إطفاء الفتنة

الملحظ الذي يلحظه المنافقون لإثارة الفتنة لا يلحظه المؤمنون، وذلك لأنَّ المؤمنين

يعيشون الأخوَّة حقيقة، فلا يفكرون بالخصومة، ويعيشون المحبة في الله، ولا يفكرون بالعداوة بينهم وهكذا، بينما هذا هو همُّ المنافقين، وهو مطلبهم وعنه يبحثون، ولذلك تجدهم يدقون على مثيرات الاختصام في اللحظة الحرجة، وفي موضع المقتل.

تأمل الحادثة التي مرت معنا، فمن ذا الذي كان يتخيل أنَّ ثمة بقايا جاهلية في نفوس بعض أصحاب رسول الله ﷺ...؟!

وأين تلك البقايا في غمرة الأخوَّة لله، والخروج للجهاد معًا في سبيل الله...؟!

لقد استخرجها ابن سلول من حيث لا يحتسب الصحابة أبدًا، أخرجها من اختلاف غلامين. أرأيت كيف استخرج رأس النفاق نقطة الفرقة، ودق عليها دقًا عنيفًا في اللحظة المناسبة؟

يقول الدكتور عادل بن علي الشدي: (وهذا الكلام الذي صدر عن عبد الله بن أبيٍّ لا يمكن أن يكون وليد اللحظة وعفو الخاطر، بل إنه كلام قد أعدَّه بعناية، صوَّر فيه الموقف كاملاً من وجهة نظر المنافقين، ووضع فيه أبرز اقتراحاتهم لإذلال المسلمين، وتحويلهم عن المدينة.

ثم إنَّ المتأمل في هذا الكلام يلحظ نبرة التفريق واضحة جدًا، فإنه لا يعد المهاجرين والأنصار شيئًا واحدًا، يجمعهم دين واحد ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾، بل يعتبر المهاجرين عنصرًا دخيلاً على أهل المدينة من الأنصار كما في قوله: (أو قد فعلوها)، و(نافرونا وكاثرونا في بلادنا)، و(أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم)، و(لو أمسكتم

عنهم)، و(لتحولوا إلى غير داركم) و(قللتم وكثروا)، و(لا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا).

وتظهر نبرة الكفر جلية واضحة بقوله: (ثم لم ترضوا حتى جعلتم أنفسكم غرضًا للمنايا فقتلتم دونه).

فهذا كلام من لا يؤمن بالله ولا برسوله ﷺ وليس بكلام مسلم أبدًا.

وقد كادت الفتنة العظيمة أن تقع بعد تقرير المنافقين عليها، وتلقف العامة لها، لولا أنَّ رسول الله ﷺ أحسن التصرف يومذاك، فأمر من يُكلِّم المضروبَ فتنازل عن حقه، ثم أذن بالرحيل في ساعةٍ لم يكن يترحل فيها، ذلك لما شاع الخبر في الناس، ولم يكن لهم من حديث غيره، فسار النبي ﷺ يومذاك وليلته وصدر اليوم التالي حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك ليشتغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث ابن سلول)[1].

وهنا نلحظ أمورًا:

الأول: أنَّ الرسول ﷺ قد أطفأ الفتنة بنفسه، مستخدمًا كلَّ المؤثرات من اعتلاء المنبر، والكلام، ورفع الصوت، والإشارة، والاستعانة بآخرين... ولو تركهم لربما عصفت بالإسلام والمسلمين.

يقول الدكتور عادل بن علي الشدي: (وقد يظن بعض السذج والبسطاء أنَّ هذا

(١) دراسة قرآنية في النفاق وأثره في حياة الأمة د.عادل الشدي.

الإضرار بالمسلمين ومحاولة تفريق جماعتهم لا يعدو كونه معصية من المعاصي، وأنه لا يؤثر على اعتقادٍ بوجه من الوجوه، وهذا ليس بصحيح، فإضرار المسلمين، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «يزيد على تغيير الاعتقاد، ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد وهو كاذب عند الله ورسوله ﷺ والمؤمنين بهذه الدعوة والظن، ومعلوم أنَّ المفسدة في هذا أعظم من المفسدة من مجرد تغيير الاعتقاد من هذين الوجهين: من جهة كونه إضرارًا زائدًا، ومن جهة كونه قد يظن أو يقال: أنَّ الاعتقاد قد يكون سالمًا معه، فيصدر عمن لا يريد الانتقال من دين إلى دين، ويكون فساده أعظم من فساد الانتقال، إذ الانتقال قد عُلم أنه كفر، فنـزع عنه ما نزع عن الكفر، وهذا قد يظن أنه ليس بكفر، إلا إذا صدر استحلالاً، بل هو معصية، وهو من أعظم أنواع الكفر»[(١)][(٢)].

الثاني: مع أنَّ النبي ﷺ تمكن من حل المشكلة في لحظتها إلا أنه قطع ذيولها من النفوس بأمر عسكري عملي فوري، لا يبقي للحديث فيها مجالاً أبدًا، إنه: الرحيل الليلي الفوري!

فكم من المشاكل تحل بتدخل المصلحين، وبعد هنيهة من الاتفاق تعود ثانية، وإذا ما عادت، عادت ناسفة جارفة لا تُبقي ولا تَذر، وأعادت الأمور أسوأ مما كانت، فلذا

---

(١) الصارم المسلول (ص٣٧٧).

(٢) دراسة قرآنية د. عادل الشدي.

لزم المصلحين تتميم الحلول الإصلاحية النظرية، بحلول عملية حاسمة.

الثالث: كلُّ جملة قالها رسول الله ﷺ في هذا المقام، وكلُّ إشارة، وكلُّ سكتة حوت علمًا غزيرًا في الإصلاح، وليس هذا مجال الإفاضة فيه، ولكن أودُّ أن الفت ذهن القارئ إلى ما ثبت عن جرير، أنَّ النبي ﷺ قال: (لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)[1]. وهذا هو النظر في المآل.

فنقطة الضعف المهلكة أثناء الخصومة هي عدم نظر المتخاصمين أبعد من حدود الخصومة، وانعدام الرؤية إلا عن أشخاصهم، لكن بهذه الكلمة حقَّق النبي ﷺ بُعدَ النظرة خارج الخصومة، وتعدي الرؤية عن مجال النفس، فالقضية هنا تافهة بحيث لا تستحق الاختلاف لأجلها، إنهما غلامان اختلفا، لكنَّ الصعوبة فيما إذا تعدَّى الخلاف إليكم أنتم، فيضرب بعضكم رقاب بعض.

والصعوبة أن يتبنَّى كلُّ فريق قضية الخلاف التافه فيجعلها قضيته وموضوعه الذي يقاتل عليه الناس، حتى لو كانوا إخوته! (يضرب بعضكم رقاب بعض).

والوصية هنا هو النظر إلى تفاهة سبب الخلاف الأساس بينكم- أيها المجاهدون- كلما ثار اختلاف...

---

(١) أخرجه البخاري (١٢١) و(٤٤٠٥) و(٦٨٦٩) و(٧٠٨٠)، ومسلم (٦٥) (١١٨)، وأحمد ٤/ ٣٥٨ و٣٦٣ و٣٦٦، وابن ماجه (٣٩٤٢)، والنسائي ٧/ ١٢٧-١٢٨. وقال البغوي في «شرح السنة» ١٠/ ٢٢٢: (هو عند أهل العلم بمعنى الزجر، أي: لا تتشبهوا بالكفار في قتل بعضكم بعضًا).

والنظر إلى عاقبة هذا الاختلاف، وأنَّ ضرره عائد على الدين...

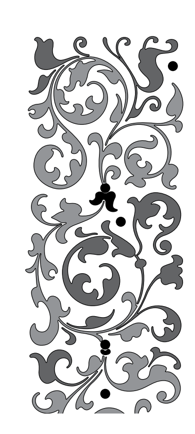
فأتفه شيء يدمر أعظم شيء، فالحكيم هو من ينظر لحظة عنفوان الانفعال لعاقبة الأمور، ويتخذ القرار على أساس العواقب، وما أدق قول جثامة بن قيس يصف عاقلاً:

بصير بأعقاب الأمور كأنما تخاطبه في كلِّ أمر عواقبه

ولغيره في المعنى:

بصير بأعقاب الأمور كأنما يرى بصواب الرأي ما هو واقع

❊ ❊ ❊



العهد السابع
التثبت والتبين

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء:٩٤].

قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبَّتوا)، ووافقهم الحسن والأعمش. وقرأ بقية القراء: ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[1].

قال ابن عباس: كان رجلٌ في غُنيمة له، فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم. فقتلوه، وأخذوا غُنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾، تلك الغُنيمة[2].

---

(١) يُنظر: الميسرَّ في القراءات الأربع عشرة ص٥١٦.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٩١) ومسلم (٣٠٢٥)، وأحمد ١/ ٢٢٩، وأبو داود (٣٩٧٤)، والترمذي (٣٠٣٠).

قال الإمام الطبري: (يعني جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، يا أيها الذين صدَّقوا الله وصدَّقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم، ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، يقول: إذا سرتم مسيرًا لله في جهاد أعدائكم، ﴿ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾، يقول: فتأنَّوا في قتل مَن أشكل عليكم أمرُه، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا من التبس عليكم أمرُه، ولا تتقدموا على قتل أحد إلا على قتل مَن علمتموه يقينًا حرْبًا لكم ولله ولرسوله. ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾، يقول: ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم، مظهرًا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم، ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾، فتقتلوه ابتغاء ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، يقول: طلب متاع الحياة الدنيا، فإنَّ ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾، مِن رزقه وفواضل نِعَمه، فهي خير لكم، إن أطعتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فأثابكم بها على طاعتكم إياه، فالتمسوا ذلك من عنده، ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾، يقول: كما كان هذا الذي ألقى إليكم السلم فقلتم له: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾، فقتلتموه، كذلك كنتم أنتم من قبل. يعني: من قبل إعزاز الله دينَه بتُبَّاعه وأنصاره، تستَخْفُون بدينكم، كما استخفى هذا الذي قتلتموه وأخذتم ماله بدينه من قومه أن يُظهره لهم، حذرًا على نفسه منهم. وقد قيل إنَّ معنى قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾: كنتم كفارًا مثلهم. ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ يقول: فتفضل الله عليكم بإعزاز دينه بأنصاره وكثرة تُبَّاعه. وقد قيل: فمنَّ الله عليكم بالتوبة مِن قتلكم هذا الذي قتلتموه وأخذتم ماله بعد ما ألقى إليكم السلم، ﴿ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾،

يقول: فلا تعجلوا بقتل مَن أردتم قتلَه ممن التبس عليكم أمرُ إسلامه، فلعلَّ الله أن يكون قد مَنَّ عليه من الإسلام بمثل الذي منَّ به عليكم، وهداه لمثل الذي هداكم له من الإيمان. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾، يقول: إنَّ الله كان بقتلكم مَن تقتلون، وكَفِّكم عمن تكفُّون عن قتله من أعداء الله وأعدائكم، وغير ذلك من أموركم وأمور غيركم، ﴿خَبِيرٗا﴾، يعني: ذا خبرة وعلم به، يحفظه عليكم وعليهم، حتى يجازى جميعكم به يوم القيامة جزاءه، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وذُكر أنَّ هذه الآية نـزلت في سبب قتيل قتلتْه سريَّة لرسول الله ﷺ بعد ما قال: (إنِّي مسلم)، أو بعد ما شهد شهادة الحق، أو بعد ما سلَّم عليهم، لغُنَيْمة كانت معه، أو غير ذلك من ملكه فأخذوه منه)[١].

وقال الرازي: (اعلم أنَّ المقصود من هذه الآية المبالغة في التحريم وقتل المؤمنين، وأمر المجاهدين بالتثبت فيه؛ لئلا يسفكوا دمًا حرامًا بتأويل ضعيف)[٢].

وقال أبو حيان: (قال أبو بكر الرازي: حَكَم تعالى بصحة إسلام مَن أظهر الإسلام، وأمر بإجرائه على أحكام المسلمين، وإن كان في الغيب على خلافه)[٣].

وقال النسفي: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، كرَّر الأمر بالتبيُّن؛ ليؤكد عليهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

---

(١) جامع البيان ٩/ ٧١-٧٢.
(٢) مفاتيح الغيب ١١/ ٣.
(٣) البحر المحيط ٣/ ٣٤٣.

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، فلا تتهافتوا في القتل، وكونوا محترزين محتاطين لذلك)[١].

وقال أبو السعود: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾... أي: لا تقولوا بغير تأمل لمن حيَّاكم بتحيَّة الإسلام أو لمن ألقى إليكم مقاليد الاستسلام والانقياد)[٢].

وقال البقاعي: (﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾، أي: اطلبوا بالتأني والتثبت بيان الأمور والثبات في تلبسها والتوقف الشديد عند مناهلها، وذلك بتمييز بعضها من بعض وانكشاف لبسها غاية الانكشاف، ولا تقدموا إلا على ما بان لكم)[٣].

وقال أيضًا: ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ ﴾، أي: الذي له جميع صفات الكمال، ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: بأن ألقى في قلوب المؤمنين قبول ما أظهرتم امتثالاً لأمره سبحانه وتعالى بذلك، فقوَّى أمر الإيمان في قلوبكم قليلاً قليلاً حتى صرتم إلى ما أنتم عليه في الرسوخ في الدين والشهرة به والعز، ولو شاء لقسَّى قلوبكم وسلَّطهم عليكم فقتلوكم، فإذا كان الأمر كذلك فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الدين من القبول ما فعل بكم، وهو معنى ما سبب عن الوعظ من قوله تأكيدًا لما مضى، إعلامًا بفظاعة أمر القتل، ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾، أي: الأمور وتثبتوا فيها حتى تنجلي، ثم علَّل هذا الأمر بقوله مرغِّبًا مرهِّبًا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾، أي: المختص بأنه عالم الغيب والشهادة، ﴿ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، أي: يعلم

(١) مدارك التنـزيل وحقائق التأويل ١/ ٢٤٢.
(٢) إرشاد العقل السليم ٢/ ٢١٨.
(٣) نظم الدرر ٢/ ٢٩٩.

ما أقدمتم عليه عن تبيين وغيره، فاحذروه بحفظ بواطنكم وظواهركم)[١].

وقال الشوكاني: (وقد استُدل بهذه الآية على أنَّ من قتل كافرًا بعد أن قال: لا اله إلا الله، قُتل به؛ لأنه قد عصم بهذه الكلمة دمه وماله وأهله، وإنما سقط القتل عمن وقع منه ذلك في زمن النبي ﷺ؛ لأنهم تأولوا وظنوا أنَّ من قالها خوفًا من السلاح لا يكون مسلمًا، ولا يصير بها دمه معصومًا، وأنه لابد من أن يقول هذه الكلمة وهو مطمئن غير خائف، وفي حكم التكلم بكلمة الإسلام إظهار الانقياد بأن يقول: أنا مسلم، أو أنا على دينكم؛ لما عرفت من أنَّ معنى الآية الاستسلام والانقياد، وهو يحصل بكل ما يشعر بالإسلام من قول أو فعل، ومن جملة ذلك كلمة الشهادة وكلمة التسليم... وكرَّر الأمر بالتبين؛ للتأكيد عليهم لكونه واجبًا لا فسحة فيه ولا رخصة...)[٢].

وقال القرطبي: عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾: (وفي هذا من الفقه باب عظيم وهو أنَّ الأحكام تناط بالمظانِّ والظواهر، لا على القطع واطلاع السرائر)[٣].

(١) نظم الدرر ٢/ ٣٠٠.
(٢) فتح القدير ١/ ٥٠١.
(٣) الجامع لأحكام القران ٥/ ٣٣٩.

الوصايا

الوصية الأولى: التبيُّن... التبين

ما أعظم الأمر الإلهي المؤكد، الحازم للمؤمنين بقوله:﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾، ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾!

فإنَّ الغضب درجات، وإنَّ المرء إذا غضب وكتم ولم يظهر غضبه فذلك يعني أنه في المرحلة الأولى، فإن ازداد غضبه تكلَّم بالغضب، فإن ازداد ضرب بيده، فإن ازداد ضرب بشيء ليعوِّق خصمه أو يجرحه، فإن بلغ الغضب مداه ربما قتل، فلا يقتل في العادة إلا من بلغ غضبه منتهاه، فمن قتل مرة وجاءت المرة الثانية بنفس الدواعي الأولى التي قتل فيها اختصر تلك المراحل المذكورة آنفًا، واستعجل القتل، حيث تصبح الفكرة الأولى عنده هي القتل وليست الأخيرة كما كانت، كما قال صاحب موسى لموسى عند أول غضب موسى عليه في اليوم التالي: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ﴾. فإنَّ من قتل مرة وجدتْ نفسُه في داخلها افتراسًا واستسهالاً لذاك القتل، وكلما أكثرَ القتل تعطش له... فكيف إذا كان وراء القتل غرض انتقام أو غرض دنيا، كما هو سبب نزول الآية؟!

ومن ثم جاء في الآية تأكيد وجوب التبيُّن بنفس الأحرف ونفس الصيغة، ونفس الآية مرتين، وذلك والله أعلم لأمور عدة، منها: عظم حرمة القتل، وعظم شأن التثبت، وعظم الظلم والجرم عند عدم التثبت، وعظم إقدام المجاهدين عليه، ولعظم

الاشتباه الواقع ما بين قتيل الجهاد والقتيل المظلوم، فكلاهما قتيل، فالشبهة عظيمة، ولصعوبة التعويض عن هذا الجرم، فهي روح وقد أزهقت، فكل تعويض لها ليس لصاحبها منه نصيب.

إنَّ مَن غضب على شخص مقابل له بسبب كلمة أو نحوها قيل له: تبين، لكن من غضب على شخص مقابل وكان بيده السلاح القاتل لم يكن أمره مرة واحدة بالتثبت بكافٍ، إذ لا بد من تكرار الأمر لمزيد الخطر واقتراب وقوعه.

فأيُّ شيء في الدنيا يمكن أن يعوِّض صاحب الروح عن روحه بعدما راحت بلا عودة له في الدنيا؟!

إنَّ القاتل بشبهة لو تصور لحظة واحدة من اللحظات التي يعيشها في داخله قتيله البريء حين يقتله هو لما تردد أبدًا في ترك قتله حتى التثبت... القتيل يعتقد إسلام نفسه، والقاتل يعتقد كفره.

فكيف يُعبِّر له عن صدقه، وهذا يكذبه ويصرُّ على قتله؟!

كيف يدعو عليه دعاء المضطر الذي كأنه يرى دمه يثور، وروحه بعد لحظات تزهق، والدنيا من بين يديه تودَّع... يدعو ربه، وربه يعلم أنه مسلم مظلوم مضطر؟!

فأيُّ استغاثة ستكون أصدق من استغاثة هذا الذبيح الذي دعوته تصعد مع روحه إلى ربها سبحانه؟!

وأيُّ شرارة أحرق وأسرع صعودًا إلى الله تعالى من صعود دعوة هذا المظلوم؟!

المظلوم بروحه لا بماله ولا بالدنيا!

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (اتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب)[١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده)[٢].

أحسب أنَّ أحاديث النبي ﷺ كفيلة بتحريك ذرة الإيمان إن بقيت في قلب كلِّ من قتل ظلمًا يومًا من الأيام، بل والله إنه لو شهد من قُتل ظلمًا، ولم ينصره، لحقَّ له أن لا ينام قريرًا ولا يأكل هانئًا حتى يلاقي ربه، فيعلم إن كان الله قد غفر له أم لم يغفر!

عند هذا الحد يجب أن يستغيث العبد القاتل، والشاهد القاتل، والمعين عليه، والراضي به، بالله استغاثة ذاك القتيل، الذي تكفَّل الله بالانتقام له، قبل أن يحلَّ به سخط الله!

يستغيث وقلبه لا يكاد يغفل لحظة عن نزول عذاب الله به.

يستغيث بالله مستعينًا به أن يمنحه القدرة على التعويض، والتحلل ممن قتله قبل أن يقتله في الدنيا وفي الآخرة بتلك القتلة، فيذوق أضعاف ما أذاق فرائسه المظلومين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦) و(٢٤٤٨) و(٤٣٤٧)، ومسلم (١٩) (٢٩) و(٣٠)، وأحمد ١/ ٢٣٣، وأبو داود (١٥٨٤)، والترمذي (٦٢٥) و(٢٠١٤)، وابن ماجه (١٧٨٣)، والنسائي ٥/ ٢-٤ و٥٥.
(٢) حديث حسن، وقد سبق تخريجه.

فمن أصرَّ بعد هذا الإنذار النبوي فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وما هذا الذي ذكرناه إلا محاولة وصف لمشاعر مسلم قُتِل ظلما، والحقيقة التي يعيشها في داخله شيء فوق التصور، وفوق الوصف؛ لأنه يعيش حقيقة الموت ظلما، يعيشه لحظة بلحظة!

فمن تصور هذا، وعلم أنَّ الذي علم بالحقيقة كما هي هو الله وحده سبحانه، عرف بعض سر هذا الأمر الإلهي في هذا الآية :﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾، ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾!

وعرف سر تعظيم أمر القتل ظلمًا على كل كبيرة من الكبائر التي يفعلها مسلم من المسلمين، فالله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٣].

فأيُّ شيء يمكن أن ينقذ مَنْ توعده الله بهذا العذاب الوارد في الآية، إن مات وهو مصرٌّ على جريمته؟!

أيُّ عمدٍ مثل أن يقتل قتيلاً، وهو يشهد بين يدي قاتله الشهادتين، ولم يرتكب ناقضًا من نواقض الإسلام ولم يكن ممن أباح الشرعُ قتلهم؟! الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر!

أيمكن أن يقبل عذره بأنَّ هؤلاء غير مسلمين؟!

ماذا بعد لا اله إلا الله؟! وماذا بعد الصلاة وأركان الإسلام واجتناب النواقض؟!

تأمل – أيها القاتل – في قول النبي ﷺ لأسامة: (أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله)[١].

عجبًا لأمر هؤلاء، عجبًا! أهم أصحاب الحكم، أم أنهم أصحاب الأمر، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾، [الأعراف ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء:٩٤].

هو سبحانه يقبلها منهم كوقاية لدمائهم وأنتم لا تقبلونها؟!

فعن المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه، وكان شهد بدرًا مع النبي ﷺ أنه قال: يا رسول الله، إن لقيتُ كافرًا فاقتتلنا فضرب يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ بشجرة وقال: أسلمت لله، أقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: (لا تقتله). قال: يا رسول الله، فإنه طرح إحدى يدي ثم قال ذلك بعد ما قطعها؟ قال: (لا، فإن قتلته فإنه بمنـزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنـزلته قبل أن يقول كلمته التي قال)[٢].

هل تريد إيضاحًا للحديث أم أنَّ كلماته وصورته لم تقع منك كما أراد رسول الله ﷺ؟

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩) و(٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦) (١٥٨) و(١٥٩)، وأحمد ٥/ ٢٠٠ و٢٠٧، وأبو داود (٢٦٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٠١٩) و(٦٨٦٥)، ومسلم (٩٥) (١٥٥) و(١٥٦) و(١٥٧)، وأحمد ٦/ ٣ و٤ و٥ و٦، وأبو داود (٢٦٤٤).

سل نفسك: هل شجاعتك أعظم أم شجاعة صاحب رسول الله ﷺ المقداد؟!

هل من منظر أعظم بعدما قُطعت يدُ الشجاع ثم فَرَّ القاطع فرقًا؟!

وهل من نقمة تتفجر في قلب الشجاع مثل تلك النقمة؟!

فدافع الانتقام حاضر، وصورته: يد مقطوعة، ودماء متفجرة، وبدن ملطخ بالدماء الحارة...

ووراءه آلام لا تحتمل، وقلب كالبركان، ودماء تفور، والغضب بلغ مداه، وهذا القاطع حاضر ومهزوم...

ومع كل هذه الدوافع إلا أنَّ النبي ﷺ يقول له: (لا تقتله...)!

كل هذا لماذا؟

لأجل لا اله إلا الله!

فمن لم تكفه لا اله إلا الله فماذا يكفيه؟!

ومن لم يرض بحكم رسول الله ﷺ فحكم مَنْ يرضيه؟!

ومن لم يعص أمر أمير القتل لأمر رسول الله ﷺ فليهنأ هو وأميره بمواجهة الله ورسوله ﷺ، فعن علي، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف)[1].

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤٠) و(٧١٤٥) و(٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠) (٣٩) و(٤٠)، وأحمد ١/ ٨٢ و٩٤ و١٢٤ و١٢٩ و١٣١، وأبو داود (٢٦٢٥)، والنسائي ٧/ ١٥٩.

لقد نصَّب بعضُ الجهلة أناسًا لا يمكن أن يقبل التقيُّ الذي يريد الله والدار الآخرة فتاواهم، جعلوهم أئمة وقضاة في الدماء، وأحسنهم حالاً لا يصح وصفه بطالب علم متمكن أو متقدِّم فضلاً عن كونه عالمًا وقاضيًا ومفتيًا.

وعن معاوية رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا)[1].

لا تقس الزنا على القتل، ولا شرب الخمر على القتل، ولا الكبائر الأخرى، فالأمل بعد الكبائر الأخرى ممتد وفسيح إلى أن يموت الرجل، أما القتل فأمره ضيِّق ضيِّق، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا)[2].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: (إنَّ من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها، سفك الدم الحرام بغير حله)[3].

وقد سئل ابنُ عباس عن هاتين الآيتين ما أمرُهما: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾[الإسراء ٣٣]، ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ [النساء ٩٣]، فقال: لمَّا

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٩٩، والنسائي ٧/ ٨١، والطبراني ١٩/ (٨٥٦) و(٨٥٧) و(٨٥٨)، والحاكم ٤/ ٣٥١. وصححه الألباني وشعيب، وقال الشيخ عبد القادر: حديث حسن. وحمل الجمهورُ الحديثَ على التغليظ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٦٢)، وأحمد ٢/ ٩٤.

(٣) أخرجه البخاري (٦٨٦٣).

أُنزلت التي في الفرقان، قال مشركو أهل مكة: فقد قتلنا النفس التي حرَّم الله، ودعونا مع الله إلهًا آخر، وقد أتينا الفواحش، فأنزل الله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ [الفرقان٧٠]، فهذه لأولئك، وأما التي في النساء: الرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه، ثم قتل، فجزاؤه جهنم.

فذكرته لمجاهد فقال: إلا من ندم(١).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: (لو أنَّ أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن، لأكبهم الله في النار)(٢).

وعن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (أول مايقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء)(٣).

وعن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تُقتل نفسٌ ظلمًا، إلا كان على ابن آدم القاتل كفل من إثمها؛ لأنه أول مَن سنَّ القتل)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٥٥) و(٤٥٩٠) و(٤٧٦٢) و(٤٧٦٣) و(٤٧٦٤) و(٤٧٦٥) و(٤٧٦٦)، ومسلم (٣٠٢٣) (١٨)، وأحمد ١/ ٢٢٢ و٢٤٠ و٢٩٤ و٣٦٤، وأبو داود (٤٢٧٣)، والترمذي (٣٠٢٩)، وابن ماجه (٢٦٢١)، والنسائي ٧/ ٨٥ و٨/ ٦٣.

(٢) أخرجه الترمذي (١٣٩٨) وقال: حديث غريب، والطبراني في «الأوسط» (١٤٤٣) من حديث أبي هريرة، والحاكم ٤/ ٣٥٢ من حديث أبي سعيد، وقال الألباني: صحيح لغيره. وقال شعيب وعبد القادر: حسن لغيره.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٣) و(٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨) (٢٨)، وأحمد ١/ ٣٨٨ و٤٤٠ و٤٤٢، والترمذي (١٣٩٦) و(١٣٩٧)، وابن ماجه (٢٦١٥) و(٢٦١٧)، والنسائي ٧/ ٨٣-٨٤.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٣٥) و(٦٨٦٧) و(٧٣٢١)، ومسلم (١٦٧٧) (٢٧)، وأحمد ١/ ٣٨٣

وعن عبد الله بن عمرو، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: (لَزوالُ الدنيا أهونُ على الله من قتل رجلٍ مسلم)[١].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: (من قتل مؤمنًا فاغتبط بقتله، لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً)[٢].

ثم روى عن خالد بن دهقان، سألت يحيى بن يحيى الغساني عن قوله «فاغتبط بقتله»، قال: الذين يقاتلون في الفتنة فيقتل أحدهم، فيرى أحدهم أنه على هدى، لا يستغفر الله.

وقال الحافظ ابن حجر: قد ثبت عن ابن عمر أنه قال لمن قتل عامدًا بغير حق: (تزود من الماء البارد، فإنك لا تدخل الجنة)[٣].

فأيُّ جرم لعدم التثبت إذا تعدد الجرم وتكرر مع أناس كثر؟!

أيُّ جرم إذا حوَّل القتلة الجرم بالقتل إلى مفخرة يتمادحون بها بينهم؟!

وأيُّ جرم إذا كان مجرد اختلاف الرأي مع فلان أو فلان -مما لا يبيح القتل- لا يُحِلُّ

و٤٣٠ و٤٣٣، والترمذي (٢٦٧٣)، وابن ماجه (٢٦١٦)، والنسائي ٧/ ٨١-٨٢.

(١) أخرجه الترمذي مرفوعًا وموقوفًا (١٣٩٥)، والنسائي ٧/ ٨٢، وفي «الكبرى» مرفوعًا (٣٤٤٩)، وموقوفًا (٣٤٥٠) و(٣٤٥١). وصححه الألباني، وحسنه عبد القادر. وقال شعيب: حديث محتمل للتحسين. وصحح البخاري وقفه كما نقل الترمذي في «العلل الكبير» ٢/ ٥٧٩. وقال الترمذي عن الموقوف: وهذا أصح من الحديث المرفوع.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٧٠)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٣١١)، والبيهقي ٨/ ٢١، والضياء المقدسي في «المختارة» (٤١٥) و(٤١٦) و(٤١٧). وصححه الألباني وشعيب وعبد القادر.

(٣) فتح الباري ١٢/ ١٨٩.

إلا بإزهاق الأرواح؟!

وأيُّ جرم حين يكون المقتول طالبَ علم شهدت المساجد صلاته وقيامه، وشهدت بيوت الله تعلمه وتعليمه، وحفت الملائكة حلقاته وتذكيره؟!

وأيُّ جرم حين يكون المقتول مجاهدًا شهدت سوح النزال صولاته وجولاته؟!

الوصية الثانية: نخل المناهج

يخطئ خطأً عظيمًا من يظن أنَّ ضرر الغلاة في العراق أو الشام كان مقتصرًا على ارتكاب كبيرة القتل!

فكم يحتاج هؤلاء الذين التحقوا بهذا المنهج القائم على العجلة والغلو والجهل معًا، أن يتبيَّنوا بعدما مرَّ عليهم من الوقت ما يكفي؟

فإنَّ خطورتهم أكبر من ذلك وأبعد، إذا علمنا أنهم أشاعوا مناهج رسخت عند البعض، فأصبحتَ وأنت تقدم النصيحة تُعدُّ أنك العدو بعينه، وطلبهم وهم يسمعون النصيحة ليس هو دليلها ولا تطبيقها، وإنما دم صاحبها!

فليس من شك أنَّ خطورتهم منهجية.

أليسوا هم الذين أشاعوا منهج تقديم العمل على العلم، ورب العالمين يقول: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ [محمد:١٩]؟

أليسوا هم مَنْ أشاع منهج الجرأة على الله وعلى رسوله ﷺ بالجرأة على التحليل والتحريم والفتوى بغير علم؟

أليسوا هم الذين أشاعوا الجرأة على مقام النبوة حين تجرؤوا على ورثة الأنبياء بالقول، وتجرؤوا عليهم بسفك دمائهم؟

أليسوا هم أقل الطوائف الجهادية علمًا وأقل الطوائف فيها طلاب علم متمكنين؟ وهم الطائفة المقدمة لمن عِلْمه في الشرع لا يجاوز تراقيه، بينما لسانه يتجاوز كل حد!

فهم علماء كبار! ويقدمون على العلماء الكبار! وينتقصون العلماء الكبار! وربما يكفرون العلماء الكبار!

هم علماء... ولكن من غير تعلم على العلماء، ومن غير قراءة في كتب المطولات والأمهات!

أليسوا هم من أشاع منهج الغدر؟ فبعد تأمين الآخرين من خصومهم يغدرون بهم، والغدر بعد تأمين أهل الجهاد أنفسهم، والغدر حتى في أصحابهم الذين يبايعونهم.

ولو سألت أيَّ فصيل من أهل الجهاد ما الذي يمنعكم أن تتفقوا معهم على الوحدة أو نحو ذلك، لكان الجواب الموحد هو: نخشى غدرهم، وكم اتفقوا وغدروا؟ وكم أمنوا وخانوا؟ وكم ذهب ضحية غدرهم خيار القادة في العراق؟ ولو تأكدت بنفسك- أيها التابع- اليوم لما وجدت قائدًا جهاديًّا إلا وهو موضوع

في مشروع غدر أو نية غدر.

ولقد أصبح الغدر علامة على هؤلاء.

بينما كان العهد عند السلف مسؤولاً، فإذا عاهدوا لم يخونوا مهما كان الأمر، وإذا عاهدوا لم يغدروا، وما سجل التاريخ أنَّ مسلمًا متبعًا للكتاب والسنة أمَّن أحدًا وغدر، فأيُّ ذنب أعظم من ادعاء النبوة؟! وأيُّ مدَّع للنبوة بعد مسيلمة الكذاب أضر من المختار بن عبيد؟ ومع هذا فقد روى رفاعة بن شداد الفِتياني قال: لولا كلمة سمعتها من عمرو بن الحمق الخزاعي لمشيت فيما بين رأس المختار وجسده، سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: (من أمَّن رجلاً على دمه فقتله فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة)[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (من قتل نفسًا معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا)[2].

أيًا كان هذا الرجل المُؤمَّن، وهذا الذي جرى عليه كل المسلمين طوال العصور.

فقد روى عمرو بن الحمق، أنَّ النبي ﷺ قال: (من أمَّن رجلاً على دمه فقتله فأنا

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٨٦)، وأحمد ٥/ ٢٢٣ و٢٢٤ و٤٣٦ و٤٣٧، وابن ماجه (٢٦٨٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٤٥)، والبزار (٢٣٠٦)، والنسائي في «الكبرى» (٨٧٣٩) و(٨٧٤٠) و(٨٧٤١)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٠١) و(٢٠٢)، والطبراني في «الأوسط» «نسخة الحرمين» (٨٤٢٨)، والبيهقي ٩/ ١٤٢. قال الهيثمي: رجاله ثقات. وقال البوصيري: إسناده صحيح. وصححه الألباني وشعيب.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٦) (٦٩١٤)، وأحمد ٢/ ١٨٦، وابن ماجه (٢٦٨٦)، والنسائي ٨/ ٢٥.

بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً)[١].

ومن المناهج التي أشاعوها اصطناع أدلة عامة وتقديمها على الأدلة التفصيلية، فتراهم يحاكمون الأدلة الشرعية إلى قناعاتهم هم، وهذا هو عين تحكيم الأهواء في شرع الله سبحانه وتعالى.

فما أسهل نسف الدليل الصريح الصحيح بناءً على قاعدة عامة لم يفهموها فهمًا صحيحًا!

وما أسهل الاجتزاء في النقل عن العلماء لتبرير موقف مُعيَّن عندهم!

فمن الثبات والتوفيق وعدم التبديل أن يستقيم المجاهدُ على منهج أهل السنة والجماعة في المسائل العلمية والعملية، فلا تكفير بغير حق، ولا قتل بغير حق، ولا نأخذ الفتاوى في أخطر المسائل من الجهلة، ولا غنى عن العلماء العاملين، ولا اهمال للعمل بالسياسة الشرعية -كما هو حال أهل الغلو-، ولا نترك قتال مَن وجب قتاله، ولا ندخل «برلمانات» في حكومات مرتدة.

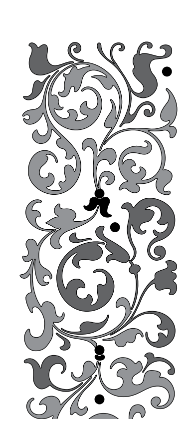
فنسأل الله أن يُثبتنا على الحق وإن طال الطريق أو تأخر النصر، فالنصر الأكبر

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٨٥)، وعبد الرزاق (٩٦٧٩)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٣٤٣) و(٢٣٤٤)، والبزار (٢٣٠٨)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٢٠٣)، وابن حبان (٥٩٨٢)، والطبراني في «الأوسط» «نسخة الحرمين» (٤٢٥٢) و(٦٦٤٠) و(٦٦٥٥) و(٧٠٩٠)، وفي»الصغير» (٣٨) و (٥٨٤)، و»مسند الشاميين» (٢٤٤٨)، والبيهقي ٩/ ١٤٢. قال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد كثيرة وأحدها رجاله ثقات. وحسنه الألباني وشعيب.

والأعظم هو الثبات على منهج الله جلَّ وعلا دون غلو أو تقصير. ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾[الأحزاب:٢٣].





العهد الثامن
الحذر من كلمة الكفر

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٨].

قال الإمام الطبري: (فمعنى الآية: وليعلم الله الذين قالوا لإخوانهم الذين أُصيبوا مع المسلمين في حربهم المشركين بأُحد يوم أُحد، فقتلوا هنالك من عشائرهم وقومهم، ﴿وَقَعَدُواْ ﴾ يعني: وقعد هؤلاء المنافقون القائلون ما قالوا، مما أخبر الله عز وجل عنهم من قِيلهم عن الجهاد مع إخوانهم وعشائرهم في سبيل الله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا ﴾، يعني: لو أطاعنا من قُتِل بأُحد من إخواننا وعشائرنا، ﴿مَا قُتِلُواْ ﴾، يعني: ما قُتِلوا هنالك. قال اللهَّ عزَّ وجلَّ لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين: ﴿ فَٱدْرَءُواْ ﴾، يعني: فادفعوا، من قول القائل: درأت عن فلان القتل، بمعنى: دفعتُ عنه، أدرؤوه درءًا... يقول تعالى ذكره: قُل لهم: فادفعوا إن كنتم- أيها المنافقون- صادقين في قيلكم: لو أطاعنا إخواننا في ترك الجهاد في سبيل الله مع محمد ﷺ وقتالهم أبا سفيان ومن معه من

قريش، ماقُتلوا هنالك بالسيف، ولكانوا أحياء بقعودهم معكم وتخلفهم عن محمد ﷺ وشهود جهاد أعداء الله معه، ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ﴾ الموت فإنكم قد قعدتم عن حربهم، وقد تخلفتم عن جهادهم، وأنتم لا محالة ميتون)[1].

وقال البغوي: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، في النسب لا في الدين، وهم شهداء أحد، ﴿وَقَعَدُوا۟﴾، يعني: قعد هؤلاء القائلون عن الجهاد، ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾، وانصرفوا عن محمد ﷺ وقعدوا في بيوتهم...)[2].

وقال ابن الجوزي: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾... وفي إخوانهم قولان: أحدهما أنهم إخوانهم في النفاق، قاله ابن عباس. والثاني إخوانهم في النسب، قاله مقاتل. فعلى الأول يكون المعنى: قالوا لإخوانهم المنافقين: لو أطاعنا الذين قُتلوا مع محمد ﷺ ما قُتلوا. وعلى الثاني يكون المعنى: قالوا عن إخوانهم الذين استشهدوا بأحد: لوا أطاعونا ما قتلوا)[3].

وقال البيضاوي: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين أنكم تقدرون على دفع القتل عمن كُتب عليه، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه، فإنه أحرى بكم، والمعنى: أنَّ القعود غير مغنٍ عن الموت، فإنَّ أسباب

---

(١) جامع البيان ٧/ ٣٨٢.
(٢) معالم التنـزيل ٢/ ١٣٠.
(٣) زاد المسير ٢/ ٦٣.

الموت كثيرة، وكما أنَّ القتال يكون سببًا للهلاك والقعود سببًا للنجاة قد يكون الأمر بالعكس...)[١].

وقال برهان الدين البقاعي: (ولما حكى عنهم ما لا يقوله ذو إيمان أتْبعه ما لا يتخيله ذو مروءة ولا عرفان، فقال مبينًا للذين نافقوا: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾، أي: لأجل إخوانهم، والحال أنهم قد أسلموهم، ﴿ وَقَعَدُواْ ﴾، أي: عنهم خذلانًا لهم، ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا ﴾، أي: في الرجوع، ﴿ مَا قُتِلُواْ ﴾، ولما كان هذا موجبًا للغضب، أشار إليه بإعراضه في قوله: ﴿ قُلْ ﴾، أي: لهؤلاء الأجانب الذين هم بمنـزلة الغيبة عن حضرتي لما تسبب عن قولهم هذا من ادعاء القدرة على دفع الموت، ﴿ فَٱدْرَءُواْ ﴾، أي: ادفعوا بعز ومنعة وميِّلوا ﴿ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾، أي: حتى لا يصل إليكم أصلاً ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، أي: في أنَّ الموت يغني منه حذر)[٢].

وقال الشنقيطي: (ذكر في هذه الآية الكريمة أنَّ المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون: لو أطاعونا فلم يخرجوا إلى الغزو ما قتلوا. ولم يبين هنا هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو ليثبطوهم أو لا؟ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾، ولكنه بيَّن في آيات أُخر أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو؛ ليثبطوهم كقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢/ ١١٣.
(٢) نظم الدرر ٢/ ١٨٠.

مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾، وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾، إلى غير ذلك من الآيات)[1].

وقال سيد رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾(آل عمران): (فهم لم يكتفوا بالتخلف- والمعركة على الأبواب- وما يحدثه هذا التخلف من رجة وزلزلة في الصفوف والنفوس، وبخاصة أنَّ عبد الله بن أبيٍّ، كان ما يزال سيدًا في قومه، ولم يكشف لهم نفاقه بعد، ولم يدمغه الله بهذا الوصف الذي يهز مقامه في نفوس المسلمين منهم، بل راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة في قلوب أهل الشهداء وأصحابهم بعد المعركة، وهم يقولون: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾. فيجعلون من تخلفهم حكمة ومصلحة، ويجعلون من طاعة الرسول ﷺ واتباعه مغرمًا ومضرة. وأكثر من هذا كله يفسدون التصور الإسلامي الناصع لقدر الله، ولحتمية الأجل، ولحقيقة الموت والحياة، وتعلقهما بقدر الله وحده... ومن ثم يبادرهم بالرد الحاسم الناصع، الذي يرد كيدهم من ناحية، ويصحح التصور الإسلامي، ويجلو عنه الغبش من ناحية: ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، فالموت يصيب المجاهد والقاعد، والشجاع والجبان، ولا يرده حرص ولا حذر، ولا يؤجله جبن ولا قعود... والواقع هو البرهان الذي لا يقبل المراء... وهذا الواقع هو الذي يجابههم به القرآن الكريم، فيرد كيدهم اللئيم، ويقر الحق في نصابه، ويثبِّت

---

(١) أضواء البيان ١/ ٢١٤.

قلوب المسلمين، ويسكب عليها الطمأنينة والراحة واليقين... ومما يلفت النظر في الاستعراض القرآني لأحداث المعركة، تأخيره ذكر هذا الحادث- حادث نكول عبد الله بن أبيٍّ ومن معه عن المعركة- وقد وقع في أول أحداثها وقبل ابتدائها... تأخيره إلى هذا الموضع من السياق...

وهذا التأخير يحمل سمة من سمات منهج التربية القرآنية... فقد أخَّره حتى يقرر جملة القواعد الأساسية للتصور الإسلامي التي قررها، وحتى يقرَّ في الأخلاد جملة المشاعر الصحيحة التي أقرها، وحتى يضع تلك الموازين الصادقة للقيم التي وضعها... ثم يشير هذه الإشارة إلى ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾، وفعلتهم وتصرفهم بعدها، وقد تهيأت النفوس لإدراك ما في هذه الفعلة وما في هذا التصرف من انحراف عن التصور الصحيح، وعن القيم الصحيحة في الميزان الصحيح... وهكذا ينبغي أن تنشأ التصورات والقيم الإيمانية في النفس المسلمة، وأن توضع لها الموازين الصحيحة التي تعود إليها لاختبار التصورات والقيم، ووزن الأعمال والأشخاص، ثم تعرض عليها الأعمال والأشخاص- بعد ذلك- فتحكم عليها الحكم المستنير الصحيح، بذلك الحس الإيماني الصحيح... ولعل هنالك لفتة أخرى من لفتات المنهج الفريد، فعبد الله بن أبيٍّ كان إلى ذلك الحين ما يزال عظيمًا في قومه- كما أسلفنا- وقد ورم أنفه لأنَّ النبي ﷺ لم يأخذ برأيه- لأنَّ إقرار مبدأ الشورى وإنفاذه اقتضى الأخذ بالرأي الآخر الذي بدا رجحان الاتجاه إليه في الجماعة- وقد أحدث تصرف هذا المنافق الكبير رجة

في الصف المسلم، وبلبلة في الأفكار، كما أحدثت أقاويله بعد ذلك عن القتلى حسرات في القلوب وبلبلة في الخواطر... فكان من حكمة المنهج إظهار الاستهانة به وبفعلته وبقوله، وعدم تصدير الاستعراض القرآني لأحداث الغزوة بذلك الحادث الذي وقع في أولها، وتأخيره إلى هذا الموضع المتأخر من السياق، مع وصف الفئة التي قامت به بوصفها الصحيح: ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، والتعجيب من أمرهم في هذه الصيغة المجملة: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، وعدم إبراز اسم كبيرهم أو شخصه؛ ليبقى نكرة في: ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾، كما يستحق من يفعل فعلته، وكما تساوي حقيقته في ميزان الإيمان، ميزان الإيمان الذي أقامه فيما سبق من السياق)[1].

ويقول محمد أبو زهرة في تفسيره: (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾... في هذا النص قولهم بعد انتهاء الحرب، وقد قالوه ليبعثوا الريب في جماهير المؤمنين، وليعلنوا تخلي الله عن نصرتهم، والمعنى: هؤلاء قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم: لو أطاعنا المؤمنون ما قتلوا، فقد دعوناهم إلى العودة إلى المدينة والامتناع عن الخروج ولكنهم خالفونا، فانتهوا إلى القتل. فالتقاول كان بين المنافقين أنفسهم. أو نقول: إنَّ إخوانهم ذوو رحمهم وعشائرهم من المؤمنين الذين استشهدوا في أحد، والمعنى على هذا أنَّ الذي قالوه لأجل أو في شأن إخوانهم، فاللام للتعليل وبيان الباعث على القول، فهم لا يتألمون لإخوانهم وذوي رحمهم، ولكن يلقون باللوم عليهم.

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥١٥-٥١٦.

وخلاصة القول: إنهم فرحون بأنهم لم يقتلوا؛ لأنهم لم يخرجوا، ولائمون لمن خرجوا وقتلوا، شامتون فيهم، وهم بهذا يقررون أنَّ موتهم سببه الخروج للقتال، وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى ذلك عليهم ببيان أنَّ الموت مكتوب على الإنسان، وتقدَّر أسبابه، فقد يكون قتال ولا موت، وقد يكون موت من غير قتال، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾[آل عمران].

الفاء هنا هي التي تسمى فاء الإفصاح، وهي تفصح عن شرط مقدَّر، والمعنى: إن كنتم تظنون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بامتناعكم عن الذهاب إلى الميدان وقعودكم في الديار، فادرؤوا، أي: ادفعوا عن أنفسكم الموت المكتوب الذي لا تفرون منه أبدًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

والمرمى في هذا النص أنهم يعتقدون أنهم نجوا من الموت بقعودهم، فهل يعتقدون أنهم نجوا منه نهائيًّا؟! إنه ملاحقهم، ومادام ملاحقهم وهو حقيقة مقررة يثبتها الحس المستمر، فلماذا تفرون من القتال؟! والتعليق في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾، لإفادة كذب حسهم، وكذب قولهم في زعمهم أنَّ القعود سبب للنجاة، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يذكر لهم أنهم إن كانوا صادقين في أنَّ القعود سبب للنجاة فليدفعوا عن أنفسهم الموت؛ لأنَّ الموت لا يدفعه قعود ولا يستعجله خروج)[1].

(١) زهرة التفاسير ٣/ ١٤٩٨-١٤٩٩.

ويقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران:١٥٦].

قال الآلوسي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، وهم المنافقون، كعبد الله بن أبيٍّ ابن سلول وأصحابه، قاله السدي ومجاهد. وإنما ذكر في صدر الجملة كفرهم تصريحًا بمباينة حالهم لحال المؤمنين، وتنفيرًا عن مماثلتهم)[١].

وقال الرازي: (فمن قدِّر له البقاء لم يقتل في الجهاد، ومن قدِّر له الموت لم يبق وإن لم يجاهد، وهو المراد من قوله: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾. وأيضًا الذي قُتل في الجهاد لو أنه ما خرج إلى الجهاد لكان يموت لا محالة، فإذا كان لابد من الموت فلأن يُقتل في الجهاد حتى يستوجب الثواب العظيم كان ذلك خيرًا له من أن يموت من غير فائدة)[٢].

وقال سيد قطب: (يقولونها لفساد تصورهم لحقيقة ما يجري في الكون، ولحقيقة القوة الفاعلة في كل ما يجري، فهم لا يرون إلا الأسباب الظاهرة والملابسات السطحية، بسبب انقطاعهم عن الله، وعن قدره الجاري في الحياة، ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾. فإحساسهم بأنَّ خروج إخوانهم ليضربوا في الأرض في طلب الرزق فيموتوا، أو ليغزوا ويقاتلوا فيقتلوا... إحساسهم بأنَّ هذا الخروج هو علة الموت أو

(١) روح المعاني ٤/ ٩٩.
(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٤٤.

القتل، يذهب بأنفسهم حسرات أن لم يمنعوهم من الخروج! ولو كانوا يدركون العلة الحقيقية، وهي استيفاء الأجل، ونداء المضجع، وقدر الله، وسنته في الموت والحياة، ما تحسروا ولتلقوا الابتلاء صابرين، ولفاءوا إلى الله راضين.

﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾... فبيده إعطاء الحياة، وبيده استرداد ما أعطى، في الموعد المضروب والأجل المرسوم، سواء كان الناس في بيوتهم وبين أهلهم، أو في ميادين الكفاح للرزق أو للعقيدة، وعنده الجزاء، وعنده العوض، عن خبرة وعن علم وعن بصر.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، على أنَّ الأمر لا ينتهي بالموت أو القتل، فهذه ليست نهاية المطاف، وعلى أنَّ الحياة في الأرض ليست خير ما يمنحه الله للناس من عطاء، فهناك قيم أخرى، واعتبارات أرقى في ميزان الله)[1].

ويقول الشيخ الشعراوي: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، إذن فالله سبحانه وتعالى يصور لهم ما يقولونه ليعذبهم به، كيف؟ لأنهم عندما يقولون: لو كانوا عندنا لكنا منعناهم أن يخرجوا أو يُقتلوا، إذن فنحن السبب...

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا، وهذه حسرة في قلوبهم، ولو أنهم ردُّوها إلى الحق الأعلى لكان في ذلك راحة لهم، ولما كانوا قد أدخلوا أنفسهم في متاهة، ويحدث منهم هذا حتى نعرف غباءهم أيضًا، فهم أغبياء

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٩.

في كل حركاتهم وفي استقراء الأحداث الجزئية، وأغبياء في استخراج القضية الإيمانية الكلية، أغبياء في أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها في مسألة ليست من شأنهم، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم.

﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾، إنَّ القضية الإيمانية هي ﴿ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، أي: هو الذي يهب الحياة، وهو الذي يهب الموت، فلا الضرب في الأرض ولا الخروج في سبيل الله هو السبب في الموت، ولذلك يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه: لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح، أموت على فراشي كما يموت البعير -أي حتف أنفه- فلا نامت أعين الجبناء.

والشاعر يقول:

ألا أيها الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخْلِدِي؟

أي: يا من تمنعني أن أحضر الحرب، هل تضمن لي الخلود ودوام البقاء إذا أحجمت عن القتال؟! ويكمل الشاعر قوله:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيَّتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي)[1].

وقال سيد عند قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [آل

(١) تفسير الشعراوي ٣/ ١٨٣٣.

عمران:١٥٧-١٥٨]: (وكلهم مرجوعون إلى الله، محشورون إليه على كل حال، ماتوا على فراشهم أو ماتوا وهم يضربون في الأرض، أو قُتلوا وهم يجاهدون في الميدان، فما لهم مرجع سوى هذا المرجع، وما لهم مصير سوى هذا المصير... والتفاوت إذن إنما يكون في العمل والنية وفي الاتجاه والاهتمام... أما النهاية فواحدة: موت أو قتل في الموعد المحتوم، والأجل المقسوم، ورجعة إلى الله، وحشر في يوم الجمع والحشر... ومغفرة من الله ورحمة، أو غضب من الله وعذاب... فأحمق الحمقى من يختار لنفسه المصير البائس وهو ميت على كل حال!

بذلك تستقر في القلوب حقيقة الموت والحياة، وحقيقة قدر الله، وبذلك تطمئن القلوب إلى ما كان من ابتلاء جرى به القدر، وإلى ما وراء القدر من حكمة، وما وراء الابتلاء من جزاء... وبذلك تنتهي هذه الجولة في صميم أحداث المعركة، وفيما صاحبها من ملابسات)[1].



(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٩٩.

الوصايا

الوصية الأولى: حذارِ من أسباب الخلود

يا أهل الإسلام: قد رأينا بأنفسنا أناسًا يدَّعون العلم والدعوة يقفون من الجهاد في الشام أو غيره موقف الضد! رأيناهم إذا رأوا الخبر على الشاشة بعملية جهادية اشمأزوا! وإذا رأوا قتيلاً من المجاهدين قالوا: واللهِ ما كان أغناهم عن هذا المصير!

وإذا رأوا أعمالاً إجرامية للغلاة عمَّموها على المجاهدين وقالوا: هذه نتيجة الجهاد، هكذا يشوِّهون الإسلام!

ننشدكم الله أن لا تقفوا هذا الموقف، الذي نحسب القرآن نزل بحكم النفاق فيما هو مثله، وربما أقل منه، وسمَّى أصحابه المبطِّئين، والقواعد، والظانين بالله ظنَّ السوء، ونحو ذلك.

ننشدكم الله أن تتوبوا من هذا النفاق، فإن لم تكونوا تعلمون... فها قد علمتم هذا الحكم من هذا البحث، وهو والله لا يحتاج إلى بحث بعد قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (آل عمران:١٥٦).

يا رؤوس المهادنين المداهنين، ما موقفكم الشرعي من هذه المسألة؟!

أليس هؤلاء نصارى ومجوس ونصيريين ومنافقين ومرتدين؟!

أليسوا محتلين للبلد المسلم حاكمين المسلمين قهرًا بغير الإسلام؟!

أليس من يقاتلهم مسلمون؟!

أليست غايتهم الدفاع عن الدين والعرض والمال والأرض؟!

أليسوا أصحاب حق مشروع؟!

فما نتيجة هذه المقدمات الصحيحة التي لا نختلف عليها أبدًا؟!

وهل تقبل هذه المعادلة الاجتهاد أو التأويل؟!

لِم لا تتوقفون عن الكلام في المشروع الجهادي؟!

لِم لا تتوقفون عن لمزه واحتقاره، ألم يقل الله فيمن لمز أقل من هذا اللمز: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم...﴾(التوبة: ٦٥ – ٦٦)؟

لِمَ تتحملون أوزار الجموع حين تسخرونهم لمقاومة المجاهدين؟!

ألأَنَّ أولئك الغلاة طائفة أجرموا وأوغلوا في الدماء، وإنه لكذلك، لكن هل كل المجاهدين غلاة؟! وإن كان موقفكم من الجهاد سيئًا بعيدًا عن الشرع قبل أن يستفحل أثر الغلاة.

بالله عليكم هل تريدون نصر الإسلام؟!

هل تقبلون أن تكونوا أتباعًا لقادة إسلاميين، أم أنكم تفضلون أن تكونوا ذيولاً

للمجوس والنصيريين؟!

لقد عطلتم آيات الجهاد في سورتي التوبة والأنفال!

لقد أخذتكم العزة بالإثم والعياذ بالله.

نعم القضية واضحة لكل أحد، وقد أصبحتم حديث كل أحد! والشواهد من أعمالكم ومواقفكم السابقة لم تخف على أحد!

فإلى متى هذا الإيغال في التغافل والاستغفال والنفاق؟!

تذكروا أنه ليس مطلوبنا في الإجابة على هذه الأسئلة عقد مؤتمر صحفي حتى تحاولوا بفنٍّ في الكلام الخلاصَ منها، إنَّ المقصود أن تحتفظوا بهذه الإجابة كشهادة يكتبها الله جلَّ جلاله، كما قال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

أيها الأتباع: خلِّصوا أنفسكم قبل أن تتقطع الأسباب، ولن تعذروا بدعوى أنكم أتباع!

فهل تشكون في المقدِّمات المذكورة قبل أسطر؟! إذن فلن تشكوا في النتيجة.

إنَّ غايتنا مما سبق دعوتكم إلى الحق وإنقاذكم من حكم النفاق، وتغيير منهجكم إلى منهج الكتاب والسنة في كل موقف، وفي هذا الموقف خاصة.

أيها الأتباع: اخرجوا من هذه التعصب المقيت لمشايخ لم يخالفوا طاغوت بلدهم في يوم من الأيام...

اخرجوا قبل أن تخرجوا من الدنيا مجازفين بأعز شيء... مجازفين بالتوحيد!

إذا دعوناكم لغير الله فارفضوا دعوتنا! ولكن لا تكونوا أسلافًا لمن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴾ [النور:٤٨-٤٩].

ولقد علمنا أنَّ هناك من يكتب التقارير للنصيريين عن المجاهدين، وهذه هي الدياثةُ الكبرى والردةُ الصراح والكفرُ البواح الذي لا ينفع معه صلاة ولا صيام، فدلالة النصيريين على عورات المسلمين مِن أظهر أنواع التولي المخرج من الملة، ومَن رضي بذلك استحق نفسَ الحكم وإن لم يكتب التقارير، فالرضى بالكفرِ كفرٌ.

يقول جلَّ وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

وسأذكر نصوصًا عن أهل العلم في هذه المسالة؛ لعظم خطورتها:

قال الإمام الطبري: (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكره نهَى المؤمنين جميعا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاءَ على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزُّب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأنَّ الله ورسوله منه بريئان... لا شك أنَّ الآية نزلت في منافق كان يوالي يهودًا أو نصارى خوفًا على نفسه من دوائر الدهر؛ لأنَّ الآية التي بعد هذه تدلُّ على ذلك... يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾، ومن يتولَّ اليهود والنصارى دون المؤمنين،

فإنه منهم. يقول: فإنَّ من تولاهم ونصرَهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولٍ أحدًا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راضٍ. وإذا رضيه ورضي دينَه، فقد عادى ما خالفه وسَخِطه، وصار حكمُه حكمَه)[١].

ويقول جلَّ وعلا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال الإمام الطبري: (ومعنى ذلك: لا تتخذوا، أيها المؤمنون، الكفارَ ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلُّونهم على عوراتهم، فإنه مَنْ يفعل ذلك ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾، يعني بذلك: فقد برئ من الله وبرئ اللهُ منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مُسلم بفعل)[٢].

وقال الخرشي في شرحه على مختصر خليل في الفقه المالكي: (والمشهور أنَّ المسلم إذا تبين أنه عينٌ للعدوِّ فإنه يكون حكمه حينئذ حكم الزنديق، أي: فيقتل إن ظُهر

(١) المصدر نفسه ١٠/ ٣٩٨-٤٠٠.
(٢) جامع البيان ٦/ ٣١٣.

عليه، ولا تقبل توبته، وهو قول ابن القاسم وسحنون)[١]. وفي حاشية العدوي على الخرشي: («قوله وهو قول ابن القاسم» ومقابله ما قاله ابن وهب من أنه يقتل إلا أن يتوب).

وقال أبو العباس الناصري: (وفي كتاب القضاء من نوازل الإمام البرزلي رحمه الله، أنَّ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه[٢] رضي الله عنهم، وهم ما هم، في استنصار ابن عباد الأندلسي[٣] بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين، فأجابه جلهم رضي الله عنهم بردته وكفره)[٤].

وقال ابن حزم: (وصح أنَّ قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين)[٥].

وقال أيضًا: (ولو أنَّ كافرًا مجاهدًا غلب على دار من دور الاسلام، وأقر المسلمين بها على حالهم إلا أنه هو المالك لها المنفرد بنفسه في ضبطها، وهو معلن بدين غير الإسلام لكفر بالبقاء معه كلُّ من عاونه وأقام معه، وإن ادعى أنه مسلم؛ لما ذكرنا. وأما من حملته الحمية من أهل الثغر من المسلمين فاستعان بالمشركين الحربيين وأطلق

(١) شرح مختصر خليل ٣/ ١١٩.
(٢) وهم من فقهاء المالكية.
(٣) وكان حاكماً لأشبيلية.
(٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى٥/ ٧٥.
(٥) المحلى١١/ ١٣٨.

أيديهم على قتل من خالفه من المسلمين أو على أخذ أموالهم أو سبيهم، فإن كانت يده هي الغالبة وكان الكفار له كأتباع فهو هالك في غاية الفسوق، ولا يكون بذلك كافرًا؛ لأنه لم يأت شيئًا أوجب به عليه كفرًا قرآن أو اجماع، وإن كان حكم الكفار جاريًا عليه فهو بذلك كافر على ما ذكرنا، فان كانا متساويين لا يجري حكم أحدهما على الآخر فما نراه بذلك كافرًا والله أعلم)[١].

وقال أيضًا: (فصح بهذا أنَّ من لحق بدار الكفر والحرب مختارًا محاربًا لمن يليه من المسلمين فهو بهذا الفعل مرتد، له أحكام المرتد كلها من وجوب القتل عليه، متى قدر عليه، ومن إباحة ماله، وانفساخ نكاحه، وغير ذلك؛ لأنَّ رسول الله ﷺ لم يبرأ من مسلم.

وأما من فرَّ إلى أرض الحرب لظلم خافه، ولم يحارب المسلمين، ولا أعانهم عليهم، ولم يجد في المسلمين من يجيره، فهذا لا شيء عليه؛ لأنه مضطر مكره، وقد ذكرنا أنَّ الزهري محمد بن مسلم بن شهاب كان عازمًا على أنه إن مات هشام بن عبد الملك لحق بأرض الروم؛ لأنَّ الوليد بن يزيد كان نذر دمه، إن قدر عليه، وهو كان الوالي بعد هشام، فمن كان هكذا فهو معذور.

وكذلك من سكن بأرض الهند والسند والصين والترك والسودان والروم من المسلمين، فإن كان لا يقدر على الخروج من هنالك لثقل ظهر أو لقلة مال أو لضعف

---

(١) المحلى ١١/ ٢٠٠-٢٠١.

جسم أو لامتناع طريق فهو معذور، فإن كان هنالك محاربًا للمسلمين معينًا للكفار بخدمة أو كتابة فهو كافر، وان كان إنما يقيم هنالك لدنيا يصيبها وهو كالذمي لهم، وهو قادر على اللحاق بجمهرة المسلمين وأرضهم، فما يبعد عن الكفر، وما نرى له عذرًا، ونسأل الله العافية.

وليس كذلك من سكن في طاعة أهل الكفر من الغالية ومن جرى مجراهم؛ لأنَّ أرض مصر والقيروان وغيرهما فالإسلام هو الظاهر، وولاتهم على كل ذلك لا يجاهرون بالبراءة من الاسلام، بل إلى الإسلام ينتمون، وان كانوا في حقيقة أمرهم كفارًا.

وأما من سكن في أرض القرامطة مختارًا فكافر بلا شك؛ لأنهم معلنون بالكفر وترك الاسلام ونعوذ بالله من ذلك.

وأما من سكن في بلد تظهر فيه بعض الأهواء المخرجة إلى الكفر فهو ليس بكافر؛ لأن اسم الاسلام هو الظاهر هنالك على كل حال من التوحيد، والاقرار برسالة محمد ﷺ، والبراءة من كل دين غير الاسلام، واقامة الصلاة، وصيام رمضان، وسائر الشرائع التي هي الاسلام والايمان والحمد لله رب العالمين)[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وكل من قفز إليهم[٢] من أمراء العسكر وغير الأمراء فحكمه حكمهم، وفيهم من الردة عن شرائع الإسلام بقدر ما ارتد عنه من

---

(١) المحلى ١١/ ١٩٩-٢٠٠.

(٢) يعني إلى التتار.

شرائع الإسلام. وإذا كان السلف قد سموا مانعي الزكاة مرتدين مع كونهم يصومون، ويصلون، ولم يكونوا يقاتلون جماعة المسلمين، فكيف بمن صار مع أعداء الله ورسوله قاتلاً للمسلمين؟!)[١].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (واعلموا: أنَّ الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله، أو صار مع المشركين على الموحدين ولو لم يشرك، أكثر من أن تحصر، من كلام الله، وكلام رسوله، وكلام أهل العلم كلهم)[٢].

وقال فقيه المغرب أبو الحسن التسولي المالكي: (وقد سئل الإمام سيدي أحمد بن زكري[٣]: عن قبائل من العرب امتزجت أمورهم مع النصارى، وصارت بينهم محبة، حتى أنَّ المسلمين إذا أرادوا الغزو، أخبر هؤلاء القبائل النصارى، فلا يجدهم المسلمون إلا متحذرين متهيبين، والفرض أنَّ المسلمين لا يتوصلون إلى الجهاد إلا من بلاد هؤلاء القبائل، وربما قاتلوا المسلمين مع النصارى.

ما حكم الله في دمائهم، وأموالهم؟ وهل ينفون من البلاد؟ وكيف إن أبوا من النفي إلا بالقتال؟

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٣٠-٣١.

(٢) الدرر السنية ١٠/ ٨-٩.

(٣) وهو: أحمد بن زكري، الفقيه، الأصولي، البياني، من أهل تلمسان، تتلمذ على يد العلامة «ابن زاغو»، من كتبه: «مسائل القضاء والفتيا»، و«بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب»، و«شرح الورقات» لإمام الحرمين في أصول الفقه. مات سنة ٨٩٩هـ. ينظر: شجرة النور لمخلوف ص٢٦٧، الأعلام للزركلي ١/ ٢٣١.

فأجاب- رحمه الله- بقوله ما نصه: (ما وصف به القوم المذكورون: يوجب قتالهم كالكفار الذين تولوهم، ومن يتول الكفار فهو منهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

وأما: إن لم يميلوا إلى الكفار، ولا تعصبوا بهم، ولا كانوا يخبرونهم بأمور المسلمين، ولا أظهروا شيئًا من ذلك، وإنما وجد منهم الامتناع من النفير فإنهم يقاتلون قتال الباغية)[١].

وقال الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [المائدة ٥١]: (أي: من جملتهم، وحكمه حكمهم، وإن زعم أنه مخالف لهم في الدين)[٢].

وسئل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ: عن الفرق بين الموالاة، والتولي؟

فأجاب: (التولي: كفر يخرج من الملة، وهو كالذب عنهم، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي. والموالاة: كبيرة من كبائر الذنوب، كَبَلِّ الدواة، أو بري القلم، أو التبشش

(١) أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر الجزائري في الجهاد ص ٢١٠.
(٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٤٠.

لهم، أو رفع السوط لهم)[١].

وفي منتصف القرن الرابع عشر اعتدى الفرنسيون والبريطانيون على المسلمين في مصر وغيرها، فأفتى الشيخ أحمد شاكر بكفر من أعان هؤلاء بأي إعانة[٢].

وفي هذا التاريخ أيضًا استولى اليهود على فلسطين، وأعانهم بعض المنتسبين للإسلام، فأفتت لجنة الفتوى بالأزهر برئاسة الشيخ عبد المجيد سليم عام ١٣٦٦ بكفر من أعانهم[٣].

وقال الشيخ حمد بن عتيق: (إنَّ مظاهرة المشركين، ودلالتهم على عورات المسلمين، أو الذب عنهم بلسان، أو رضي بما هم عليه، كل هذه مكفرات، فمن صدرت منه – من غير الإكراه المذكور – فهو مرتد، وإن كان مع ذلك يبغض الكفار ويحب المسلمين)[٤].

وسئل بعض علماء مصر عام ١٣٧٦هـ عن حكم مَن يعين دولة كافرة ضدَّ دولة مسلمة، فأفتى المسؤولون بأنه مرتد.

وممن أجاب من المشايخ : محمد أبو زهرة، وعبد العزيز عامر، ومصطفى زيد، ومحمد البنا. (مجلة لواء الإسلام) العدد العاشر – السنة العاشرة – جمادى الآخر ١٣٧٦ – ص ٦١٩.

---

(١) الدرر السنية ٨/ ٤٢٢.
(٢) كلمة حق ص١٢٦ وما بعدها.
(٣) ينظر: التبيان في كفر من أعان الأمريكان للشيخ ناصر الفهد ص٧٩.
(٤) الدفاع عن أهل السنة والاتباع ص٣١.

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز: (وقد أجمع علماء الإسلام على أنَّ من ظاهر الكفار على المسلمين، وساعدهم عليهم بأي نوع من المساعدة، فهو كافر مثلهم، كما قال الله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[المائدة:٥١])[1].

وقال الشيخ سفر الحوالي: (إنَّ نصرة الكفار على المسلمين - بأي نوع من أنواع النصرة أو المعاونة ولو كانت بالكلام المجرد - هي كفر بواح، ونفاق صراح، وفاعلها مرتكب لناقض من نواقض الإسلام - كما نص عليه أئمة الدعوة وغيرهم - غير مؤمن بعقيدة الولاء والبراء)[2].

وليس من شك أنَّ النصيريين أكفر من اليهود والنصارى، كما قرر أهل العلم.

ونصرة الكفار على المسلمين هو عقيدة رافضية قديمة، وتأمل فيما يقوله الإمام الجبل شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه، سننقله على طوله؛ لعظم نفعه، يقول رحمه الله: (والرافضة أشد بدعة من الخوارج، وهم يكفِّرون من لم تكن الخوارج تكفِّره كأبي بكر وعمر، ويكذبون على النبي ﷺ والصحابة كذبًا ما كذب أحد مثله، والخوارج لا يكذبون، لكنَّ الخوارج كانوا أصدق وأشجع منهم وأوفى بالعهد منهم،

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز ١/ ٢٦٩.

(٢) فتوى للشيخ الدكتور سفر الحوالي بتاريخ ٢٨/ ٧/ ١٤٢٢. وينظر: التبيان في كفر من أعان الامريكان للشيخ ناصر الفهد.

فكانوا أكثر قتالاً منهم، وهؤلاء أكذب وأجبن وأغدر وأذل، وهم يستعينون بالكفار على المسلمين، فقد رأينا ورأى المسلمون أنه إذا ابتُلي المسلمون بعدوٍّ كافر كانوا معه على المسلمين، كما جرى لجنكزخان ملك التتر الكفار، فإنَّ الرافضة أعانته على المسلمين، وأما إعانتهم لهولاكو ابن ابنه لما جاء إلى خراسان والعراق والشام فهذا أظهر وأشهر من أن يخفى على أحد، فكانوا بالعراق وخراسان من أعظم أنصاره ظاهرًا وباطنًا، وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له ابن العلقمي منهم، فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين، ويسعى في قطع أرزاق عسكر المسلمين وضعفهم، وينهى العامة عن قتالهم[1]، ويكيد أنواعًا من الكيد حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال إنه بضعة عشر ألف ألف إنسان أو أكثر أو أقل، ولم يُر في الإسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر، وقتلوا الهاشميين، وسبوا نساءهم من العباسيين وغير العباسيين، فهل يكون مواليًا لآل رسول الله ﷺ من يسلِّط الكفار على قتلهم وسبيهم وعلى سائر المسلمين، وهم يكذبون على الحَجَّاج وغيره أنه قتل الأشراف، ولم يقتل الحَجَّاج هاشميًا مع ظلمه وغشمه، فإنَّ عبد الملك نهاه عن ذلك، وإنما قتل ناسًا من أشراف العرب غير بني هاشم، وقد تزوج هاشمية وهي بنت عبد الله بن جعفر فما مكنه بنو أمية من ذلك، وفرقوا بينه وبينها، وقالوا ليس الحجاج كفوًا لشريفة هاشمية، وكذلك من كان بالشام من الرافضة الذين لهم كلمة أو سلاح يعينون الكفار من

(١) كما فعل الزنديق السيستاني عندما دخل الصليبيون بلاد الرافدين.

المشركين ومن النصارى أهل الكتاب على المسلمين على قتلهم وسبيهم وأخذ أموالهم، والخوارج ما عملت من هذا شيئًا، بل كانوا هم يقاتلون الناس، لكن ما كانوا يسلِّطون الكفار من المشركين وأهل الكتاب على المسلمين)[(١)].

وقال أيضًا: (أصل كل فتنة وبلية هم الشيعة ومن انضوى إليهم، وكثير من السيوف التي سُلَّت في الإسلام إنما كانت من جهتهم، وعلم أنَّ أصلهم ومادتهم منافقون اختلقوا أكاذيب وابتدعوا آراء فاسدة؛ ليفسدوا بها دين الإسلام، ويستزلوا بها من ليس من أولي الأحلام، فسعوا في قتل عثمان، وهو أول الفتن، ثم انزووا إلى علي لا حبًّا فيه ولا في أهل البيت، لكن ليقيموا سوق الفتنة بين المسلمين، ثم هؤلاء الذين سعوا معه منهم مَن كفَّره بعد ذلك وقاتله كما فعلت الخوارج، وسيفهم أول سيف سُلَّ على الجماعة، ومنهم من أظهر الطعن على الخلفاء الثلاثة كما فعلت الرافضة، وبهم تسترت الزنادقة كالغالية من النصيرية وغيرهم ومن القرامطة الباطنية والإسماعيلية وغيرهم، فهم منشأ كل فتنة، والصحابة رضي الله عنهم منشأ كل علم وصلاح وهدى ورحمة في الإسلام، ولهذا تجد الشيعة ينتصرون لأعداء الإسلام المرتدين كبني حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب، ويقولون إنهم كانوا مظلومين كما ذكر صاحب هذا الكتاب[(٢)]، وينتصرون لأبي لؤلؤة الكافر المجوسي، ومنهم من يقول اللهم ارض عن أبي لؤلؤة

---

(١) منهاج السنة ٥/ ١٥٤-١٥٦.

(٢) أي: مؤلف كتاب منهاج الكرامة، المطهر الحلي الرافضي.

واحشرني معه، ومنهم من يقول في بعض ما يفعله من محاربتهم وا ثارات أبي لؤلؤة، كما يفعلونه في الصورة التي يقدرون فيها صورة عمر من الجبس أو غيره، وأبو لؤلؤة كافر باتفاق أهل الإسلام، كان مجوسيًا من عباد النيران، وكان مملوكًا للمغيرة بن شعبة، وكان يصنع الأرحاء، وعليه خراج للمغيرة، كل يوم أربعة دراهم، وكان قد رأى ما عمله المسلمون بأهل الذمة، وإذا رأى سبيهم يقدم إلى المدينة يبقى في نفسه من ذلك، وقد روي أنه طلب من عمر أن يكلم مولاه في خراجه، فتوقف عمر وكان من نيته أن يكلمه، فقتل عمرَ بغضًا في الإسلام وأهله، وحبًّا للمجوس، وانتقامًا للكفار؛ لما فعل بهم عمر حين فتح بلادهم، وقتل رؤساءهم وقسم أموالهم، كما أخبر النبي ﷺ عن ذلك في الحديث الصحيح حيث يقول: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقنَّ كنوزهما في سبيل الله»[1]. وعمر هو الذي أنفق كنوزهما، وهذا الحديث الصحيح مما يدل على صحة خلافته، وأنه كان ينفق هذين الكنزين في سبيل الله، الذي هو طاعته وطاعة رسوله، وما يقرِّب إلى الله، لم ينفق الأموال في أهواء النفوس المباحة فضلاً عن المحرمة، فهل ينتصر لأبي لؤلؤة مع هذا إلا من هو أعظم الناس كفرًا بالله ورسوله، وبغضًا في الإسلام، ومفرِّط في الجهل لا

(١) أخرجه عن أبي هريرة مرفوعًا: البخاري (٣١٢٠) و(٣٦١٨) و(٦٦٣٠)، ومسلم (٢٩١٨) (٧٦)، وأحمد ٢/ ٢٣٣ و٢٤٠ و٢٥٦ و٢٧١ و٣١٣ و٤١٦ و٤٣٧ و٤٦٧ و٤٧٦ و٥٠١. وأخرجه عن جابر بن سمرة مرفوعًا: البخاري (٣١٢١) و(٣٦١٩)، ومسلم (٢٩١٩) (٧٧)، وأحمد ٥/ ٩٢.

يعرف حال أبي لؤلؤة، ودع ما يسمع وينقل عمن خلا، فلينظر كل عاقل فيما يحدث في زمانه وما يقرب من زمانه من الفتن والشرور والفساد في الإسلام فإنه يجد معظم ذلك من قبل الرافضة، وتجدهم من أعظم الناس فتنًا وشرًا، وأنهم لا يقعدون عما يمكنهم من الفتن والشر وإيقاع الفساد بين الأمة، ونحن نعرف بالعيان والتواتر العام وما كان في زماننا من حين خرج جنكزخان ملك الترك الكفار وما جرى في الإسلام من الشر، فلا يشك عاقل أنَّ استيلاء الكفار المشركين الذين لا يقرون بالشهادتين ولا بغيرها من المباني الخمس ولا يصومون شهر رمضان ولا يحجون البيت العتيق ولا يؤمنون بالله ولا بملائكته ولا بكتبه ورسله واليوم الآخر، وأعلم من فيهم وأدين مشرك يعبد الكواكب والأوثان وغايته أن يكون ساحرًا أو كاهنًا له رئي من الجن، وفيهم من الشرك والفواحش ما هم به شر من الكهان الذين يكونون في العرب، فلا يشك عاقل أنَّ استيلاء مثل هؤلاء على بلاد الإسلام وعلى أقارب رسول الله ﷺ من بني هاشم كذرية العباس وغيرهم بالقتل وسفك الدماء وسبي النساء واستحلال فروجهن وسبي الصبيان واستعبادهم، وإخراجهم عن دين الله إلى الكفر، وقتل أهل العلم والدين من أهل القرآن والصلاة، وتعظيم بيوت الأصنام التي يسمونها البذخانات والبيع والكنائس على المساجد، ورفع المشركين وأهل الكتاب من النصارى وغيرهم على المسلمين، بحيث يكون المشركون وأهل الكتاب أعظم عزًا وأنفذ كلمة وأكثر حرمة من المسلمين، إلى أمثال ذلك مما لا يشك عاقل أنَّ هذا أضر على المسلمين من

قتال بعضهم بعضًا، وأنَّ رسول الله ﷺ إذا رأى ما جرى على أمته من هذا كان كراهته له وغضبه منه أعظم من كراهته لاثنين مسلمين تقاتلا على الملك ولم يسب أحدهما حريم الآخر، ولا نفع كافرًا، ولا أبطل شيئًا من شرائع الإسلام المتواترة وشعائره الظاهرة، ثم مع هذا الرافضة يعاونون أولئك الكفار وينصرونهم على المسلمين، كما قد شاهده الناس لما دخل هولاكو ملك الكفار الترك الشام[١] سنة ثمان وخمسين وستمائة، فإنَّ الرافضة الذين كانوا بالشام بالمدائن والعواصم من أهل حلب وما حولها ومن أهل دمشق وما حولها وغيرهم كانوا من أعظم الناس أنصارًا وأعوانًا على إقامة ملكه وتنفيذ أمره في زوال ملك المسلمين، وهكذا يعرف الناس عامة وخاصة ما كان بالعراق لما قدم هولاكو إلى العراق، وقتل الخليفة وسفك فيها من الدماء مالا يحصيه إلا الله، فكان وزير الخليفة ابن العلقمي والرافضة هم بطانته الذين أعانوه على ذلك بأنواع كثيرة باطنة وظاهرة يطول وصفها، وهكذا ذكر أنهم كانوا مع جنكزخان، وقد رآهم المسلمون بسواحل الشام وغيرها إذا اقتتل المسلمون والنصارى هواهم مع النصارى، ينصرونهم بحسب الإمكان، ويكرهون فتح مدائنهم كما كرهوا فتح عكا وغيرها، ويختارون إدالتهم على المسلمين حتى أنهم لما انكسر عسكر المسلمين سنة غازان سنة تسع وتسعين وخمسمائة، وخلت الشام من جيش المسلمين عاثوا في البلاد، وسعوا في أنواع من الفساد من القتل، وأخذ الأموال، وحمل راية الصليب، وتفضيل

---

(١) وكما قد شاهده الناس لما دخل الصليبيون العراق.

النصارى على المسلمين، وحمل السبي والأموال والسلاح من المسلمين إلى النصارى أهل الحرب بقبرس وغيرها، فهذا وأمثاله قد عاينه الناس وتواتر عند من لم يعاينه، ولو ذكرت أنا ما سمعته ورأيته من آثار ذلك لطال الكتاب، وعند غيري من أخبار ذلك وتفاصيله مالا أعلمه، فهذا أمر مشهود من معاونتهم للكفار على المسلمين، ومن اختيارهم لظهور الكفر وأهله على الإسلام وأهله، ولو قدر أنَّ المسلمين ظلمة فسقة ومظهرون لأنواع من البدع التي هي أعظم من سب علي وعثمان لكان العاقل ينظر في خير الخيرين وشر الشرين، ألا ترى أنَّ أهل السنة وإن كانوا يقولون في الخوارج والروافض وغيرهما من أهل البدع ما يقولون لكن لا يعاونون الكفار على دينهم، ولا يختارون ظهور الكفر وأهله على ظهور بدعة دون ذلك، والرافضة إذا تمكنوا لا يتَّقون، وانظر ما حصل لهم في دولة السلطان خدابندا الذي صنف له هذا الكتاب، كيف ظهر فيهم من الشر الذي لو دام وقوي أبطلوا به عامة شرائع الإسلام، لكن يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)[1].

وقال أيضًا: (ولهذا الرافضة يوالون أعداء الدين الذين يعرف كلُّ أحد معاداتهم من اليهود والنصارى والمشركين مشركي الترك، ويعادون أولياء الله الذين هم خيار أهل الدين وسادات المتقين، وهم الذين أقاموه وبلغوه ونصروه، ولهذا كان الرافضة من أعظم الأسباب في دخول الترك الكفار إلى بلاد الإسلام، وأما قصة الوزير ابن

(١) منهاج السنة ٦/ ٣٧٠-٣٧٥.

العلقمي وغيره كالنصير الطوسي مع الكفار وممالأتهم على المسلمين فقد عرفها الخاصة والعامة، وكذلك من كان منهم بالشام ظاهروا المشركين على المسلمين وعاونوهم معاونة عرفها الناس، وكذلك لما انكسر عسكر المسلمين لما قدم غازان ظاهروا الكفار النصارى وغيرهم من أعداء المسلمين، وباعوهم أولاد المسلمين بيع العبيد وأموالهم، وحاربوا المسلمين محاربة ظاهرة، وحمل بعضهم راية الصليب، وهم كانوا من أعظم الأسباب في استيلاء النصارى قديمًا على بيت المقدس حتى استنقذه المسلمون منهم، وقد دخل فيهم أعظم الناس نفاقًا من النصيرية والإسماعيلية ونحوهم ممن هو أعظم كفرًا في الباطن ومعاداة لله ورسوله من اليهود والنصارى، فهذه الأمور وأمثالها مما هي ظاهرة مشهورة يعرفها الخاصة والعامة توجب ظهور مباينتهم للمسلمين ومفارقتهم للدين ودخولهم في زمرة الكفار والمنافقين، حتى يعدهم من رأى أحوالهم جنسًا آخر غير جنس المسلمين، فإنَّ المسلمين الذين يقيمون دين الإسلام في الشرق والغرب قديمًا وحديثًا هم الجمهور، والرافضة ليس لهم سعي إلا في هدم الإسلام ونقض عراه وإفساد قواعده، والقدر الذي عندهم من الإسلام إنما قام بسبب قيام الجمهور به)[1].

وقال أيضًا: (ومذهب الرافضة شر من مذهب الخوارج المارقين؛ فإنَّ الخوارج غايتهم تكفير عثمان وعلي وشيعتهما. والرافضة تكفير أبي بكر وعمر وعثمان وجمهور السابقين الأولين، وتجحد من سنة رسول الله ﷺ أعظم مما جحد به الخوارج، وفيهم

(١) منهاج السنة ٧/ ٤١٤.

من الكذب والافتراء والغلو والإلحاد ما ليس فى الخوارج، وفيهم من معاونة الكفار على المسلمين ما ليس فى الخوارج، والرافضة تحب التتار ودولتهم؛ لأنه يحصل لهم بها من العز ما لا يحصل بدولة المسلمين، والرافضة هم معاونون للمشركين واليهود والنصارى على قتال المسلمين، وهم كانوا من أعظم الأسباب في دخول التتار قبل إسلامهم إلى أرض المشرق بخراسان والعراق والشام، وكانوا من أعظم الناس معاونة لهم على أخذهم لبلاد الإسلام وقتل المسلمين وسبي حريمهم، وقضية ابن العلقمي وأمثاله مع الخليفة، وقضيتهم في حلب مع صاحب حلب مشهورة يعرفها عموم الناس، وكذلك في الحروب التي بين المسلمين وبين النصارى بسواحل الشام، قد عرف أهل الخبرة أنَّ الرافضة تكون مع النصارى على المسلمين، وأنهم عاونوهم على أخذ البلاد لما جاء التتار، وعزَّ على الرافضة فتح عكة وغيرها من السواحل، وإذا غلب المسلمون النصارى والمشركين كان ذلك غصة عند الرافضة، وإذا غلب المشركون والنصارى المسلمين كان ذلك عيدًا ومسرة عند الرافضة.

ودخل في الرافضة أهل الزندقة والإلحاد من النصيرية والإسماعيلية وأمثالهم من الملاحدة القرامطة وغيرهم ممن كان بخراسان والعراق والشام وغير ذلك، والرافضة جهمية قدرية، وفيهم من الكذب والبدع والافتراء على الله ورسوله أعظم مما فى الخوارج المارقين الذين قاتلهم أمير المؤمنين علي وسائر الصحابة بأمر رسول الله ﷺ، بل فيهم من الردة عن شرائع الدين أعظم مما في مانعي الزكاة الذين قاتلهم أبو بكر

الصديق والصحابة.

ومن أعظم ما ذم به النبي ﷺ الخوارج قوله فيهم: «يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعُون أهل الأوثان»، كما أخرجا فى الصحيحين، عن أبى سعيد، قال : بعث علي إلى النبي ﷺ بذهيبة، فقسمها بين أربعة، يعنى من أمراء نجد، فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال ﷺ: «إنما أتألفهم». فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية، محلوق، فقال: يا محمد، اتق الله. فقال ﷺ: «من يطع الله إذا عصيته، أيأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني؟». فسأله رجل قَتْلَه فمنعه. فلما ولى قال ﷺ: «إنَّ من ضئضئ هذا -أو في عقب هذا- قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام، ويَدَعُون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»... فهؤلاء الخوارج المارقون من أعظم ما ذمهم به النبي ﷺ: أنهم يقتلون أهل الإسلام ويَدَعُون أهل الأوثان، وذكر أنهم يخرجون على حين فرقة من الناس، والخوارج مع هذا لم يكونوا يعاونون الكفار على قتال المسلمين، والرافضة يعاونون الكفار على قتال المسلمين، فلم يكفهم أنهم لا يقاتلون الكفار مع المسلمين حتى قاتلوا المسلمين مع الكفار، فكانوا أعظم مروقًا عن الدين من أولئك المارقين بكثير، كثير.

وقد أجمع المسلمون على وجوب قتال الخوارج والروافض ونحوهم إذا فارقوا

جماعة المسلمين)[١].

ويقول أيضًا: (فالرافضة يوالون من حارب أهل السنة والجماعة، ويوالون التتار، ويوالون النصارى، وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة حتى صارت الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم وغلمان السلطان وغيرهم من الجند والصبيان، وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا المآتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور، وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة، وقتل أهل بغداد[٢]، ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر على المسلمين وكاتب التتار حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهى الناس عن قتالهم، وقد عرف العارفون بالإسلام أنَّ الرافضة تميل مع أعداء الدين، ولما كانوا ملوك القاهرة كان وزيرهم مرة يهوديًا ومرة نصرانيًا أرمينيًا، وقويت النصارى بسبب ذلك النصراني الأرميني، وبنوا كنائس كثيرة بأرض مصر في دولة أولئك الرافضة المنافقين، وكانوا ينادون بين القصرين: من لعن وسب فله دينار وإردب. وفي أيامهم أخذت النصارى ساحلَ الشام من المسلمين حتى فتحه نور الدين وصلاح الدين، وفي أيامهم جاءت الفرنج إلى بلبيس وغلبوا من الفرنج، فإنهم منافقون وأعانهم

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٢٧.

(٢) والتاريخ يعيد نفسه، فهم -عليهم من الله ما يستحقون- مَن أشاروا على الأمريكيين بقتل أهل بغداد والعراق.

النصارى، واللهُ لا ينصر المنافقين الذين هم يوالون النصارى، فبعثوا إلى نور الدين يطلبون النجدة فأمدهم بأسد الدين وابن أخيه صلاح الدين، فلما جاءت الغزاة المجاهدون إلى ديار مصر قامت الرافضة مع النصارى، فطلبوا قتال الغزاة المجاهدين المسلمين، وجرت فصول يعرفها الناس حتى قَتل صلاحُ الدين مقدمهم شاور، ومن حينئذ ظهرت بهذه البلاد كلمة الإسلام والسنة والجماعة، وصار يقرأ فيها أحاديث رسول الله ﷺ كالبخاري ومسلم ونحو ذلك، ويذكر فيها مذاهب الأئمة، ويترضى فيها عن الخلفاء الراشدين، وإلا كانوا قبل ذلك من شر الخلق، فيهم قوم يعبدون الكواكب ويرصدونها، وفيهم قوم زنادقة دهرية لا يؤمنون بالآخرة ولا جنة ولا نار ولا يعتقدون وجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج، وخير من كان فيهم الرافضة، والرافضة شر الطوائف المنتسبين إلى القبلة)[1]. وبعد هذه النصوص في حال مَن أعان الكفار على المجاهدين، وحال الرافضة الذين يعينون الكفار على أهل السنة، أقول:

يا أيها المداهنون! ومن على شاكلتهم: دعوا كلامنا كلَّه، واقرؤوا كلام الله...

فقد قمت بعمل استقراء سريع للآيات التي نزلت في المنافقين فوجدتها تزيد على مئتين وأربعين آية من كتاب الله عزَّ وجلَّ[2]، فكم من آية أصابتكم؟!

لعل ما يصعب عليكم في هذه المقارنة! هو إيجاد الفروقات! لا إيجاد الشبه ما بين

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٦٣٨.

(٢) دراسة قرآنية في النفاق وأثره للدكتور عادل بن علي الشدي (ص٩).

موقفكم وموقف المنافقين الأوائل!

ألا تخشون أن يُلْحقكم الله بحكم المنافقين الأوائل في الدار الآخرة...

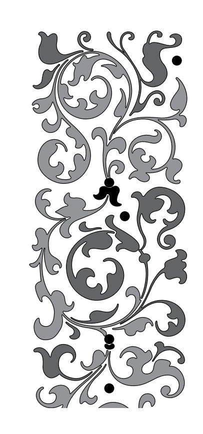
وإن صعب عليكم فهم الآيات من القرآن مباشرة فاقرؤوا تفسير سيد قطب رحمه الله، فقد عاش في ظلال القرآن حقيقة.

وليتأمل كلُّ مَن تهمه آخرته بقول نفيس ومهم جدًّا لشيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه، يقول رحمه الله: (فالزناةُ واللوطيةُ، وتاركُ الجهاد، وأهلُ البدع، وَشَرَبَةُ الخمر، هؤلاء كلُّهم ومخالطتهم مضرَّة على دين الإسلام)[١].

فانظر -رحمك الله- كيف جمع شيخ الإسلام بين مجرمي فاحشة قوم لوط وبين تاركي الجهاد؛ لتعرف دناءة منزلة تارك الجهاد، وإذا كان هذا حال تارك الجهاد، فكيف بمن يدعو إلى ترك الجهاد؟! لا شك أنَّ الثاني أخطر من الأول بكثير.



(١) مجموع الفتاوى ١٥/ ٣١٢.



العهد التاسع
اتباع السنَّة في ساعة العسرة

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٧].

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابةَ إلى أمره وطاعته نبيَّه محمدًا ﷺ والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله الذين اتبعوا رسولَ الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء، ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾، يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾، يقول: ثم رزقهم جلَّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم، ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، يقول: إنَّ ربكم بالذين خالط قلوبهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة

والمشقة رؤوف بهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ أن يهلكهم، فينـزع منهم الإيمان، بعدما قد أبلوا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء)[١].

وقال القرطبي: (﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، أي: في وقت العسرة، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة، ولم يرد ساعة بعينها. وقيل: ساعة العسرة أشدُّ الساعات التي مرَّت بهم في تلك الغزاة. والعسرة صعوبة الأمر. قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء. قال الحسن: كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس والشعير المتغير والإهالة[٢] المنتنة، وكان النفر يخرجون ما معهم- إلا التمرات- بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم، فلا يبقى من التمرة إلا النواة، فمضوا مع النبي ﷺ على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم. وقال عمر رضي الله عنه وقد سُئل عن ساعة العسرة: خرجنا في قيظ شديد، فنـزلنا منـزلاً أصابنا فيه عطش شديد، حتى ظننا أنَّ رقابنا ستنقطع من العطش، وحتى أنَّ الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه[٣] فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبوبكر: يارسول الله، إنَّ الله قد عوَّدك في الدعاء خيرًا،

(١) جامع البيان ١٤/ ٥٣٩.
(٢) الإهالة: الشحم.
(٣) الفرث: السرجين (الزبل) مادام في الكرش.

فادع لنا. قال: (أتحب ذلك؟)، قال: نعم. فرفع يديه فلم يرجعها حتى أظلَّت السماء ثم سكبت فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[١]. وروى أبو هريرة وأبو سعيد، قالا: كنا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فأصاب الناسَ مجاعة وقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[٢] فأكلنا وادهنَّا. فقال رسول الله ﷺ: (افعلوا). فجاء عمر، وقال: يا رسول الله، إن فعلوا قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة. قال: (نعم). ثم دعا بنطع[٣] فبسط، ثم دعا لفضل الأزواد، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. قال أبو هريرة: فحزرته فإذا هو قدر ربضة العنز، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: (خذوا في أوعيتكم)، فأخذوا في أوعيتهم حتى- والذي لا اله إلا هو- ما بقي في العسكر

---

(١) أخرجه البزار (١٨٤١)، وابن خزيمة (١٠١)، وابن حبان (١٣٨٣)، والحاكم ١/ ١٥٩، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٩٧٩). قال شعيب: إسناده صحيح على شرط مسلم. وقال الألباني في تحقيقه لـ«فقه السيرة»: حسن أو صحيح. ثم ضعفه في «ضعيف الموارد» بسعيد بن أبي هلال، فقد اختار فيه ما قاله أحمد بأنه يخلط. وسعيد هذا روى له الشيخان في صحيحيهما، وقال عنه الذهبي في «الميزان»: ثقة معروف حديثه في الكتب الستة. وقد نقل ابن حجر في «التهذيب» توثيقه عن ابن سعد والعجلي وابن خزيمة والدار قطني والبيهقي والخطيب وابن عبد البر وغيرهم، وقال ابن أبي حاتم: لا بأس به. وقال في «التقريب»: صدوق. وهذا الحديث ذكره الهيثمي في «المجمع» وعزاه للبزار والطبراني في «الأوسط»، وقال: ورجال البزار ثقات.

(٢) الناضح: البعير يستقى عليه ثم استعمل في كل بعير وإن لم يحمل الماء.

(٣) النطع: بساط من الأديم.

وعاء إلا ملؤوه، وأكل القوم حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال النبيُّ ﷺ: (أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة). خرَّجه مسلم في صحيحه بلفظه ومعناه[١]، والحمد لله)[٢].

وقال البغوي عند قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ﴾: (والزيغ الميل... ولم يُرِد الميلَ عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلُّف والانصراف للشدة التي عليهم. قال الكلبي: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ﴾، همَّ ناسٌ بالتخلف ثم لحقوه)[٣].

وقال ابن كثير: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنۡهُمۡ﴾، أي: عن الحق، ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه)[٤].

وقال أبو حيان: (وكاد تدل على القرب لا على التلبس بالزيغ)[٥].

وقال الآلوسي: (﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ﴾، بيان لتناهي الشدة وبلوغها الغاية القصوى، وهو إشرافُ بعضِهم إلى أن يميلوا إلى التخلُّف عن النبي ﷺ)[٦].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧) (٤٥)، وأحمد ٣/ ١١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٧٨.
(٣) معالم التنـزيل ٤/ ١٠٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٢٩.
(٥) البحر المحيط ٥/ ١١١.
(٦) روح المعاني ١١/ ٤٠.

الوصايا

الوصية الأولى: حرص المجاهدين على السنَّة

حين بيَّن الله جلَّ جلاله أنه ﴿ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾، أشار للسبب، وهو اتِّباعه عليه الصلاة والسلام، كما بيَّن أنَّ ذلك الاتباع كان في ساعة العسرة، فسبب التوبة عليهم اتضح، وهي تعمُّ جميعَ من يتبع أمر النبي عليه الصلاة والسلام في ساعة العسرة، سواءً في غزوة العسرة أو ما بعدها، إلى يوم القيامة، فإنَّ من المقطوع به أنَّ اتِّباعه عليه الصلاة والسلام في ساعة العسرة له خصوصية عظيمة، فليهنأ أهل الميدان بكل عسرة تصيبهم وهم على اتِّباع رسول الله عليه صلوات الله وسلامه قائمون، ولسنته ملازمون، ولهم فيما قال الله نصيب مادامو متبعين لرسول الله ﷺ في حياته ولسنته بعد مماته: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

فساعة العسرة لم تكن سببًا لتخفيف الاتِّباع، والتحلل من السنة، وإنما لمزيد الاتِّباع والتمسك بسنته ﷺ لأجل الله وحده، ثم لأجل تحقيق النصر سريعًا، فلنعلن اتِّباعه ولنبرأ من الابتداع.

ولا أحسب أحدًا يخالف في هذا... كيف والأحاديث في هذا قطعية الثبوت والدلالة؟!

وبما أنَّ اتِّباع السنة من أعظم أسباب الانتصار على أعداء الله ورسوله ﷺ، فإنَّ من أعظم أسباب الهزائم الابتداع، وحريٌّ بمجاهد خالف كلَّ نداءات الهوى والدنيا أن يجعل مخالفته تلك التزامًا بسنة النبي ﷺ.

أفنتبعه في بيع أرواحنا رخيصة في الجهاد على طريقته، ويصعب علينا اتباعه في أمور العبادات؟!

من يدري لعل ممن جاهدوا في سبيل الله رجال يطردهم النبي ﷺ عن حوضه؛ لأنهم غيَّروا وبدَّلوا حيث تقول الملائكة عنهم: (إنك لا تدري ما عملوا بعدك)، فيقول ﷺ كما في حديث سهل: (سحقًا سحقًا لمن بدَّل بعدي)[1].

أيها المجاهدون العابدون على طريقة التصوف القريبة من السنة: إنَّ ادعاءكم شدة محبة النبي ﷺ يقتضي اتِّباعه صلوات ربي وسلامه عليه، وربُّ العالمين قد اشترط

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٣) و(٦٥٨٤) و(٧٠٥٠) و(٧٠٥١)، ومسلم (٢٢٩٠) (٢٦) و(٢٢٩١) (٢٦)، وأحمد ٣/ ٢٨، ٥/ ٣٣٣ و٣٣٩.

لمحبته اتِّباع رسوله ﷺ، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١]. فبرهِنوا على محبتكم الصادقة لله ولرسوله ﷺ باتِّباعه.

لعلكم- أيها المتصوفون المجاهدون- من أعظم الناس اشتياقًا للقائه ﷺ، فهل يظن أحد أنه ﷺ سيفرح به إذا كان على غير سنته، وإذا ابتدع عليها؟!

أيها المجاهد الصوفي: إذا اختلفتُ معك في أمر من أمور العبادة فقلت لك: إنه بدعة. وأنت قلت لي: إنه ليس ببدعة، وقررنا أن نحتكم لعالم كبير من علمائنا، واتفقنا على الرضا بحكمه، فَحَكَم على أنها بدعة، فهل تتركها؟

إذن فهل ترضى أن نحتكم إلى رسول الله ﷺ؛ ليحكم هو في عباداتنا، وطرقنا التعبدية؟

فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد). وفي رواية أنه قال: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)(١). وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (... ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) (١٧)، وأحمد ٦/ ٧٣ و١٨٠ و٢٤٠ و٢٧٠، وأبو داود (٤٦٠٦)، وابن ماجه (١٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) (١٦)، وأحمد ٢/ ٣٩٧، وأبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٤)، وابن ماجه (٢٠٦).

قال مالك: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمدًا خان الرسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾. فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا)[1].

ولا يزال السلف يحذِّرون من البدع وأهلها، فعن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: (وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾[الأنعام: ١٥٩].

قال ابن عطية: (هذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد)[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[الأنعام: ١٥٣].

قال الشاطبي: (والسبل هي أهل البدع، ليس المراد سبل المعاصي؛ لأنَّ المعاصي من حيث هي معاصٍ لم يضعها أحدٌ طريقًا تُسلك دائمًا على مضاهاة

---

(١) الاعتصام ١/ ٤٩.

(٢) أخرجه مسلم (٨٦٧) (٤٣) و(٤٤) و(٤٥)، وأحمد ٣/ ٣١٠ و٣١٩ و٣٧١، وابن ماجه (٤٥)، والنسائي ٣/ ١٨٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢/ ٣٦٤.

التشريع، وإنما هذا الوصف خاص بالبدع المحدثات)[١].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، (السبل: البدع والشبهات)[٢].

والرادُّ على المبتدعة مجاهد في سبيل الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالراد على أهل البدع مجاهد... والنصح واجب في المصالح الدينية الخاصة والعامة، ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإنَّ بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟، فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل[٣]. فبيَّنَ: أنَّ نفع هذا عام للمسلمين من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفعه بغيَ هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجبٌ على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فسادهم أعظم من فساد استيلاء

---

(١) الاعتصام ١/ ٥٧.

(٢) نفس المصدر ١/ ٥٨.

(٣) ومن البدع الخطيرة في هذا الزمان، والتي كانت سنة شيخ المنافقين الأوائل ابن أبيّ ابن سلول، هي الصدُّ عن الجهاد وقتال أعداء الله، وقد لبس هذا النفاقَ اليوم بعضُ من ينتسب إلى العلم، إما جبنًا وهلعًا وإما دياثة وإرضاء للطواغيت الذين لا يحكِّمون شرع الله ويوالون الصليبيين أو المجوس والنصيريين. ومصيبة هؤلاء المنافقين أنهم جمعوا بين كبيرتين عظيمتين: ترك الجهاد، وصدُّ الناس عنه، والثانية أخطر من الأولى بكثير. ولا شك أنَّ الردَّ على شبهات هؤلاء المنافقين الجبناء جهادٌ أفضل من نوافل العبادات.

العدو من أهل الحرب؛ فإنَّ هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً)[1].

لكنَّ هذا شيء وتفريق جماعة المسلمين بحجة وجود أصحاب بدعة فيها شيء آخر...!

فلا ينبغي أن نُكبِّر البدعة- إن لم تكن كبيرة- حتى تكون سببًا للافتراق؛ بل الواجب أن يكون ما بيننا وبين هؤلاء الأخوة المجاهدين ممن يفعلون بعض البدع- غير المكفِّرة- سببًا لأداء حقوق كثيرة، من أعظمها النصح لتصحيح المعتقد واتباع السنة...

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومما ينبغي أن يعرف أنَّ الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات: منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة، ومنهم من يكون قد ردَّ على غيره من الطوائف الذين هم أبعد من السنة منه، فيكون محمودًا فيما ردَّه من الباطل وما قاله من الحق، لكن قد جاوز العدل في ردِّه بحيث جحد بعض الحق، وقال بعض الباطل، فيكون قد ردَّ بدعة كبيرة ببدعة أخف منها، ورد باطلاً بباطل أخف منه، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة، ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه ويعادون، كان من

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٢٣١.

نوع الخطأ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك)[١].

ولكن لا ينبغي الاستعجال بإطلاق لفظ المبتدع على كل جماعة أو أخ عنده بدعة معينة، ففاعل البدعة ليس بالضرورة أن يكون مبتدعًا كما قرر شيخ الإسلام[٢]، كيف إذا تجرأ البعض على تكفير من يفعلون بعض البدع -غير المكفرة- من المجاهدين في سبيل الله.

ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين يشدِّد في قضية من يُكفِّر المسلمين أو يستحل دماءهم بغير حق، فيقول: (من كفَّر المسلمين أو استحلَّ دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعها ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، فإنه يجب نهيه عن ذلك وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال؛ فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف، وأُكرم المتقون من جميع الطوائف، كان ذلك من أعظم الأسباب التي ترضي الله ورسوله وتصلح أمر المسلمين)[٣].

الوصية الثانية: لا تعظِّموا الزيغ

قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٣٤٨.
(٢) انظر كتاب: أصول الحكم على المبتدعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، د. أحمد الحليبي.
(٣) مجموع الفتاوى ٣/ ٤٢٣.

بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١١٧].

من هذه الآية نستخلص حقيقةً هي من الأهمية بمكان، تلك هي أن لا نعظِّم الزيغ، فضلاً أن نشمت بمن كاد يزيغ (وهذا إذا فسَّرنا الزيغَ بتفسير البغوي)، فأيُّ معصوم أو جماعة معصومة هذه التي تزكي أصحابها عن ذلك الزيغ بعدما ذكر الله ذلك عن خير أصحاب لخير صاحب ﷺ، ورضي الله عنهم.

ولا يخفى أنَّ الشماتة بالمسلمين محرمة، والمؤمن أكبر من أن يجعل الخصومة الكلامية بينه وبين أخيه حرب سجال.

فعن أبي جُرَيٍّ، جابر بن سليم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وأن تكلِّم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، إنَّ ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المَخِيْلَة، وإنَّ الله لا يحب المَخِيْلَة، وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك، فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه)[1].

الوصية الثالثة: سرعة الأوبة بعد الزيغ

(١) أخرجه الطيالسي (١٢٠٨)، وأحمد ٥/ ٦٣ و٦٤، والبخاري في «الأدب المفرد» (١١٨٢)، وأبو داود و(٤٠٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (٩٦٩١) و(٩٦٩٢) و(٩٦٩٣) و(٩٦٩٤) و(٩٦٩٦)، والطبراني (٦٣٨٣) و(٦٣٨٤) و(٦٣٨٥) و(٦٣٨٦) و(٦٣٨٨)، وابن حبان (٥٢١) و(٥٢٢). وصححه الألباني وشعيب وعبد القادر.

قال ابن اسحاق: ثم إنَّ أبا خيثمة رجع بعد ما سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه، قد رشَّت كلُّ واحدة منهما عريشها، وبردت فيه ماءً، وهيَّأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيِّئا زادًا. ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وكان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير ابن وهب: إنَّ لي ذنبًا فلا عليك أن تخلَّف عني حتى آتي رسول الله ﷺ. ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا خيثمة). فقالوا يا رسول الله: هو والله أبو خيثمة. فلما بلغ أقبل فسلَّم على رسول الله ﷺ فقال له: (أولى لك يا أبا خيثمة)، ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال خيرًا ودعا له بخير، وقد ذكر عروة بن الزبير وموسى بن عقبة قصة أبي خيثمة بنحوٍ من سياق محمد بن إسحاق وأبسط...[1]

(١) البداية والنهاية ٥/ ٧-٨. وحديث (كن أبا خيثمة) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) (٥٣)، وأحمد ٦/ ٣٨٨ من حديث كعب بن مالك. أما القصة فقد أخرجها الطبراني (٥٤١٩)، والبيهقي في «الدلائل» (١٩٧٣)، قال الهيثمي في «المجمع» عن إسناد الطبراني: (فيه يعقوب بن محمد الزهري ضعيف). وقال الذهبي في «التلخيص» عنه: ضعيف. وقال ابن حجر في «التقريب»: (صدوق كثير

ولذا فعلى الأخوة الثابتين أن لا يعينوا الشيطان على إخوانهم، وأن يراسلوهم ويواصلوهم حتى يعيدوهم، بالمقالة والشعر والمراسلة، ونحو ذلك، فوقوع الزيغ وارد، والزائغون أنواع، وكل فتنة تكشف أصحابها.

قال صاحب الظلال عن هذه الآية: (ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت (العسرة) كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة، يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية من اليقين الجاد عند طائفة، إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة، إلى القعود والتخلف- بغير ريبة- عند طائفة، إلى النفاق الناعم عند طائفة، إلى النفاق الفاجر عند طائفة، إلى النفاق المتآمر عند طائفة، مما يشي أولاً بالحالة العامة للتركيب العضوي للمجتمع في هذه الفترة، ويشي ثانيًا بمشقة الغزوة- في مواجهة الروم ومع العسرة- هذه المشقة الممحصة، الممتحنة الكاشفة، والتي لعل الله جلَّ جلاله قد قدَّرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز)[1].

ومن قبل سيد رحمه الله، قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وقد بيَّن تفاضل المؤمنين في

الوهم والرواية عن الضعفاء). ورواية البيهقي فيها انقطاع، وفيها أحمد بن عبد الجبار، قال عنه ابن عدي: (رأيتهم مجمعين على ضعفه، ولا أرى له حديثًا منكرًا؛ إنما ضعَّفوه لأنه لم يلق الذين يحدِّث عنهم). وقال عنه ابن حجر: (ضعيف وسماعه للسيرة صحيح). وأورد القصة ابنُ سعد في «الطبقات» وابنُ هشام في «السيرة» عن ابن اسحاق بدون سند.

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٢٧.

مواضع أخر، وأنه من أتى بالإيمان الواجب استحق الثواب، ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر فذاك من أهل الوعيد، وإيمانه ينفعه الله به، ويخرجه به من النار ولو كان مثقال حبة خردل، لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب، وتمام هذا أنَّ الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب الكفر أو النفاق، ويسمى مسلمًا كما نص عليه أحمد، وتمام هذا أنَّ الانسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب النفاق، وقد يكون مسلمًا وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال الصحابة ابن عباس وغيره كفر دون كفر، وهذا قول عامة السلف، وهو الذي نص عليه أحمد وغيره ممن قال في السارق والشارب ونحوهم ممن قال فيه النبي ﷺ أنه ليس بمؤمن أنه يقال لهم مسلمون لا مؤمنون، واستدلوا بالقرآن والسنة على نفي اسم الايمان مع إثبات اسم الإسلام، وبأنَّ الرجل قد يكون مسلمًا ومعه كفر لا ينقل عن الملة، بل كفر دون كفر)[1].

فلِم اليأس مادام الأمر وقع من بعض أصحاب النبي ﷺ؟!

ولِمَ اليأس وعفو الله مأمول؟!

الوصية الرابعة: تكاليف الاتِّباع

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٣٥٠.

قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٧].

هكذا تصنع الفتن، ويتقلب الرجال، ويُنـزع الإيمان، وتُرفع الأمانة، ويرتد الممسي بطلوع الصباح، ثم يعود، وهكذا... وعليه فإنَّ المنطق الطبيعي هو ازدياد التمسك بالكتاب والسنة؛ لأنهما الحبل المتين والعروة الوثقى وسط المتغيرات، وإلا فأيُّ شيء يثبت غير الكتاب والسنة والتمسك بهما؟!

فالتمسك بالكتاب والسنة سبيل الإنقاذ الوحيد؛ لأنَّ مفارقة العروة الوثقى وسط الطوفان مجازفة بالمصير.

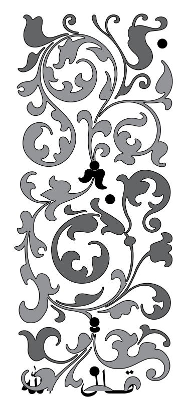
والمناداة بتطبيق السنة إنما يقتضي العلم بالسنة أولاً، وينبغي أن يكون تطبيق السنة شاملاً لجميع السنن في جميع شؤون الحياة، فلا ينبغي أنَّ نفرِّق ما بين السنن حسب الهوى أو حسب العادة، أو حسب وقع السنن عند الناس كما يفعل البعض، فإنَّ العمل بالسنن يشمل السنن الواردة من يوم يصيح صيحته الأولى عند القدوم إلى الدنيا إلى أن يُدفن في التراب، إن دفن فيه.

وهذه السنن ينبغي أن تحوَّل إلى منهج عمل يغطي الحياة كلَّها اقتداءً برسول الله ﷺ، فلا يسع المسلم مخالفته إلا لمصلحة راجحة كالمصالح المعروفة في تخفي المجاهدين، وقضائهم مهامهم، وصرف العيون عنهم، وحماية الضرورات الخمس

من دين وعرض ومال... إلخ.

ولتشمل السنن الواردة في أركان الإسلام العبادية كما تشمل سننه ﷺ الواردة في أخلاقه، بشمولية الأخلاق لمجالات الحياة، وخصوصًا مجالات التعامل، مبتدئًا بالأهل، فالأقرب، والأقرب... وعند تطبيق السنن بهذه الجدية والشمولية مع احتساب وجه الله تعالى في الاقتداء به ﷺ لن يبق إشكال بين أهل الجهاد، وذلك أنَّ الفرد لا يسعه إلا الاقتداء برسول الله ﷺ وكذلك الجماعات، وهكذا كان الصحابة والتابعون يتوقفون في كلِّ أمر حتى إذا بلغهم أنَّ في ذلك حديثاً قوليًّا أو سنة عملية أو تقريرية تركوا ما هم عليه، مهما كان استمساكهم أو استمرارهم عليه من قَبْل، إلى السنة فرحين بالسنة أعظم من فرحهم بأيِّ محبوب.





العهد العاشر
التحدث بلغة الإيمان

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [النساء:٧١-٧٢].

اختلف المفسرون في المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ ﴾.

قال الطبري: (هذا نعت من الله تعالى ذكره للمنافقين، نعتهم لنبيه صلى الله عليه وآله وأصحابه، ووصفهم بصفتهم، فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ ﴾، أيها المؤمنون، يعني من عدادكم وقومكم، ومن يتشبه بكم، ويظهر أنه من أهل دعوتكم وملتكم، وهو منافق يبطِّىء من أطاعه منكم عن جهاد عدوكم وقتالهم إذا أنتم نفرتم إليهم. ﴿ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ ﴾، يقول: فإن أصابتكم هزيمة، أو نالكم قتل أو جراح من عدوكم، ﴿ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴾، فيصيبني جراح أو ألم أو قتل. وسرُّ تخلفه عنكم؛ لأنه من أهل الشك في وعد الله الذي وعد المؤمنين على ما نالهم في سبيل الأجر

والثواب، وفي وعيده، فهو غير راج ثوابًا، ولا خائف عقابًا)[١].

وقال البغوي: (وإنما قال: ﴿مِنكُمۡ﴾، لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية والنسب وإظهار الإسلام لا في حقيقة الإيمان، ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، أي: ليتأخرن وليتثاقلن عن الجهاد)[٢].

وقال ابن جُزَي: (﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، الخطاب للمؤمنين، والمراد بمن المنافقين، وعبَّر عنهم بـ «منكم»، إذ هم يزعمون أنهم من المؤمنين، ويقولون: آمنا. واللام في «لمن» للتأكيد، وفي «ليبطئن» جواب قسم محذوف، ومعناه يبطِّئُ غيره يثبطه عن الجهاد، ويحمله على التخلف عن الغزو)[٣].

وقال القرطبي: (وقيل المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ بعض المؤمنين؛ لأنَّ الله خاطبهم بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ﴾. وقد فرَّق الله بين المؤمنين والمنافقين بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾، وهذا يأباه مساق الكلام وظاهره، وإنما جمع بينهم في الخطاب من جهة الجنس والنسب، كما بينا، لا من جهة الإيمان، هذا قول الجمهور وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. يدل عليه قوله: ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾، أي: قتل وهزيمة، ﴿قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾، يعني بالقعود، وهذا لا يصدر إلا في منافق لا سيما في ذلك الزمان الكريم، بعيد

(١) جامع البيان ٨/ ٥٣٨.
(٢) معالم التنـزيل ٢/ ٢٤٨.
(٣) التسهيل لعلوم التنـزيل ١/ ١٤٨.

أن يقوله مؤمن... وقيل: المعنى ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأن لم يعاقدكم على الجهاد)[١].

وقال ابن عاشور: (وعلى كون المراد ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، المنافقين، حَمَل الآية مجاهد وقتادة وابن جريج. وقيل: أريد بهم ضعفة المؤمنين يتثاقلون عن الخروج إلى أن يتضح أمر النصر. قال الفخر: وهذا اختيار جماعة من المفسرين)[٢].

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾: (أي: إذا لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قُتل)[٣].

أما الأستاذ سيد فيقول عند هذه الآية: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾: (إنهم لا يخجلون- وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة- أن ينسبوها لله! الله الذي خالفوا عن أمره فقعدوا! والنجاة في هذه الملابسة لا تكون من نعمة الله أبدًا، فنعمة الله لا تنال بالمخالفة، ولو كان ظاهرها نجاة! إنها نعمة! ولكن عند الذين لا يتعاملون مع الله، عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله، ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة، نعمة عند من لا يتطلعون إلى آفاق أعلى من

---

(١) الجامع لأحكام القران ٥/ ٢٧٦.
(٢) التحرير والتنوير ٥/ ١١٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٧.

مواطئ الأقدام في هذه الأرض... كالنمال... نعمة عند من لا يحسون أنَّ البلاء- في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله وإعلاء كلمة الله- هو فضل واختيار من الله، يختص به من يشاء من عباده، ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري، ويطلقهم من إسار الأرض يستشرفون حياة رفيعة، يملكونها ولا تملكهم، وليؤهلهم بهذا الانطلاق وذلك الارتفاع للقرب منه في الآخرة... في منازل الشهداء... إنَّ الناس كلهم يموتون! ولكن الشهداء- في سبيل الله- هم وحدهم الذين «يستشهدون»، وهذا فضل من الله عظيم)[1].



(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٠٦.

الوصايا

الوصية الأولى: معرفة كيف يفكِّر المنافق

﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [النساء:٧٢]، ومن ثمار إخبار الله تعالى لنا بما يقول المنافقون هنا هو أن نعرف كيف يفكِّر هؤلاء القوم، فنحمد الله تعالى على نعمة الهداية التي تفضَّل الله بها علينا.

ومصيبةُ هذه الكلمة أنها إذا كثر المتحدثون بها استقرت في قلوبهم، وفي قلوب عامة المجتمع، حتى أصبحتَ تسمع وبأعلى صوت عمن يقتل في سبيل الله أنه مات ولو أنه قعد لما أصابه ذلك! وقد قلنا له ذلك لكنه لم يستمع إلينا!

وأننا عرضنا عليه الوظيفة والمرتب والزواج لكنه أبى!

أرأيت كيف فاته الخير الكبير! انظر إلى صاحبه فلان إلى أيِّ المراتب توصل، وفلان تزوج وأعال وما إلى ذلك! بينما رمَّل هذا الزوجة ويتَّم الأبناء... فمن يربيهم اليوم؟!

ويعلو لحن هذه اللغة حين يكثر البكاء عليه ندمًا على فوات ما ذكروا من الدنيا وذهابه عنها.

وكل هذا من لحن المنافقين الأوائل: ﴿ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴾، ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

فالله تعالى يسميها ﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾، فيها الألم، وفيها الجرح، وفيها الخوف، وفيها إهلاك المال، وفيها الاعتقال، وفيها انتقام العدو من الأهل، والعرض، والمساكن، وفي كثير من الأحيان فيها القتل... ومع كل هذا الذي فيها إلا أنَّ الله تعالى جعلها من قول المنافقين واعتقاد المنافقين.

فليحذر أشدَّ الحذر مَن يريد اللهَ والدار الآخرة من التشبه بالمنافقين الأوائل أتباعِ عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول في صدهم الناس عن الجهاد والتخذيل والتثبيط، فإذا كنت جبانًا ضعيف القلب فليسعك بيتك، وابكِ على جبنك وكبيرةِ تركك الجهاد، ولا تجمع مع هذه الكبيرة نفاقًا خطيرًا بالثبيط والتخذيل، والنفاقُ الأشد خطورة أن تنسب ذلك لشرع الله، فتكون بذلك قد جمعت بين كبيرةِ ترك جهاد الدفع، ونفاقِ التخذيل، وتحريف دين الله عز وجل، بل وتكبر وخداع؛ لأنَّ أساس ذلك -في كثير من الأحيان- جبنك وخورك من السير في طريق الرجال، وقد غلَّفت أمراضك بثوب شرعي حتى لا تُوصف بالجبن الذي يأباه كلُّ حرٍّ شريف.

وقد نهانا الله تعالى عن لغة المنافقين أشدَّ النهي، فقال جلَّ جلاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران:١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ

ﭐلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٨]، والمصيبة أنَّ هذه اللغة النفاقية ليست لغة في اللسان فحسب إنما هي عقيدة مستقرة في القلب، وقد حاسب الله جلَّ جلاله كما رأيت على كلماتها، وأعادها إلى مصدرها، وهو القلب فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [آل عمران:١٥٦].

والمصيبة الأخرى أنَّ هذه الكلمة لا تقتصر على ميدان الجهاد إنما تعم ميادين الحياة كلها، عند الإنفاق، وعند الاختلاف، وعند الجدال، وعند الاختصام، وما إلى ذلك.

والحقيقة شيء آخر: هات كل نعم الحياة التي سيتمتع بها هذا الذي يقول: ﴿ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ ﴾ في حياته، وضعها في مقابل فضائل الشهيد، ثم احكم بمقاييس هؤلاء... سترى الحكم لصالح الشهيد حتى بمقاييسهم هم!

هات موتة على سرير وثير، وبطائن من حرير، لأنعم منافق طرير(١)... مقارنًا إياها بموتة الشهيد في بريَّة أو غابة أو تحت جدار... وسترى أنَّ الموتة هي الموتة، لكن أين

(١) رجل طرير: ذو طرة وهيئة حسنة وجمال. لسان العرب ٤/ ٤٩٩.

روحٌ تُنـزع من كل خلية حية من خلاياه من قرصة نملة؟! أين الأهوال يراها المنازع على فراشه من قطرة تسقط من فيِّ السقاء؟!

فأين هذا من هذا؟!

المؤمن الحق من يخاف على نفسه من طول بقائه إذا رأى إخوانه يرحلون وهو يسلم من بينهم في كل مرة، نعم هو يخاف ويرجو أن يجمع الله له ما بين طول العمر والعافية مع حسن العمل والختام على الشهادة مقبلاً غير مدبر، أما المنافق فيخاف على نفسه الموت، وهو لا يريده على أيِّ وجه كان.

الوصية الثانية: إشاعة لغة الشهداء

لا ينبغي لدعاة التحريض على الجهاد في سبيل الله تعالى أن يركنوا إلى معلومات الناس عن فضائل الجهاد والشهادة، والتي تلقوها من قَبْل في المساجد أو الكتب، أو من خلال بعض الرسائل التي نُشرت، بل يجب أن يشاع الحض على الجهاد والشهادة من جديد، وبأساليب مختلفة، وأن نحض من لديه المقدرة على الحض؛ كي يحض الناس، حضًّا يشمل الجميع، من شبيبة إلى والدين، إلى كبار قادرين...

فيا ولي الأمر المسلم: مالك تغضب على الشباب الصالح، الذين تعرف علمهم وتقواهم، وتهددهم بالانتقام إن حضَّوا ولدك على الجهاد والشهادة؟!

إلى من تدخره، وإلى متى تدخره؟!

هل تدخره لموتةٍ على الفراش، أم تدخره لتفجع فيه أو يفجع فيك يومًا من الأيام، ومع هذا فكل ذلك الحرص منك على ولدك لن يغني عنه مما كتب الله عليه من شيء، حُضَّه على الجهاد فلك النية، أما قَدَر الله فهو ماض إلى طريقه في ولدك، فلا تُحرم النية الصالحة التي يكتب لك أجر عملها ولو لم تعملها، فإنَّ الله جلَّ جلاله يخاطبك كما يخاطب ولدك، ويخاطب الناس جميعًا فيقول: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

أيتها الأسرة المسلمة: سترحل أسرتكم كما ترحل جميع الأسر، فأيُّ أسرة أسعد من أسرة قدمتْ شهيدًا، شفيعًا سيشفع في سبعين من أهل بيته... ومن أحق منكم؟!

لكن أي أسرة مسلمة أكبر حرمانًا وحسرة من أسرة حين ترى بقية الأسر تأتي يوم القيامة بشهداء وشفعاء، أما هي فجاءت سالمة من الشهادة، مُسلَمة إلى حسابها، مرهونة بعملها؟!

ألم يقل النبي ﷺ، كما في حديث المقدام بن معدي كرب: (للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أول دَفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفَّع في سبعين من أقاربه)[1].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩٥٥٩)، وسعيد بن منصور (٢٥٦٢)، وأحمد ٤/ ١٣١، والترمذي (١٦٦٣)

هل فكرت- أيها الشاب- في هذا الحديث جيدًا؟

هل فكرت بأصعب المواقف التي تنتظر الناس جميعًا من لحظة الموت إلى الخلود؟

فمَن مِن الموتى يتجاوزها إلا الشهيد المقبول؟

فهذه الذنوب سبب هلاك الناس، يتخلص منها الشهيد من أول قطرة دم، فإذا ذهبت الذنوب من أول قطرة، فلن يعذب بخروج روحه في باقي القطرات، فالذنوب قد غُفرت وكفى!

وماذا يخاف الميت بعد الموت إلا من عذاب القبر الذي هو الهول الفظيع الذي ما رأى النبي ﷺ أفظع منه! كما في حديث عثمان، أنَّ النبي ﷺ قال: (ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه)[1]. وليس للشهيد عليه من خوف... إنما هو الأمان.

وهكذا فكل فضيلة للشهادة إنما هي دعوة للمؤمن للحرص على الشهادة حتى لو كانت أمنية صادقة.

أيها الشباب: استوثقوا جيدًا لصحة طريقكم، ولا تتعجلوا مع كل من نادى على

وقال: صحيح غريب، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٢٠٤)، والطبراني ٢٠/ (٦٢٩)، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٤٩)،. وقال المنذري: وإسناد أحمد حسن. وقال الهيثمي: رجال أحمد والطبراني ثقات. وصححه الألباني. وقال عبد القادر: حديث حسن. وقال شعيب: صحيح لغيره دون ذكر عدد الحور العين.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨) وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤٢٦٧)، وعبد الله بن أحمد في زياداته على المسند ١/ ٦٣، والبزار (٤٤٤)، والحاكم ٤/ ٣٣٠-٣٣١، والبيهقي في «الشعب» (٣٩٣) و(١٠٠٦٩). وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب. وقال عبدالقادر عن إسناد الترمذي: إسناده حسن.

عمل استشهادي، فقد حصل في حالات نعلمها أن خُدع بعض الشباب المتشوق للشهادة دون التحقق من مشروعية الهدف، فذهبوا وهم لا يعلمون بالخديعة، ولربما أدركها البعض بعد فوات الأوان، حيث أصبح خط العودة مستحيلاً، فذهبت روحه في أسفه وحسرته نادمًا وهو حسير! فإذا ما استوثقت فليس لك إلا أن تَهَبَ الروح إلى بارئها، بائعًا مستبشرًا ببيعك الذي بايعت، فعن أنس رضي الله عنه، أنَّ رجلا أسود أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله إني رجل أسود، منتن الريح، قبيح الوجه، لا مال لي، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل، فأين أنا؟ قال: (في الجنة). فقاتل حتى قتل، فأتاه النبيُّ ﷺ فقال: (قد بيَّض الله وجهك، وطيَّب ريحك، وأكثر مالك). وقال لهذا أو لغيره: (لقد رأيت زوجته من الحور العين نازعته جبة له من صوف، تدخل بينه وبين جبته)[1].

أيها المسلم: رسالة واحدة أطارت عقول شباب الأمة نحو الجنة، فلم يستقر لهم قرار حتى لقي الله منهم من لقي شهيدًا في سبيله، ومازالت كلماتها بذورًا تنبت الشهداء.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي الى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن

(١) أخرجه الحاكم ٢/ ٩٢. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وصححه ابن الملقن في «البدر المنير» ٩/ ٩٨، والألباني.

منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب). فقال الله عزَّ وجلَّ: أنا أبلِّغهم عنكم. فأنزل الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الآيات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[(١)] [آل عمران]. أفلا تتمنى- أيها الشاب- منـزلة تمناها رسول الله ﷺ.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو، فأقتل، ثم أغزو، فأقتل)[(٢)].

وعندما يُكشف الغطاء، ويرى الشهيد عِظم الجزاء، يدرك عظم ما ختم الله له به رغم ما عنده من العلم بفضل الشهادة، وذلك العلم الذي دفعه له، لكن ما رآه شيء آخر.

فعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالرجل من أهل الجنة يوم القيامة، فيقول الله: يا ابن آدم، كيف وجدت منـزلك؟ فيقول: يارب، خير منـزل. فيقول: سل وتمنه؟ فيقول: ما أسألك وأتمنى، إلا أن تردَّني إلى الدنيا، فأقتل في سبيلك

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٦٧٨)، وأحمد ١/ ٢٦٥، وعبد بن جميد (٦٧٩)، وأبو داود (٢٥٢٠)، وعبد الله بن أحمد في زياداته على المسند بنحوه ١/ ٢٦٦، وأبو يعلى (٢٣٣١)، والحاكم ٢/ ٨٨ و٢٩٧-٢٩٨، والبيهقي ٩/ ١٦٣، وفي «الدلائل» (١١٩٢)، و«الشعب» (٣٩٣٥). وصححه الألباني، وقال شعيب وعبد القادر: حديث حسن. وفي الباب عن عبد الله بن مسعود في مسلم (١٨٨٧) (١٢١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦) و(٢٧٩٧) و(٢٩٧٢) و(٧٢٢٧)، ومسلم (١٨٧٦) (١٠٣)، وأحمد ٢/ ٢٣١ و٣٨٤، وابن ماجه (٢٧٥٣)، والنسائي ٦/ ٨ و٣٢.

عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة)[1].

أيتها الأم: هل من شيء تدخرين ولدك له أفضل من أن تدخريه شفيعًا لك ولأبيه؟!

لا شك أنك تحبينه، ولكن ماذا لو جاءك من تشهدين له بالرسالة؟! جاءك المصطفى ﷺ فبشرك بمنـزلته، ماذا أنت صانعة؟!

أتواصلين البكاء والنحيب، أم تدفعين وراءه أخاه وأخاه، موقنة بأنَّ الأعمار بيد الله؟

عن أنس بن مالك، أنَّ أمَّ الرُّبَيِّع بنت البراء -وهي أم حارثة بن سراقة- أتت النبيَّ ﷺ، فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة -وكان قُتل يوم بدر أصابه سهم غرب- فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: (يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى)[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (عجب ربنا تبارك وتعالى من رجل غزا في سبيل الله فانهزم -يعني أصحابه- فعلم ما عليه، فرجع حتى أُهريق دمه، فيقول الله عزَّ وجلَّ لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي،

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٣١ و٢٠٧ و٢٣٩، وعبد بن حميد (١٣٢٩)، والنسائي ٦/ ٣٦، وفي «الكبرى» (٤٣٦٨)، وأبو يعلى (٣٤٩٧)، والحاكم ٢/ ٧٥، والبيهقي في «البعث» (٦٠٠). وصححه الألباني وشعيب.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٩) و(٣٩٨٢) و(٦٥٥٠) و(٦٥٦٧)، وأحمد ٣/ ٢١٠ و٢٦٠ و٢٨٣، والترمذي (٣١٧٤).

وشفقة مما عندي، حتى أُهريق دمه)[١].

ليست هذه الفضائل مقتصرة على أصحاب رسول الله ﷺ.

وليست هذه الرسالة موجهة لفئة خاصة من أصحاب الإيمان، بل هي رسائل موجهة لكل من يشهد أن لا اله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

ولو استذكرت الآن من شهدائكم من تقدَّم فنطقوا لما بلَّغوكم غير ما قال الله لكم، ولما تمنوا العودة إلى دنياكم كما يتمنى لهم البعض، ذلك إلا بحدود وقتٍ يجاهدون فيه، فيُقتلون في سبيل الله، ثم يعودون فيجاهدون فيُقتلون في سبيل الله، وهكذا تتكرر الأمنية عشر مرات، وهم لا يشبعون من فداء الإسلام، وإعلاء كلمة الله، وحيازة فضائل الشهداء.

الوصية الثالثة: طوبى للغرباء

بمرور الأيام يخفت صوت المتحدثين بلغة الشهادة والجهاد في سبيل الله، ويرتفع صوت السلامة، والرغبة في تطويل العمر، بالتكيف مع الظروف، وإنكار الجهاد والشهادة من خلال الإنكار على هؤلاء المجاهدين، والتهاون في المخاطر المحدقة

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٩٧٤٨)، وأحمد ١/ ٤١٦، وأبو داود (٢٥٣٦)، وأبو يعلى (٥٢٧٢) و(٥٣٦١) (٥٣٦٢)، وابن حبان (٢٥٥٧) و(٢٥٥٨)، والطبراني (١٠٣٨٣)، والحاكم ٢/ ١١٢، والبيهقي ٩/ ٤٦ و١٦٤، قال أحمد شاكر في تحقيقه للمسند: إسناده صحيح، وحسَّنه الهيثمي والألباني وعبد القادر. وقال شعيب في تعليقه على المسند: إسناده حسن إلا أنَّ الدار قطني صحح وقفه. وقال في تعليقه على سنن أبي داود: إسناده صحيح... لكن الدارقطني صحح وقفه.

بالشرف، وما إلى ذلك من مبادئ.

ويزداد البلاء أكثر حين يكسب (تيار التعمير) داخل صفوف المجاهدين.

تيار التعمير الذي هو برعم يستقي من ورثة من قال الله فيهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:٩٦]. على حساب تيار الجهاد في سبيل الله تعالى.

فيعلو صوت الحياة الدنيا على داعي الآخرة مناديًا بالتكيف، والهدنة، وأنصاف الحلول، والتفاهم على حل يرضي الأطراف جميعًا، وحماية بعض المكتسبات، وما إلى ذلك من شنشنات!

فتصبح لغة الإيمان الحق غريبة، غريبة بين أهلها، فطوبى للغرباء.

هنا ينبغي لأهل الجهاد أن يعلموا أنه بلاء... وأنَّ هذا البلاء يزيد الأمانة ثقلاً، ويضيف على ثقلها ثقلاً، ومن ثم وجب عليهم أن يزدادوا استنصارًا بالله... ويزدادوا قوة، وتحملاً وتحديًا، حتى لو بقي مجاهد واحد لما حلَّ له إلا أن يقاتل حتى تنفرط سالفته، وذلك أنه بذهاب هذا الواحد يُطمس الحق، وإلا فما الذي جعل الإمام أحمد يتحمل فتنة خلق القرآن لوحده في نهاية الأمر؟

فالبشر هم البشر، لهم حاجياتهم، وفيهم ضعيفهم، ويحملون بين حناياهم هلعهم وطمعهم... فإذا ما رافق ذلك فقر الأسرة، وحاجة الصغار، وانعدام المسكن، وضغط

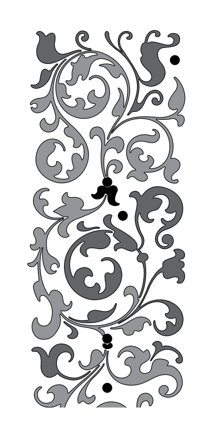
الآباء والمجتمع، فإنَّ الصعوبة تتضاعف... وما أن يتذوق الحياة الدنيا على ضفة السلامة الأخرى يومًا ويومين، وشهرًا وشهرين، حتى يثقل جنبه، وتُكبَّل رجلاه، ويموت همه، ثم يصبح داعية للقعود، وأول من يدعوهم هم صحبه الذين كانوا معه، إذ هو أقدر على التأثير عليهم، وهذا هو النفاق بعينه.

وكم أعجز الكفارَ رجلٌ في ميدان الجهاد، لكنهم صرعوه بمنافقيهم في ميادين الحياة؟!

كم فشلت خططهم وأسلحتهم في سوح المواجهة، وكم نجحت ميزانياتهم في إغراء الرجال؟!

إننا نريد التواصي بالحق والتواصي بالصبر، نريد الفرار إلى الله لا إلى الدنيا، نريد أن يعلو صوتُنا صوتَ طلاب الحياة، نريد أن نشوِّقهم للقاء الله تعالى، نريد أن نهزم المنافقين في ميادين الحياة كذلك، نريد أن نستجلب رجالاً من ميادين الحياة الدنيا إلى ميادين الجهاد، نريد أن لا يتفلت الجيل الجديد من أيدينا فيصبح همه الأكبر هو هذه الحياة، فنحن لا ندري كم ستطول المعركة.

لكنَّ الخشية أن ينجح العدو في ترويض هذا الجيل الناشئ والذي بعده، فإذا برد الجهاد، لا قدَّر الله، فمتى سيوقد جمر مواقد الجهاد؟



العهد الحادي عشر
محاربة الإشاعة

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣].

يقول الإمام الطبري: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ ﴾، الأمر الذي نالهم من عدوهم (والمسلمين)[١] إلى رسول الله ﷺ وإلى أولي أمرهم، يعني: وإلى أمرائهم، وسكتوا فلم يذيعوا ما جاءهم من الخبر، حتى يكون رسول الله ﷺ أو ذووا أمرهم هم الذين يتولَّون الخبر عن ذلك، عندما تثبت عندهم صحتُه أو بُطُوله، فيصححوه إن كان صحيحًا أو يبطلوه إن كان باطلاً، ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾، يقول: لعلم حقيقة ذلك الخبر الذي جاءهم

(١) قوله: (والمسلمين)، هكذا في المخطوطة والمطبوعة، ولم أدر ما هو، فتركته على حاله، ووضعته بين القوسين، وأخشى أن يكون سقط من الكلام شيء، وبحذف ما بين القوسين يستقيم الكلام على وجهه. (قاله محقق تفسير الطبري العلامة محمود شاكر).

به الذين يبحثون عنه ويستخرجونه، ﴿مِنْهُمْ﴾، يعني أولي الأمر، و(الهاء والميم)، في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، من ذكر أولي الأمر، يقول: لعلم ذلك من أولي الأمر من يستنبطه)[1].

وقال البغوي: (وذلك أنَّ النبي ﷺ كان يبعث السرايا، فإذا غَلبوا أو غُلبوا بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم، فيفشون ويحدِّثون به قبل أن يحدِّث به رسول الله، فيضعِفون به قلوب المؤمنين، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ﴾، يعني المنافقين، ﴿أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾، أي: الفتح والغنيمة، ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾، القتل والهزيمة، ﴿أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾، أشاعوه وأفشوه ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، أي: لو لم يُحدِّثوا به حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يُحدِّث به ﴿وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، أي: ذوي الرأي من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم،﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، أي: يستخرجونه، وهم العلماء أي: علموا ما ينبغي أن يُكتم، وما ينبغي أن يُفشى)[2].

وقال أبو حيان: (والضمير في جاءهم على المنافقين، قاله ابن عباس والجمهور، أو على ناس من ضعفة المؤمنين، قاله الحسن والزجاج)[3].

وقال الماوردي: ﴿وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، وفيهم ثلاثة أقاويل: أحدها أنهم الأمراء، وهذا قول ابن زيد والسدِّي. والثاني: هم أمراء السرايا. والثالث: هم أهل

---

(١) جامع البيان ٨/ ٥٧١.
(٢) معالم التنزيل ٢/ ٢٥٥.
(٣) البحر المحيط ٣/ ٣١٨.

العلم والفقه، وهذا قول الحسن وقتادة وابن جريج وابن نجيح والزجاج)[١].

وقال الواحدي: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ... ﴾ الآية، نزلت في أصحاب الأراجيف، وهم قوم من المنافقين كانوا يُرجفون بسرايا رسول الله ﷺ، ويخبرون بما وقع بها قبل أن يخبر به النبي ﷺ، فيُضعِفون قلوب المؤمنين بذلك، ويؤذون النبي عليه السلام بسبقهم إياه بالإخبار)[٢].

الوصايا

الوصية الأولى: الحذرَ الحذرَ

مما اعتدنا التنبيه عليه هو أخذ الحذر في الجهاد، وهذا والله حق وضرورة، وصوره كثيرة... لكنَّ الحذر الذي أريد التنبيه عليه هنا، هو خطر المنافقين حين يتحدثون باسم المؤمنين المجاهدين، وأحيانًا باسم القادة!

ولكم عانى أهل الإسلام من أهل النفاق حين تقمصوا الأدوار جيدًا ونطقوا باسم المجاهدين، وعملوا ثم نسبوا أعمالهم للمجاهدين، وراسلوا وختموا بأختام المجاهدين، وما أفاق المجاهدون إلا بعد أن حقق المنافقون غاياتهم، وقطفوا ثمرتهم،

(١) النكت والعيون ١/ ٥١١.

(٢) تفسير الواحدي ١/ ٢٧٨.

وطاروا بها، وبقي المؤمنون يتجرعون مرارتها، وينـزفون أنهارًا من دم نتيجة آثارها!

وهل قُتل ذو النورين رضي الله عنه إلا بمثل هذه الرسائل؟

وهل اشتعل القتال في صفين إلا بهؤلاء المتقمصين المندسين؟

وهل أذهب دور المصلحين ما بين جيوش الشام والعراق أيام علي ومعاوية رضي الله عنهما إلا هؤلاء؟

فالحذر الحذر من تصديق كل خبر.

والحذر الحذر من المنافقين.

الوصية الثانية: ضرورة الرد لأولي الأمر

وأودُّ أن أنقل هنا ما قاله صاحب الظلال، مؤكِّدًا على القارئ قراءته جيدًا وتأمله جيدًا فما أحسن ما قال، وما أحوجنا لما قال، يقول رحمه الله: (والصورة التي يرسمها هذا النص، هي صورة جماعة في المعسكر الإسلامي،لم تألف نفوسهم النظام، ولم يدركوا قيمة الإشاعة في خلخلة المعسكر، وفي النتائج التي تترتب عليها، وقد تكون قاصمة؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، ولم يدركوا جدية الموقف، وأنَّ كلمة عابرة وفلتة لسان، قد تجرُّ من العواقب على الشخص ذاته، وعلى جماعته كلها، ما لا يخطر له ببال، وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال! أو ربما لأنهم لا يشعرون بالولاء الحقيقي الكامل لهذا المعسكر، وهكذا لا يعنيهم ما يقع له من جرَّاء أخذ كل شائعة

والجري بها هنا وهناك، وإذاعتها، حين يتلقاها لسان عن لسان، سواء كانت إشاعة أمْنٍ أو إشاعة خوف... فكلتاهما قد يكون لإشاعتها خطورة مدمرة! فإنَّ إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متأهِّب مستيقظ متوقِّع لحركة من العدو... إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تُحدِث نوعًا من التراخي مهما تكن الأوامر باليقظة؛ لأنَّ اليقظة النابعة من التحفز للخطر غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر! وفي ذلك التراخي قد تكون القاضية!... كذلك إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة قد تُحدث إشاعة أمر الخوف فيه خلخلة وارتباكًا، وحركات لا ضرورة لها لاتقاء مظان الخوف... وقد تكون كذلك القاضية!

وعلى أية حال فهي سمة المعسكر الذي لم يكتمل نظامه، أو لم يكتمل ولاؤه لقيادته، أو هما معاً... ويبدو أنَّ هذه السمة وتلك كانتا واقعتين في المجتمع المسلم حينذاك، باحتوائه على طوائف مختلفة المستويات في الإيمان، ومختلفة المستويات في الإدراك، ومختلفة المستويات في الولاء... وهذه الخلخلة هي التي كان يعالجها القرآن بمنهجه الرباني.

والقرآن يدل الجماعة المسلمة على الطريق الصحيح: ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ [النساء: ٨٣].

أي: لو أنهم ردوا ما يبلغهم من أنباء الأمن أو الخوف إلى الرسول ﷺ إن كان معهم، أو إلى أمرائهم المؤمنين، لعلم حقيقته القادرون على استنباط هذه الحقيقة،

واستخراجها من ثنايا الأنباء المتناقضة، والملابسات المتراكمة.

فمهمة الجندي الطيب في الجيش المسلم، الذي يقوده أمير مؤمن- بشرط الإيمان ذاك وحده- حين يبلغ إلى أذنيه خبر، أن يسارع فيخبر به نبيَّه أو أميره، لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه، أو بين من لا شأن لهم به، لأنَّ قيادته المؤمنة هي التي تملك استنباط الحقيقة، كما تملك تقدير المصلحة في إذاعة الخبر حتى بعد ثبوته، أو عدم إذاعته...

وهكذا كان القرآن يربي... فيغرس الإيمان والولاء للقيادة المؤمنة، ويعلِّم نظام الجندية في آية واحدة... بل بعض آية... فصدر الآية يرسم صورة منفِّرة للجندي وهو يتلقى نبأ الأمن أو الخوف، فيحمله ويجري متنقلاً، مذيعًا له، من غير تثبت، ومن غير تمحيص، ومن غير رجعة إلى القيادة... ووسطها يعلم ذلك التعليم... وآخرها يربط القلوب بالله في هذا، ويذكرها بفضله، ويحركها إلى الشكر على هذا الفضل، ويحذرها من اتباع الشيطان الواقف بالمرصاد، الكفيل بإفساد القلوب لولا فضل الله ورحمته: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾...

آية واحدة تحمل هذه الشحنة كلَّها، وتتناول القضية من أطرافها، وتتعمق السريرة والضمير وهي تضع التوجيه والتعليم، ذلك أنه من عند الله، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢)[1].

وكم تحتاج هذه الآية إلى وقفات طويلة، لأنَّ حاجتنا في واقعنا لها كبيرة، ولأنَّ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٢٣-٧٢٤.

الخلل الذي أصابنا بسبب عدم العمل بها كما أراد الله جلَّ جلاله كان خللاً كبيرًا، والتكاليف كذلك كانت خطيرة كبيرة.

الوصية الثالثة: تعظيم شأن الطاعة

قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة:٩٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني)(١).

إنَّ من فقه الطاعة في المعروف أن يعلم الفرد أنَّ طاعته لأميره الملتزم بمنهج السلف طاعة لله عزَّ وجلَّ ولرسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء:٥٩].

فالله عزَّ وجل أمر بطاعة وليِّ الأمر، وإن كانت طاعته مقيَّدة بطاعة الله جلَّ في علاه ورسولِه ﷺ، ولا يخفى أنَّ كلَّ آمر بمعصية الله ورسوله ﷺ لا يطاع، حتى وإن كان والدًا أو عالماً أو قائدًا أو غير هؤلاء، لكنَّ تقرير أنَّ طاعة الأمير طاعة لله ولرسوله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٥٧) و(٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥) (٣٢) و(٣٣) و(٣٤)، وأحمد ٢/ ٢٤٤ و٢٥٢ و٢٧٠ و٣٨٦ و٤٧١ و، وابن ماجه (٢٨٥٩)، والنسائي ٧/ ١٥٤.

يعطي الطاعة قيمتها الحقيقية التي أمر الله جلَّ جلاله بها، وينـزلها من العبادة منـزلاً، ويعطي صاحبها التزامًا بها غير قابل للتغيير والنقض، وغير قابل لإدخال الأهواء فيه وتحكيمه!

يا أيها المأمور أيًّا كانت درجتك كبيرة أم صغيرة: اعلم أنك بطاعتك لأميرك في غير معصية مطيعٌ لله سبحانه وتعالى، ومطيعٌ لرسوله ﷺ، نعم، أيًّا كانت درجتك! حتى لو أصبح ولدك هو أميرك أو كان أميرك هو أخاك الأصغر، أو كان أقل منك علمًا، أو كنت أعلى منه رتبة عسكرية، أو كنت قائدًا من أشهر القادة وأعلمهم!

يا أيها المأمور: إنك حين تطيع أميرك في طاعة الله تعالى فإنما تطيع أمر رسول الله ﷺ؛ لقوله ﷺ: (من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله)[1].

أيها المأمور: إنَّ طاعة أميرك إنما هي اختبار لك على طاعة الله ورسوله ﷺ، وخصوصًا إذا كان الأمر اجتهاديًا بالنسبة لكما، أي:لم يكن هناك نص صحيح صريح.

ففي كلِّ مرة تنفِّذ فيها الأمر إنما تسجل انتصارًا في عالم الاختبار الشرعي الذي تتعرض إليه!

أيها المأمور: كم من المأمورين أمثالك سواءً كانوا قادة أم جنودًا تساقطوا مع مرور الأيام بسبب هذا الاختبار؟

(١) حديث صحيح، وقد سبق تخريجه.

تدري لماذا؟ إما جهلاً بأحكام الطاعة، وإما لعدم تعبدهم بالطاعة، وإما لكِبْرٍ في نفوسهم، نعوذ بالله من كل ذلك.

وهكذا تبقى الطاعة تفرز المجاميع الجهادية فرزًا، وتفرز الأفراد بمرور الأيام وتنوُّع الاختبارات وكثرتها.

الوصية الرابعة: تعظيم شأن الجماعة

الجماعة ضرورة من الضرورات، وهي مما افترضها الشارع في مواطن كثيرة، ولا يمكن مواجهة أعداء الإسلام إلا بجماعة وأمير، لكن لا يعني الأمر بالجماعة أن يقول كلُّ صاحب جماعة نحن جماعة المسلمين، ويعطي لأميره حقوق الإمام الأعظم، كما لا يعني كلامنا هذا الفوضى وعدم وجوب طاعة أمير الجماعة، وأنَّ للفرد أن يتحلل من البيعة إذا اختلف مع الأمير في مسائل اجتهادية كما يفعل بعض أصحاب الأمزجة المنحرفة!

ومما ينبغي أن يفهمه أفراد الجماعات الجهادية وأمراؤها الأمور الآتية:

أولاً: ينبغي على الأفراد في الجماعات أن يلتزموا الأحكام الشرعية نحو جماعتهم الشرعية من حيث وجوب البقاء بها وحرمة الخروج ما دامت ملتزمة بالكتاب والسنة. وعليهم حقوق الأخوة في الله من التآلف والتناصح والإيثار وما إلى ذلك، وتجنب المخالفات الشرعية في الجماعة كحرمة الإشاعة، وحرمة عصيان الأمير، وحرمة التجسس، وحرمة شق الصف، ونحو ذلك.

ثانيًا: أن لا يتعامل الأمراء والقادة على أنَّ جماعتهم هذه هي جماعة المسلمين التي وردت فيها نصوص شرعية خاصة بها، فهذا من الجهل ومن تحكيم الأهواء على الشرع، بل هي جماعة من جماعات المسلمين تجب لها الحقوق الشرعية التي افترضها الشرع لها ولأمرائها.

ولا ينبغي أن نقول نحن لا نستطيع أن نفتح المسألة بهذه الطريقة، فإنا إذا فتحناها أصبحت الجماعة سائبة وأصبح الأفراد يبايعون وينقضون، ويتلاعبون بين الجماعات كيف يشاؤون، وهذه مصيبة عظيمة!

نعم، هذه مصيبة عظيمة؛ لما فيها من تحكيم الهوى بين الطرفين من الأفراد الذين يريدون التحلل من الالتزامات الشرعية نحو الجماعة، ومن الجماعة التي افترضت لنفسها حقوقًا لم يفترضها الشرع.

وإذا تعاملت كل جماعة على هذا الأساس فقد أصبحت كل جماعة وكأنها خلافة إسلامية منفصلة، وأصبح كل أمير على جماعته كأنه خليفة للمسلمين، وهذا بلاء مبين...!

إنَّ مثل هؤلاء الذين أوجبوا هذه الأمور التي ما أنزل الله بها من سلطان لضبط أمور الجماعة، كمثل من أفتى الحاكم الأندلسي بوجوب صيام شهرين متتابعين حين واقع أهله في رمضان، مبررًا ذلك بأنه إن أفتاه بالعتق سهلت عليه المخالفة؛ لسهولة الكفارة، فعادها المرة تلو المرة!

وهذا مع كونه افتئاتًا على الشرع إلا أنه دليل ضعف تلك الجماعة، ودليل على ضعف أفرادها الذين لا قدرة لهم على الثبات في جماعتهم إلا باستخدام النصوص استخدامًا فيه من الهوى ما فيه، كما أنَّ فيه دلالة على أنَّ أفراد هذه الجماعة لا يملكون القدرة على الحوار مع الجماعات الأخرى حوارًا شرعيًّا مجردًا عن الهوى.

ثالثًا: يجب أن يشاع في داخل الجماعة خلقُ المناصحة، إسداءً وقبولاً لها من أصغر فرد إلى أعلى قائد، فلا يبقى أحد في حصانة من النصح.

والعجب أن تجد الخلافة الحقيقية الأولى في أزهى عصورها وأقوى خلفائها خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ومن بعدهما، يأمرون الناس في أول خطبهم بهذا الواجب، ويلتزمون به أعظم التزام. هذا وهي الخلافة الحقة، وهو الخليفة الذي لا نزاع عليه، بينما تجد بعض أصحابنا هؤلاء من يفهم المناصحة شيئًا آخر، يصل بالبعض إلى أن يصفه بالخروج، مع الإشارة إلى ضرب رأسه بالسيف؛ لأنه نازع الأمر أهله!

رابعًا: ينبغي أن نؤكد أنَّ الخروج من الجماعة الجهادية لهوى ومن غير مبرر شرعي معتبر، إنما هو غدر وإثم، ويحرم الخروج لخلافك مع الأمير أو قيادة الجماعة في مسائل اجتهادية يسع فيها الخلاف، فمثل هذه المسائل لا تسوِّغ الخروج أبدًا، فعن أنس، أنَّ النبي ﷺ قال: (لكل غادر لواء يوم القيامة يُعرف به)[1]، وقد جعله الإمام البخاري في باب: إثم الغادر للبرِّ والفاجر! ويعني به -كما لا يخفى- المسلم الفاجر، لا المرتد أو

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٧)، ومسلم (١٧٣٧) (١٤)، وأحمد ٣/ ١٤٢ و١٥٠ و٢٥٠ و٢٧٠.

الكافر أو الزنديق.

وتحريمنا للخروج من الجماعة الجهادية لا يعني أبدًا إباحة دم الخارج، والقول بإباحته جهل وغلو نبرأ إلى الله منه، والدليل على تحريم الخروج من الجماعة لمسائل اجتهادية يسع فيها الخلاف ما ذكره ابن أبي العز رحمه الله في شرحه للطحاوية، يقول رحمه الله: (وقد دلَّتْ نصوصُ الكتاب والسنة وإجماعُ سلف الأمة أَنَّ ولي الأَمر، وإمامَ الصلاة، والحاكمَ، وأمير الحرب، وعاملَ الصَّدقة، يُطاعُ في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أَن يُطيعَ أَتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وتركُ رأيهم لرأيه، فإنَّ مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أَعظم من أَمر المسائل الجزئيَّة)[1].

أما الخروج من الجماعة التي انحرفت عن منهج السلف كمن يقتل بغير حق أو يكِّفر بغير حق أو يترك جهاد مَن وجب جهاده كالباطنيين في الشام والعراق، فهذه المسائل وأمثالُها توجب الخروج من الجماعات التي تتبنى مثل ذلك، ويجب على الخارج أن يواصل المسير في طريق الجهاد بالالتحاق بأقرب الجماعات الجهادية إلى السنة والعلم الصحيح، ومن يتق الله يجعل له فرقانًا يميِّز به بين الحق والباطل، ويهديه سواء السبيل.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣.

الوصية الخامسة: الأصل في الشائعة الرد والأصل في ولي الأمر الثقة

إنَّ طاعة ولي الأمر ليست مِنَّة من الأفراد يتفضلون بها على ولي أمرهم؛ بل فرض من الله تعالى عليهم، وطريق للتقرب إليه، وميدان للتسابق لمرضاته...

هذه الحقيقة ينبغي أن لا تُنْسى أثناء المعاملة والاحتكاك، وورود الأخبار والإشاعات، وورود الأوامر من قبل ولي الأمر إليهم.

إنَّ الاختلال في تطبيق هذه القاعدة عادة ما يكون عند الاضطراب والاختلاف والتأويل وكثرة القيل والقال، فيقول هذا كلمة في حق قيادته فيها شيء من الجرأة المحفوفة بشيء من الأدب، ويجيبه الآخر بكلمة مجردة عن الأدب، وتتجاوب الأصداء من ثالث يهاجم بغير أدب وبجرأة وهكذا!

والنجاة في هذا باتباع ما أمر الله بوجوب الرد إلى أولي الأمر مع كامل الأدب، وذلك أنَّ الأمر العام إذا أذيع كانت خطورته كفيلة بأن تدمر مجموعة الجهاد، فكيف إذا تعلقت إشاعته بالأمير.

والقاعدة في مثل هذا أن نقول: رد ما اخْتلف عليك الفهم فيه إلى ما لا يختلف عليك فهمه. إذا كان الأصل ذلك فينبغي أن ترد كلَّ طارئ يطرأ من أفكار وسوء فهم أو نحو ذلك إلى الأصل الراسخ، وتطرد وارد السوء كما تطرد الشيطان بالاستعاذة.

نعم، لابد أن يطرأ على الأفراد ما يطرأ، وهذا من الابتلاء الذي يعرض على الفرد في عبادته والتزامه أحكام الله، أليس طاعة ولي الأمر من العبادات؟

والإعادة إلى الأصل كانت هي العروة التي لجأ إليها أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه من أعظم فتنة، فتنة الإفك، وما أدراك ما الإفك؟! فكان فضل الله على أبي أيوب وعلى أهله أن حفظ لهما موقفهما مع من حفظ في قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور:١٢].

والعجب كل العجب من بعض أفراد جماعات الجهاد الذين يظنون أنَّ لهم الحق المطلق في معارضة كل شيء! ولهم الحق المطلق في معرفة كل شيء! ولهم الحق المطلق في خلع طاعة أميرهم في أيِّ وقت شاءوا! وأنَّ من حقهم أن يتحدثوا ويذيعوا إذا لم تُلبَّ طلباتهم! وكأنَّ بيعتهم بيعة على اتباع أنفسهم، وطاعة أهوائهم لا طاعة أمرائهم!

وكأنَّ البيعة على الطاعة عصًا غليظة مسلَّطة على ظهور أمرائهم وجماعاتهم يرفعونها إذا لم يقتنعوا أو لم يفهموا أو لم يرضوا، وفوق هذا يحتج بعض هؤلاء الأفراد بأدلة من الكتاب والسنة كاحتجاجهم بحديث النبي ﷺ المروي عن علي رضي الله عنه حين قال: بعث رسول الله ﷺ سرية وأمَّر عليهم رجلاً وأمرهم أن يطيعوه، فأغضبه عليهم فقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: قد عزمتُ عليكم لما جمعتم حطبًا وأوقدتم نارًا ثم دخلتم فيها، فجمعوا حطبًا فأوقدوا

نارًا، فلما هموا بالدخول، فقاموا ينظر بعضهم إلى بعض، فقال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فرارًا من النار أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار وسكن غضبه، فذكر للنبي ﷺ فقال: (لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا، الطاعة في المعروف)[1].

نعم هذا الحديث دليل عظيم على عدم جواز الطاعة إلا في المعروف، لكن الحديث يشير إلى مبدأ قد استقرَّ عند الصحابة رضي الله عنهم، ذلك هو عظم طاعة الأمير... حتى إنهم لشدة استقرار هذا المبدأ عندهم ترددوا في دخول النار الموقدة أمامهم! أيدخلون أم لا يدخلون؟ فرضي الله عنهم، لكنهم هُدُوا للحق بفضل الله تعالى وحده. نعم، إننا أول من يقول بوجوب البيعة على الاستطاعة، والبيعة على المعروف، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا طاعة في قتل مسلم من المسلمين بغير حق، ولا طاعة في استباحة دماء إخوان الجهاد ولا أعراضهم.

فإذا كان الأمر كذلك فليس من المعقول ولا من الإنصاف كما أنه ليس من الشرع أن تطالب بإيضاح كل جزئية لك، وإلا أذعت عدم قناعتك، وجرَّأت أفراد جماعتك، أو خلعت بيعتك وشققت عصا الطاعة! إنَّ هذا كمن اشترط على أبيه إيضاح جميع أوامره إليه وإلا بدأ يشق عصا الطاعة عليه، وتحدَّث عنه أمام الأبناء وأذاع ذلك عنه.

فإذا لم تكن الطاعة والتسليم في الأمور الاجتهادية لمن أمر الله بطاعته فما معنى

(١) حديث صحيح، وقد سبق تخريجه.

الطاعة؟! وإذا لم تكن الطاعة إلا عند القناعة، فما مزية الأمير عن أيٍّ أمر يقتنع فيه الناس ويعملونه؟!

وإذا لم تستشعر الطاعة وأنت في هذه المرحلة الجهادية الحرجة، فمتى تكون الطاعة؟!

اللهم اهدنا وسددنا وجنبنا الهوى وحظوظ النفس، إنك سميع مجيب.



العهد الثاني عشر
عهد الدفع الواجب

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٦-١٦٧].

قال الإمام الطبري: (يعني تعالى ذكره بذلك عبدَ الله بن أبيٍّ ابن سلول المنافق وأصحابه الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، حين سار نبيُّ الله ﷺ إلى المشركين بأُحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا. فقالوا: لو نعلم قتالاً لسرنا معكم إليهم، ولكن لا نرى أن يكون بينكم وبين القوم قتال! فأبدَوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه ويخفونه، من عداوة رسول الله ﷺ وأهل الإيمان به)(١).

(١) جامع البيان ٧/ ٣٧٨.

وقال ابن كثير: (﴿ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾، قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، وأبو صالح، والحسن، والسدي: يعني كثِّروا سواد المسلمين. وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء. وقال غيره: رابطوا)[1].

وقال ابن أبي زمنين: (﴿ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ ﴾، وإذا قال الله أقرب، قال الحسن: فهو اليقين، أي: أنهم كافرون)[2].

وقال أبو حيان: (﴿ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾، وأكثر العلماء على أنَّ هذه الجملة تضمَّنت النص على كفرهم)[3].

❊ ❊ ❊

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٦٠.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين ١/ ٣٣٢.
(٣) البحر المحيط ٣/ ١١٥.

الوصايا

الوصية الأولى: العلم بأنَّ الإعراض عن الجهاد نفاق

الإعراض عن الجهاد من كبائر الذنوب، وكراهية انتصار المؤمنين ردة، والفرح بنصر الكافرين ردة، وتمني هزيمة المؤمنين وانتصار عدوهم عليهم ردة، وهكذا... فإن الجهاد فصَّال بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر.

فعن أبي أمامة الباهلي، عن النبيِّ ﷺ قال: (من لم يغز أو يجهِّز غازيًا أو يخلف غازيًا في أهله بخير أصابه الله بقارعة)[١].

يقول شيخ الإسلام: (ومن هذا الباب الإعراض عن الجهاد فإنه من خصال المنافقين، قال النبي ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق». رواه مسلم[٢]. وقد أنزل الله سورة براءة التي تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، أخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس قال: هي الفاضحة، ما زالت تنـزل ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها...

(١) أخرجه الدارمي (٢٤٦٢)، وأبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجه (٢٧٦٢)، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (٩٩)، والطبراني (٧٧٤٧)، والبيهقي ٩/ ٤٨. وحسنه الألباني وعبد القادر، وقال شعيب: حديث صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٠) (١٥٨)، وأحمد ٢/ ٣٧٤، وأبو داود (٢٥٠٢)، والنسائي ٦/ ٨، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

وعن المقداد بن الأسود قال: هي سورة البحوث؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين.

وعن قتادة قال: هي المثيرة؛ لأنها أثارت مخازي المنافقين.

وعن ابن عباس قال: هي المبعثرة. والبعثرة والإثارة متقاربان.

وعن ابن عمر: إنها المقشقشة؛ لأنها تبرئ من مرض النفاق، يقال تقشقش المريض، إذا برأ.

وقال الأصمعي: وكان يقال لسورتي الإخلاص[1]: المقشقشتان؛ لأنهما يبرئان من النفاق.

وهذه السورة نزلت في آخر مغازي النبي ﷺ، غزوة تبوك، عام تسع من الهجرة، وقد عزَّ الإسلام وظهر، فكشف الله فيها أحوال المنافقين، ووصفهم فيها بالجبن، وترك الجهاد، ووصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله، والشح على المال، وهذان داءان عظيمان: الجبن، والبخل.

قال النبي ﷺ: «شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع»[2]. حديث صحيح)[3].

---

(١) الكافرون، وقل هو الله أحد.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٧١٤١)، وأحمد ٢/ ٣٠٢ و٣٢٠، وعبد بن حميد (١٤٢٨)، وأبو داود (٢٥١١)، وابن حبان (٣٢٥٠)، والبيهقي ٩/ ١٧٠، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ. وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب وعبد القادر.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٣٦-٤٣٧.

الوصية الثانية: اليقظة في اللحظة الحرجة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإنَّ ابن أُبيٍّ كان مظهرًا لطاعة النبي ﷺ والإيمان به، وكان كل يوم جمعة يقوم خطيبًا في المسجد يأمر باتباع النبي ﷺ، ولم يكن ما في قلبه يَظهر إلا لقليل من الناس إن ظهر، وكان معظَّمًا في قومه، كانوا قد عزموا أن يتوِّجوه ويجعلوه مثل الملك عليهم، فلما جاءت النبوة بطل ذلك، فحمله الحسد على النفاق، وإلا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو إليه، وإنما كان هذا في اليهود، فلما جاء النبي ﷺ بدينه وقد أظهر الله حسنه ونوره مالت إليه القلوب، لاسيما لما نصره الله يوم بدر)[(١)].

هكذا هُم المنافقون عُدَّةٌ للعدو وسط صفوف المسلمين تؤدي دورها المطلوب في اللحظة الحرجة، فهم مع رسول الله ﷺ في المدينة، ومعه في المسجد، ومعه حتى في المشاورات الأخيرة لاختيار موقع الغزوة وموقع جند المسلمين حيث الاستشارة: أيكون الدفاع عن المدينة من داخل المدينة أو في خارج المدينة، ومع أنه ﷺ خرج لقتال المشركين خارج المدينة ولم يوافق رأي ابن أُبيٍّ إلا أنَّ المنافقين خرجوا مع رسول الله ﷺ. حتى إذا كانوا في الطريق رجعوا وتركوا رسول الله ﷺ وجنده.

وهكذا هُم في كل وقت من الأوقات، ينتظرون اللحظة الحرجة، والضربة القاصمة التي يقضون بها على الإسلام وجنده، وهذا يقتضي يقظة المسلمين الدائمة، وتوقع كل

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨٠.

طارئ، وأسوأ طارئ في آخر لحظة، وعدم الاتكال على خطة واحدة، وعدم الإفصاح عن كل شيء لكل أحد في كل مرحلة.

الوصية الثالثة: التحريض على الجهاد

لا أشك أنَّ الصحابة كانوا كارهين لعودة هؤلاء المنافقين من المعركة، إلا أنَّ الله تعالى لم يذكر كلَّ الصحابة المجاهدين في هذه الآية بشيء، إنما ذكر الذين أنكروا على المنافقين، وحرَّضوهم على القتال، قال الله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

فكم سيبقى إحساس هذا الصحابي الكريم عبد الله بن عمرو بن حرام وذراريه بفضل الله العظيم كلما قرأ هذه الآية، ورأى إشارة الله جلَّ في علاه له في الآية، وذكر قوله الذي قاله للمنافقين منصوصًا عليه في القرآن الكريم، فليهنأ بخصوصية فضل الله تعالى أولئك المحرِّضون الباقون إلى يوم القيامة على الجهاد، والنهي عن الفرار، ودعوة المتخلفين بالمشاركة، كما شُرِّفَ عبد الله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه بذلك الشرف الوافي حين ذُكر في أعظم كتاب.

الوصية الرابعة: الإفادة في الدفع من كل أحد

قال ابن عطية الأندلسي: (وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ قول عبد الله بن عمرو:﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾، إنما هو استدعاء القتال حميَّة؛ لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا أهل ذلك، عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث الأنفة، أي: قاتلوا دفاعًا عن الحوزة، ألا ترى أنَّ قزمان قال: واللهِ ما قاتلت إلا على حساب قومي، وألا ترى أنَّ بعض الأنصار قال يوم أحد لما رأى قريشًا أرسلت الظهر في زروع قناة، قال: أترعى زروع بني قيلة ولما نضارب؟! وكان النبي ﷺ قد أمر أن لا يقاتل أحد حتى يأمره بالقتال، فكأنَّ عبد الله بن حرام دعاهم إلى هذا المقطع العربي الخارج عن الدين والقتال في سبيل الله)[1].

وذكر القرطبي نحو هذا الكلام.

وقال الرازي: (قوله: ﴿ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾، يعني: إن كان في قلبكم حب الدين والإسلام فقاتلوا للدين والإسلام، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعًا عن

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٥٣٩. قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٠٧ في ترجمة ابن عطية: (الإمام الحافظ، الناقد المجوِّد أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي الأندلسي الغرناطي المالكي... قال ابن بشكوال: كان حافظًا للحديث وطرقه وعلله، عارفًا بالرجال، ذاكرًا لمتونة ومعانيه، قرأت بخط بعض أصحابنا أنه سمعه يذكر أنه كرر عليه صحيح البخاري سبع مئة مرة، قال: وكان أديبًا، شاعرًا، لغويًا، ديِّنًا، فاضلاً، أكثر الناس عنه، وكُفَّ بصره في آخر عمره، وكتب إلينا بإجازة ما رواه).

أنفسكم وأهليكم وأموالكم، يعني كونوا إما من رجال الدين، أو من رجال الدنيا. قال السدِّي وابن جريج: ادفعوا عنا العدو بتكثير سوادنا وإن لم تقاتلوا معنا. قالوا: لأنَّ الكثرة أحد أسباب الهيبة والعظمة. والأول هو الوجه)[١].

وقال الرازي عند قوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ ﴾: (واعلم أنَّ رجوعهم عن معاونة المسلمين دلَّ على أنهم ليسوا من المسلمين، وأيضًا قولهم: ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾، يدل على أنهم ليسوا من المسلمين، وذلك لأنا بيَّنا أنَّ هذا الكلام يدل إما على السخرية بالمسلمين، وإما على عدم الوثوق بقول النبي ﷺ، وكل واحد منهما كفر)[٢].

وقال السمرقندي: ﴿ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ﴾، يعني: إن لم تقاتلوا لوجه الله فقاتلوا دفعًا عن أنفسكم وحريمكم)[٣].

وقال أبو حيان: ﴿ أَوِ ادْفَعُوا ﴾، وقيل المعنى: أو ادفعوا حمية؛ لأنه لما دعاهم أولاً إلى أن يقاتلوا في سبيل الله وجد عزائمهم منحلة عن ذلك، إذ لا باعث لهم في ذلك لنفاقهم، فاستدعى منهم أن يدفعوا عن الحوزة، فنبه على ما يقاتل لأجله، إما لإعلاء الدين، أو لحمى الذمار)[٤].

---

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٧٠.
(٢) المصدر نفسه ٩/ ٧٠.
(٣) بحر العلوم ١/ ٢٨٨.
(٤) البحر المحيط ٣/ ١١٤.

وقال النيسابوري: ﴿ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾، عن أنفسكم وأهليكم إن لم يكن بكم همٌّ الآخرة وطلب مرضاة الله، أي كونوا من رجال الدين أو من رجال الدنيا)[١].

وقال الخطيب الشربيني: ﴿ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾، أي: إن كان في قلبكم حب الإيمان فقاتلوا للدين، وإن لم تكونوا كذلك فقاتلوا دفعًا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم)[٢].

وقال الشوكاني: ﴿ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر، ﴿ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾، عن أنفسكم، إن كنتم لا تؤمنون بالله واليوم الآخر، فأبوا جميع ذلك... والقائل للمنافقين هذه المقالة التي حكاها الله سبحانه هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، والد جابر بن عبد الله)[٣].

وقال الشيخ محيي الدين شيخ زادة في حاشيته على تفسير البيضاوي في قوله تعالى: ﴿ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾: (تقسيم للأمر عليهم، وتخيير بين أن يقاتلوا للآخرة أو للدفع عن الأنفس والأموال، وقيل: معناه قاتلوا الكفرة أو ادفعوا بتكثيركم سواد المجاهدين؛ فإنَّ كثرة السواد مما يرد العدو ويكسر همته)[٤].

وقال الآلوسي: ﴿ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ ﴾، قال السدي وابن جريج: أو ادفعوا عنا العدو بتكثير السواد. وهو المروي عن ابن عباس، وقيل: إنهم خُيروا بين أن

---

(١) تفسير النيسابوري، تفسير الآية (١٦٧) من سورة آل عمران.
(٢) السراج المنير ١/ ٢٩٨.
(٣) فتح القدير ١/ ٣٩٦.
(٤) حاشية محي الدين شيخ زاده ٣/ ٢٠٧.

يقاتلوا للآخرة أو لدفع الكفار عن أنفسهم وأموالهم، أو بين الأول وبين دفع المؤمنين عن ذلك، كأنه قيل: قاتلوا لله تعالى أو للنفاق الدافع عن أنفسكم وأموالكم)[١].

وقال السعدي: (﴿أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾، عن محارمكم وبلدكم إن لم يكن لكم نية صالحة. ويستدل بهذه الآية على قاعدة ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما؛ لأنَّ المنافقين أُمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان)[٢].

فالذي يظهر والله أعلم، أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعُواْ﴾، غير قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ﴾، فالعطف يقتضي المغايرة، وأنَّ قوله: ﴿ٱدْفَعُواْ﴾ ليس ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بالنسبة للمنافقين، ولذا قال سبحانه: ﴿قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾، ولم يقل: في سبيل الله. بعد ادفعوا، ولم يقل: قاتلوا أو ادفعوا في سبيل الله لتشمل الاثنين.

ومن ثم فهنا حكم في غاية الأهمية لواقعنا هو أنك إذا وجدتَ من يدافع عن الحرمات، وعن الأرض، وعن العرض، وعن الممتلكات في مقابل العدو الذي يهددها وأنت محتاج إليه- كما هو حالنا اليوم- فعليك أن تشجعه، وكذلك يجب نصحه ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يحل لك أن تتصرف تصرفات تجعله في خانة العدو كما يفعل بعض الغلاة، فإن فعلت ذلك فلعلك تتحمل تبعة ذلك من

(١) روح المعاني ٤/ ١١٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص١٥٦.

أضرار تصيب الأرض والعرض والشرف والدين... فالآية ذكرت مَن طلب من المنافقين أن يدفعوا ما يستطيعون، ولو كان عمله محرَّمًا أو مذمومًا لبيَّن اللهُ جلَّ وعلا ذلك في كتابه.

فما دام التعاون متحققًا في هذه المسألة دون أن يترتب على ذلك مفاسد أعظم فهو مطلوب، بل مأمور به، فكيف إذا كان في جهاد دفع، وكيف إذا كان فيه حفظ للدين وللعرض وللضرورات الخمس؟!

وقد يرى البعض عدم جواز التعاون مع بعض الجماعات الجهادية لما فيها من بدع غير مكفِّرة ضد أعداء الله من الباطنيين أو الصليبيين ونحوهم.

ونحن نقول بكل وضوح: إنَّ هذا القول لا يصح البتة في الجماعات التي لم تبرح ساحات الجهاد ولم تساوم على جهادها ولم تسلك مسالك تضر بالجهاد.

وأيُّ جماعة وقع بعض أفرادها في الكفر فإنه لا يُحكم بكفر الجماعة كلها بجريرة أولئك الأفراد إلا إذا أَقرت الجماعةُ ذلك الكفر ونحو ذلك، وقد ذكر أهل العلم أنَّ إنزال الكفر على المعيَّن لا بد له من توفر شروط وانتفاء موانع، أما الفرد من أي جماعة فإنه يكفر بقول أو فعل مُكفِّر، إذا قامت عليه الحجة الرسالية بتوفر الشروط وانتفاء الموانع[1].

---

(١) ونحذِّر من الغلو في التكفير، فإنه من صفات الخوارج كلاب النار كما وصفهم النبيُّ ﷺ، وعلى طالب العلم المبتدئ أن يعرف قدر نفسه، ولا يتكلم في مسائل توقف في دونها أئمة، وننصح من أراد

وهنا لا بد لنا من بيان خطورة التكفير بغير حق، أو عدم التفريق بين تكفر المعين والتكفير المطلق، وبعبارة أخرى عدم التفريق بين من وقع في الكفر أو وقع عليه الكفر، فالأول (مَن وقع في الكفر) لا يجوز تكفير عينه إلا بعد توفر الشروط وانتفاء الموانع، أما الثاني (من وقع عليه الكفر) فقد حُكِم عليه بأنه كافر بعينه؛ لتوفر الشروط وانتفاء الموانع.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام نافع في ذلك، ينبغي الوقوف عليه وتأمله جيدًا، حتى لا نقع في كبيرة التكفير بغير حق، ونشابه الخوارج الذين وصفهم النبي ﷺ بأنهم كلاب أهل النار.

قال رحمه الله: (وكنت أبين لهم أنَّ ما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا، فهو أيضًا حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين، وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار، وهي مسألة الوعيد، فإنَّ نصوص القرآن في الوعيد مطلقة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠]. وكذلك سائر ما ورد: من فَعَل كذا، فله كذا. فإنَّ هذه مطلقة عامة، وهي بمنزلة قول من قال من السلف: من قال كذا، فهو كذا. ثم الشخص المعيَّن يلتغي حكم الوعيد فيه بتوبة، أو

أن يفهم هذا الباب من العلم أن يقرأ الكتب الآتية: ١- نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف د. محمد الوهيبي ٢- نواقض الإيمان القولية والعملية د. عبد العزيز العبد اللطيف.

حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعة مقبولة. والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ، لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع هذه النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئًا)[1].

وقال رحمه الله: (إنَّ المجتهد في مثل هذا من المؤمنين إن استفرغ وسعه في طلب الحق، فإنَّ الله يغفر له خطأه، وإن حصل منه نوع تقصير، فهو ذنب لا يجب أن يبلغ الكفر، وإن كان يطلق القول بأنَّ هذا الكلام كفر، كما أطلق السلف الكفر على من قال ببعض مقالات الجهمية، مثل القول بخلق القرآن، أو إنكار الرؤية، أو نحو ذلك مما هو دون إنكار علوِّ الله على الخلق، وأنه فوق العرش، فإنَّ تكفير صاحب هذه المقالة كان عندهم من أظهر الأمور، فإنَّ التكفير المطلق، مثل الوعيد المطلق، لا يستلزم تكفير الشخص المعَّين حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ في الرجل الذي قال: «إذا أنا مِتُّ فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في اليمِّ، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العاملين ...».

فهذا الرجل اعتقد أنَّ الله لا يقدر على جمعه إذا فعل ذلك، أو شك، وأنه لا يبعثه، وكل من هذين الاعتقادين كفر، يكفر من قامت عليه الحجة، لكنه كان يجهل ذلك،

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٣١.

ولم يبلغه العلم بما يرده عن جهله، وكان عنده إيمان بالله وبأمره ونهيه، ووعده ووعيده، فخاف من عقابه، فغفر الله له بخشيته. فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد، من أهل الإيمان بالله وبرسوله، وباليوم الآخر والعمل الصالح، لم يكن أسوأ حالاً من هذا الرجل، فيغفر الله خطأه، أو يعذِّبه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدر دينه. وأما تكفير شخص عُلم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم)[1].

وقال رحمه الله: (فهذا رجلٌ شكَّ في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُرِّي، بل اعتقد أنَّه لا يعادُ، وهذا كفرٌ باتِّفاق المسلمين، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مُؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك)[2].

وقال رحمه الله: (فهذه المقالات هي كفر، لكنَّ ثبوت التكفير في حق الشخص المعيَّن موقوف على قيام الحجة التي يكفر تاركها، وإن أطلق القول بتكفير من يقول ذلك، فهو مثل إطلاق القول بنصوص الوعيد، مع أنَّ ثبوت حكم الوعيد في حق الشخص المعين موقوف على ثبوت شروطه، وانتفاء موانعه)[3].

وقال رحمه الله: (وأما الفرائض الأربع فإذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة فهو كافر، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها

---

(١) الاستقامة ١/ ١٦٣ - ١٦٥.
(٢) مجموع الفتاوى ١٣/ ٣٣١.
(٣) بغية المرتاد ٣٥٣ - ٣٥٤.

كالفواحش، والظلم، والكذب، والخمر، ونحو ذلك. وأما من لم تقم عليه الحجة، مثل أن يكون حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شرائع الاسلام، ونحو ذلك، أو غلط فظن أنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يُستثنون من تحريم الخمر، كما غلط في ذلك الذين استتابهم عمر، وأمثال ذلك، فإنهم يستتابون وتقام الحجة عليهم، فإن أصرُّوا كفروا حينئذ، ولا يُحكم بكفرهم قبل ذلك، كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مظعون وأصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل)[1].

وقال رحمه الله: (ولهذا أطلق الأئمة القول بالتكفير، مع أنهم لم يحكموا في عين كل قائل بحكم الكفار، بل الذين امتحنوهم، وأمروهم بالقول بخلق القرآن، وعاقبوا من لم يقل بذلك؛ إما بالحبس والضرب، والإخافة وقطع الأرزاق، بل بالتكفير أيضًا، لم يُكفِّروا كلَّ واحد منهم، وأشهر الأئمة بذلك الإمام أحمد، وكلامه في تكفير الجهمية، مع معاملته مع الذين امتحنوه وحبسوه وضربوه مشهور معروف)[2].

وقال رحمه الله: (والمحفوظ عن أحمد وأمثاله من الأئمة إنما هو: تكفير الجهمية والمشبهة، وأمثال هؤلاء. ولم يكفِّر أحمد «الخوارج»، ولا «القدرية» إذا أقرُّوا بالعلم، وأنكروا خلق الأفعال وعموم المشيئة، لكن حُكي عنه في تكفيرهم روايتان. وأما المرجئة فلا يختلف قوله في عدم تكفيرهم، مع أنَّ أحمد لم يكفِّر أعيان الجهمية، ولا

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٦٠٥.

(٢) بغية المرتاد ص٣٥٤.

كل من قال: إنه جهمي كفَّره، ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم، بل صلَّى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم، وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة، لم يُكفِّرهم أحمد وأمثاله، بل كان يعتقد إيمانهم، وإمامتهم، ويدعو لهم، ويرى الائتمام بهم في الصلوات خلفهم، والحج، والغزو معهم، والمنع من الخروج عليهم ما يراه لأمثالهم من الأئمة. وينكر ما أحدثوه من القول الباطل الذي هو كفر عظيم، وإن لم يعلموا هم أنه كفر، وكان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الإمكان، فيجمع بين طاعة الله ورسوله في إظهار السنة والدين، وإنكار بدع الجهمية الملحدين، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة، وإن كانوا جهالاً مبتدعين، وظلمة فاسقين)[١].

وقال رحمه الله: (وإنما كان «أحمد» يُكفِّر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته؛ لأنَّ مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ﷺ ظاهرة بينة، ولأنَّ حقيقة قولهم تعطيل الخالق، وكان قد ابتُلي بهم حتى عُرِف حقيقة أمرهم، وأنه يدور على التعطيل، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة، لكن ما كان يكفر أعيانهم، فإنَّ الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط، والذي يُكفِّر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية: إنَّ القرآن مخلوق، وإنَّ الله لا يُرى في الآخرة، وغير ذلك، ويدعون

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٥٠٧ – ٥٠٨.

الناس إلى ذلك، ويمتحنونهم ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم، ويكفِّرون من لم يجبهم، حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقرَّ بقول الجهمية: إنَّ القرآن مخلوق وغير ذلك، ولا يولون متوليًا ولا يعطون رزقًا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع هذا فالإمام أحمد، رحمه الله تعالى، ترحم عليهم واستغفر لهم؛ لعلمه بأنهم لم يُبَيَّن لهم أنهم مُكذِّبون للرسول ﷺ، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطئوا، وقلَّدوا من قال لهم ذلك. وكذلك الشافعي لما قال لحفص الفرد، حين قال: القرآن مخلوق: كفرت بالله العظيم. بيَّن له أنَّ هذا القول كفر، ولم يحكم بردة حفص بمجرد ذلك؛ لأنه لم يتبين له الحجة التي يكفر بها، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله)[1].

وقول شيخ الإسلام: «مع أنَّ أحمد لم يُكفِّر أعيان الجهمية» وقوله: «لكن ما كان يُكفِّر أعيانهم، أي الجهمية» في المقطعين السابقَين يفسِّره قوله رحمه الله في موطن آخر: (وحقيقة الأمر أنهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمة ما أصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع، كلما رأوهم قالوا: من قال كذا فهو كافر، اعتقد المستمع أنَّ هذا اللفظ شامل لكل من قاله، ولم يتدبروا أنَّ التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين، وأنَّ تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين، إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، يُبيِّن هذا أنَّ الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يكفِّروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه. فإنَّ الإمام أحمد- مثلاً- قد باشر «الجهمية» الذين

(١) مجموع الفتاوى ٢٣/ ٣٤٨.

دعوه إلى خلق القرآن ونفي الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم، بالضرب، والحبس، والقتل، والعزل عن الولايات، وقطع الأرزاق، ورد الشهادة، وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة، وغيرهم، يكفِّرون كل من لم يكن جهميًّا موافقًا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، فلا يولونه ولاية، ولا يفتكُّونه من عدو، ولا يعطونه شيئًا من بيت المال، ولا يقبلون له شهادة ولا فتيا ولا رواية، ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة والافتكاك من الأسر، وغير ذلك. فمن أقرَّ بخلق القرآن حكموا له بالإيمان، ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان، ومن كان داعيًا إلى غير التجهم قتلوه، أو ضربوه وحبسوه. ومعلوم أنَّ هذا من أغلظ التجهم، فإنَّ الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب. ثم إنَّ الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم؛ فإنَّ الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق، وإنَّ الله لا يُرى في الآخرة. وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفَّر به قومًا معينين، فأما أن

يُذكر عنه في المسألة روايتان، ففيه نظر، أو يُحمل الأمر على التفصيل، فيقال: من كفَّره بعينه؛ فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير وانتفت موانعه، ومن لم يكفِّره بعينه؛ فلانتفاء ذلك في حقه، هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم. والدليل على هذا الأصل: الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار)[1].

وقال رحمه الله أيضًا في التفريق بين الإطلاق والتعيين: (فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب؛ لكونه يحب الله ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة: «لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها». ولكنَّ لعْن المطلق لا يستلزم لعْن المعين، الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة به. وكذلك التكفير المطلق والوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروط، وانتفاء موانع)[2].

وقال رحمه الله: (فعُلم الفرق بين العام المطلق والخاص المعين)[3].

وقال رحمه الله: (ولكنَّ المقصود هنا أنَّ مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين)[4].

وقال رحمه الله: (فتكفير المعيَّن من هؤلاء الجهال وأمثالهم، بحيث يحكم عليه بأنه

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٤٨٨-٤٨٩.
(٢) المصدر نفسه ١٠/ ٣٢٩- ٣٣٠.
(٣) منهاج السنة ٥/ ١٥٤.
(٤) مجموع الفتاوى ٢٣/ ٣٤٨.

من الكفار لا يجوز الإقدام عليه، إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية، التي يتبيَّن بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر. وهكذا الكلام في تكفير جميع المعيَّنين مع أنَّ بعض هذه البدع أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين، وإن أخطأ وغلط، حتى تقام عليه الحجة، وتبيَّن له المحجة. ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة)[1].

وقال رحمه الله: (فإنَّ نصوص الوعيد التي في الكتاب والسنة ونصوص الأئمة بالتكفير، والتفسيق، ونحو ذلك، لا يستلزم ثبوت موجبها في حق المعيَّن، إلا إذا وجدت الشروط، وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع، هذا في عذاب الآخرة، فإنَّ المستحق للوعيد من عذاب الله ولعنته وغضبه في الدار الآخرة خالد في النار، أو غير خالد، وأسماء هذا الضرب من الكفر والفسق، يدخل في هذه القاعدة سواء كان بسبب بدعة اعتقادية، أو عبادية، أو بسبب فجور في الدنيا، وهو الفسق بالأعمال. فأما أحكام الدنيا فكذلك أيضًا، فإنَّ جهاد الكفار يجب أن يكون مسبوقًا بدعوتهم، إذ لا عذاب إلا على من بلغته الرسالة، وكذلك عقوبة الفساق لا تثبت إلا بعد قيام الحجة)[2].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢ / ٥٠٠ – ٥٠١.

(٢) المصدر نفسه ١٠/ ٣٧٢.

وقال رحمه الله في دعاء الأموات: (وأنَّ ذلك من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ﷺ، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبيَّن لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه، ولهذا ما بيَّنت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الدين إلا تفطن، وقال: هذا أصل دين الإسلام. وكان بعض الأكابر من الشيوخ العارفين من أصحابنا يقول هذا أعظم ما بينته لنا؛ لعلمه بأنَّ هذا أصل الدين)[١].

وقال رحمه الله: (فكلُّ عبادة غير مأمور بها فلا بد أن ينهى عنها. ثم إنْ علم أنها منهي عنها وفعلها استحق العقاب، فإن لم يعلم لم يستحق العقاب، وإن اعتقد أنها مأمور بها وكانت من جنس المشروع، فإنه يثاب عليها، وإن كانت من جنس الشرك، فهذا الجنس ليس فيه شيء مأمور به، لكن قد يحسب بعض الناس في بعض أنواعه أنه مأمور به. وهذا لا يكون مجتهدًا؛ لأنَّ المجتهد لا بد أن يتبع دليلاً شرعيًّا، وهذه لا يكون عليها دليل شرعي، لكن قد يفعلها باجتهاد مثله، وهو تقليده لمن فعل ذلك من الشيوخ والعلماء، والذين فعلوا ذلك قد فعلوه لأنهم رأوه ينفع، أو لحديث كذب سمعوه. فهؤلاء إذا لم تقم عليهم الحجة بالنهي لا يعذبون، وأما الثواب فإنه قد يكون ثوابهم أنهم أرجح من أهل جنسهم، وأما الثواب بالتقرب إلى الله فلا يكون بمثل هذه

(١) الاستغاثة الكبرى ١/ ٦٢٩-٦٣١.

الأعمال)[١].

وقال رحمه الله: (ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن يكون الله تعالى فوق عرشه لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافرًا؛ لأني أعلم أنَّ قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون؛ لأنكم جهال، وكان هذا خطابًا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم)[٢].

ويقول رحمه الله: (إنَّ المتأوِّل الذي قَصْدُه متابعة الرسول ﷺ لا يكفر ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفَّروا المخطئين فيها، وهذا القول لا يُعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا يُعرف عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع، الذين يبتدعون بدعة، ويكفِّرون من خالفهم، كالخوارج والمعتزلة والجهمية، ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة، كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وقد يسلكون في التكفير ذلك، فمنهم من يُكفِّر أهل البدع مطلقًا، ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع... وهذا بعينه قول الخوارج والمعتزلة والجهمية، وهذا القول أيضًا لا يوجد في طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة ولا غيرهم، وليس فيهم من كفَّر كل مبتدع، بل المنقولات الصريحة عنهم تناقض ذلك، ولكن قد

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٣٢.
(٢) الاستغاثة الكبرى ١/ ٣٨٣-٣٨٤.

يُنقل عن أحدهم أنه كفَّر من قال بعض الأقوال، ويكون مقصوده أنَّ هذا القول كفر ليحذر، ولا يلزم إذا كان القول كفرًا أن يكفر كلُّ من قاله مع الجهل والتأويل)[1].

ويقول رحمه الله أيضًا: (من عيوب أهل البدع، تكفير بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل العلم أنهم يُخطِّئون ولا يكفِّرون)[2].

ويقول رحمه الله: (فلهذا كان أهل العلم والسنة لا يُكفِّرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يُكفِّرهم، لأنَّ الكفر حكم شرعي، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك، وزنى بأهلك، ليس لك أن تكذب عليه، ولا تزني بأهله، لأنَّ الكذب والزنا حرام لحق الله تعالى، وكذلك التكفير حق لله، فلا يكفر إلا من كفَّره الله ورسوله)[3].

وقال رحمه الله: (إنه لا يُجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه، ولا ببدعة ابتدعها، ولو دعا الناس إليها، كافرًا في الباطن، إلا إذا كان منافقًا، فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول صلى الله عليه وآله وما جاء به، وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع، فهذا ليس بكافر أصلاً، والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالاً للأمة وتكفيرًا لها، ولم يكن في الصحابة من يُكفِّرهم، ولا علي بن أبي طالب ولا غيره؛ بل حكموا فيهم

---

(١) منهاج السنة ٥/ ٢٣٩.
(٢) المصدر نفسه٥/ ٢٥١.
(٣) الرد على البكري ١/ ٣٨١.

بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين)[١].

وتأمل فيما يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكأنه يقدِّم البراءة إلى الله من منهج الغلو في التكفير، فيقول: (إني من أعظم الناس نهيًا عن أن يُنسب مُعَيَّن إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية، التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى، وإني أقرر أنَّ الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعمُّ الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية، كما أنكر شريح قراءة من قرأ: (بل عجبتُ ويسخرون)[٢] (الصافات ١٢)، وقال: إنَّ الله لا يعجب، فبلغ ذلك إبراهيم النخعي، فقال: إنما شُريح شاعر يعجبه علمه، كان عبد الله أعلم منه، وكان يقرأ: (بل عجبتُ)... وكما نازعت عائشةُ رضي الله عنها وغيرها من الصحابة في رؤية محمد ﷺ ربَّه، وقالت: «من زعم أنَّ محمدًا قد رأى ربَّه فقد أعظم على الله الفرية»[٣]. ومع هذا لا تقول لابن عباس رضي الله عنهما ونحوه من المنازعين لها: إنه مفتر على الله. وكما نازعت في سماع الميت

(١) مجموع الفتاوى ٧/ ٢١٧.
(٢) (عجبتُ): هذه قراءة حمزة والكسائي وخلف، ووافقهم الأعمش. وقرأ الباقون: (عجبتَ). يُنظر: الميسَّر في القراءات الأربع عشرة للشيخ محمد فهد خاروف ص٤٤٦.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣٤) و(٤٨٥٥) و(٧٣٨٠)، ومسلم (١٧٧) (٢٨٧) و(٢٨٩)، وأحمد ٦/ ٤٩، والترمذي (٣٠٦٨) و(٣٢٧٨).

كلامَ الحي، وفي تعذيب الميت ببكاء أهله، وغير ذلك، وقد آل الشر بين السلف إلى الاقتتال، مع اتفاق أهل السنة على أنَّ الطائفتين جميعًا مؤمنتان، وأنَّ الاقتتال لا يمنع العدالة الثابتة لهم، لأنَّ المقاتل وإن كان باغيًا فهو متأول، والتأويل يمنع الفسوق)[(١)].

ومع إنكارنا على طوائف إسلامية في بلادنا من مبتدعة ومخرِّفين، أو أحزاب إسلامية سياسية محسوبة على أهل السنة إلا أننا لا يمكن أن نكفرهم جميعًا بأعيانهم وبالعموم لوجود الشبهة في قولهم وعملهم، وهي عندنا شبهة ساقطة، فإنكارنا عليهم واجب، وتكفير أعيانهم جميعًا محرَّم إلا مَن وقع في الكفر وعُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (من أكابر السلف المقتتلين في الفتنة، والسلف المستحلين لطائفة من الأشربة المسكرة، والمستحلين لربا الفَضل، والمتعة، والمستحلين للحشوش، كما قال عبد الله بن المبارك: رُبَّ رجل في الإسلام له قدم حسن وآثار صالحة، كانت منه الهفوة والزلة، لا يقتدى به في هفوته وزلته)[(٢)].

وقال رحمه الله: (فالمقاتل في الفتنة متأولاً لا يعتقد أنه قتل مؤمنًا بغير حق، والمبيح للمتعة والحشوش ونكاح المحلل لا يعتقد أنه أباح زنًا وسفوحًا، والمبيح للنبيذ المتأول فيه، ولبعض أنواع المعاملات الربوية وعقود المخاطرات، لا يعتقد أنه أباح الخمر والميسر والربا، ولكن وقوع مثل هذا التأويل من الأئمة المتبوعين، أهل العلم

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/ ٢٢٩-٢٣٠.
(٢) الاستقامة ١/ ٢١٩.

والإيمان، صار من أسباب المحن والفتنة، فإنَّ الذين يعظمونهم قد يقتدون بهم في ذلك، وقد لايقفون عند الحد الذي انتهى اليه أولئك الأئمة السادة، والذين يعلمون تحريم جنس ذلك الفعل، قد يعتدون على المتأولين بنوع من الذم ما يستحلَّون به من أعراض إخوانهم وغير أعراضهم ما حرَّمه الله ورسوله)(١).

ويعجب المرء من إنصاف هذا الإمام الجليل حتى مع أهل الأهواء والبدع المغلَّظة فيقول قدَّس الله روحه: (والرافضة فيهم من هو متعبد متورع زاهد، لكن ليسوا في ذلك مثل غيرهم من أهل الأهواء، فالمعتزلة أعقل منهم وأعلم وأدين، والكذب والفجور فيهم أقل منه في الرافضة. والزيدية من الشيعة خير منهم، وأقرب الى الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج، ومع هذا فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم، فإنَّ الظلم حرام مطلقًا؛ بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض، بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون هم به، ويقولون: أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضًا. وهذا لأنَّ الأصل الذي اشتركوا فيه أصل فاسد، مبني على جهل وظلم، وهم مشتركون في ظلم سائر المسلمين، فصاروا بمنزلة قطاع الطريق المشتركين في ظلم الناس، ولا ريب أنَّ المسلم العالم العادل أعدل عليهم وعلى بعضهم من بعض... والخوارج تُكفِّر أهل الجماعة، وكذلك أكثر المعتزلة يُكفِّرون من خالفهم،

(١) الاستقامة ١/ ٣٠١-٣٠٢.

وكذلك أكثر الرافضة، ومن لم يكفِّر فَسَّق، وكذلك أكثر أهل الأهواء، يبتدعون رأيًا ويُكفِّرون من خالفهم فيه، وأهل السنة يتبعون الحق من ربهم الذي جاء به الرسول، ولا يُكفِّرون من خالفهم فيه، بل هم أعلم بالحق وأرحم بالخلق، كما وصف الله به المسلمين بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، قال أبوهريرة رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس. وأهل السنة نقاوة المسلمين، فهم خير الناس للناس. وقد علم أنه كان بساحل الشام جبل كبير فيه ألوف من الرافضة، يسفكون دماء الناس ويأخذون أموالهم، وقتلوا خلقًا عظيمًا، وأخذوا أموالهم، ولما انكسر المسلمون سنة قازان أخذوا الخيل والسلاح والأسرى وباعوهم للكفار النصارى بقبرص، وأخذوا من مرَّ بهم من الجند، وكانوا أضرَّ على المسلمين من جميع الأعداء، وحمل بعض أمرائهم راية النصارى، وقالوا له: أيهما خير المسلمون أو النصارى؟ فقال: بل النصارى. فقالوا له: مع مَن تحشر يوم القيامة؟ فقال مع النصارى. وسلموا إليهم بعض بلاد المسلمين، ومع هذا فلما استشار بعض ولاة الأمر في غزوهم، وكتبت جوابًا مبسوطًا في غزوهم، وذهبنا إلى ناحيتهم، وحضر عندي جماعة منهم، وجرت بيني وبينهم مناظرات ومفاوضات يطول وصفها، فلما فتح المسلمون بلدهم وتمكن المسلمون منهم نهيتهم عن قتلهم وعن سبيهم، وأنزلناهم في بلاد المسلمين متفرقين؛ لئلا يجتمعوا)[1].

---

(١) منهاج السنة٥/ ١٦٠. وأرجو من القارئ الكريم أن يتأمل جيدًا في السطر الأخير من كلام شيخ

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لم يُكفِّر البكري الضال المخرِّف المعروف الذي أَلَّف في مشروعية الاستغاثة بغير الله، والذي ردَّ عليه شيخ الإسلام في كتابه «الاستغاثة الكبرى»، فقال رحمه الله: (فلهذا لم نقابل جهله وافتراءه بالتكفير بمثله)(١).

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: وإن كنا لا نكفِّر من عبد قبة الكوَّاز؛ لجهلهم وعدم من ينبههم، فكيف ممن لم يُهاجر إلينا؟

ويقول أيضًا: وإذا كنا لا نكفِّر من عبد الصنم الذي على عبد القادر، والصنم الذي على قبر أحمد البدوي، وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم(٢).

وقال، وقد سئل عن هؤلاء الجهال: (إنَّ من قامت عليه الحجة وتأهل لمعرفتها، يكفر بعبادة القبور، وأما مَن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فلا أدري ما حاله)(٣).

وللإمام الذهبي كلمة نفيسة في التحذير من الغلو في التكفير، حيث يقول رحمه الله: (رأيت للأشعري كلمة أعجبتني، وهي ثابتة رواها البيهقي، قال: سمعت أبا حازم العبدوي، قال: سمعت زاهر بن أحمد السرخسي، يقول: لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، دعاني فأتيته، فقال: اشهد عليَّ أني لا أُكفِّر أحدًا

الإسلام. ولو أنَّ عالماً قال بهذا القول في هذا الزمان من باب السياسة الشرعية فماذا سيقول عنه أهل الغلو؟!

(١) المصدر نفسه ١/ ٣٨٤.

(٢) الدرر السنية ١/ ١٠٤.

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل ٣/ ٥.

من أهل القبلة؛ لأنَّ الكل يُشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات.

قلت (القائل الذهبي): (وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه يقول: أنا لا أُكفِّر أحدًا من الأمة، ويقول: قال النبي ﷺ: «لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[(١)]، فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم)[(٢)].

وقال ابن حجر العسقلاني: (قال الغزالي: ينبغي الاحتراز عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً، فإنَّ استباحة دماء المصلين المقرين بالتوحيد خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك دم مسلم واحد)[(٣)].

وقال الشوكاني: (اعلم أنَّ الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر، لاينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث المروية من طريق جماعة من الصحابة، أنَّ من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما)[(٤)].

وقال الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: (وبالجملة فيجب على من نصح نفسه ألا يتكلم في هذه المسألة إلا بعلم وبرهان من الله، وليحذر من إخراج رجل من

(١) أخرجه عن ثوبان مرفوعًا: أحمد ٥/ ٢٧٦ و٢٨٠ و٢٨٢، والدارمي (٦٥٥) و(٦٥٦)، وابن ماجه (٢٧٧). وأخرجه عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: ابن ماجه (٢٧٨)، وصححه الألباني وشعيب.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٨٨.

(٣) فتح الباري ١٢/ ٣١٤.

(٤) السيل الجرار٤/ ٥٧٨. والحديث أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) (١١١)، وأحمد ٢/ ١٨ و٢٣ و٤٤ و٤٧ و٦٠ و١١٢ و١١٣، وأبو داود(٤٦٨٧)، والترمذي (٢٦٣٧).

الإسلام بمجرد فهمه، واستحسان عقله، فإنَّ إخراج رجل من الإسلام، أو إدخاله فيه، من أعظم أمور الدين)[١].

وانظر كلام شيخ الإسلام وعدله في الصوفية، يقول رحمه الله: (فطائفة ذمَّت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونُقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام، وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففيهم السابق المقرَّب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء، وفيهم من يذنب فيتوب أو لايتوب، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاصٍ لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلاً، فإنَّ أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه من الطريق، مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية، وذكره الحافظ أبوبكر الخطيب في تاريخ بغداد)[٢].

ووالله لو عرض بعض كلام هؤلاء الذين امتدحهم شيخ الإسلام دون أن أذكر

---

(١) الدرر السنية ٨/ ٢١٧.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ١٧-١٨.

قول شيخ الإسلام على أهل الغلو لكفروهم وأخرجوهم من الإسلام، بينما شيخ الإسلام قد استقرأ أقوالهم استقراءً وأصدر حكمه هذا عن بينة، وحاشاه رحمه الله أن يُتهم بعدم معرفتهم، ولا يقول ذلك إلا من لم يقرأ فتاواه وكتبه ولم يعرف عنه إلا مقتطفات قرأها عند غيره، ولم يعرف ردوده على مختلف الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية، الغلاة منهم والمعتدلين، وهو الذي يقول قدَّس الله روحه: (واللهُ قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أونصراني فضلاً عن الرافضي قولاً فيه حق أن نتركه أونرده كلَّه، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق)[1].

وكم ممن ينتسب اليوم إلى السنة والسلفية - والسلفية منه براء- ينكر على بعض أهل الجهاد ابتداعهم...

ولو أنصف لعلم أنه المبتدع والفاسق والمنافق وإن تزيا بزي السنة، وذلك بتخليه عن الجهاد في سبيل الله، وتعويقه الناس عن الجهاد، ولمزه المجاهدين، وبعضهم يجاهر بذلك متقربًا، فأي تلبيس وإضلال مثل هذا، وسورة التوبة زاخرة بفضح من أتى ببعض ما ذكرنا عمن سبق.

ونحن نرى أنَّ المجاهد المتلبس ببعض البدع غير المكفرة كسؤال الله بجاه الصالحين ونحو هذه الأمور، هو أفضل بكثير من القاعد بغير عذر وإن كان على منهج السلف

(١) منهاج السنة ٢/ ٣٤٢.

في هذه المسائل.

ووالله إنَّ من أعظم عوائق تجديد الدين وجود هؤلاء الخوالف في موقع الإمامة وحقهم القيامة...

وهل أمر الله بهدم المسجد وهو أطهر بقاع الأرض وإحراقه إلا لأجل من اتخذه ضرارًا، إذًا فما مصير أهل الضرار أنفسهم؟!

فما من حاكم عصري طاغوت ساقط إلا ذهبوا لإنقاذه، والناس تزفر في الشوارع إنكارًا عليه...

وهم يقولون مرة: لا تجوز المظاهرات، ومرة: لا يجوز تقليد اليهود والنصارى بهذا الأسلوب! وتعويذتهم الدائمة: لا يجوز الخروج على ولي الأمر!

ومرة ومرة... وهكذا كانوا مع زين العابدين بن علي ثم مع القذافي ومع حسني ومع علي عبد الله صالح، وأخيرًا مع «طرطور السيسي» عدلي منصور.

ثم فجأة يتحولون إذا تحول حاكمهم من الضد إلى الضد!

وتحول حاكمهم مفضوح مكشوف وذلك بتحول التوجه الأمريكي.

وبهذا نعيش نحن أصعب حقيقة، وهي أنَّ كثيرًا من منابر الإسلام تسمع وتطيع لحكام لا يعرفون الله ويوالون أعداء الله من الصليبيين وغيرهم.

وأول هذه المنابر منابر الحرمين والمساجد الكبرى في بلاد الإسلام.

إنَّ الفتاوى في الفرعيات العبادية أو في الخلافات العقدية شيء، والفتوى في شؤون

أمة محمد ﷺ الكبرى شيء آخر.

إنَّ ضرر هؤلاء العلماء[١] الحكوميين جعل دين محمد عليه الصلاة والسلام عند كثير من العوام على دين ملوك هؤلاء.

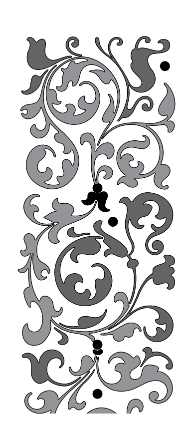
إنه دين ملوكهم لا دين رسول الله ﷺ.

إنهم حولوا الإسلام من حقيقة عظمى إلى صورة، وصورة مقطعة مبعثرة هنا وهناك، وجعلوا الغلبة للصورة لا للحقيقة.

ولا أدري ما رصيد هؤلاء في فهم الواقع، وفهم كلمة الحق والمواجهة مع الطاغوت... إذا كانوا هم شماعة الطاغوت بل حربته المجربة النافذة في نحر كلمة الحق، وهل العراق إلا ضحية فتوى هؤلاء بجواز نصرة الصليبيين ومشروعيته، بل هل رأس الأمة تهادى على الأرض إلا من بعد رأس العراق؟!



(١) وتسميتهم بالعلماء تجوزًا، وإلا فالعالم الحقيقي هو الذي يخشى الله تعالى.



العهد الثالث عشر
دعوة الخوالف

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

قال الإمام الطبري: (وهذا استثناء من الله جلَّ ثناؤه، استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا وأخلصوا الدين لله وحده، وتبرؤوا من الآلهة والأنداد، وصدَّقوا رسوله، أن يكونوا مع المصرِّين على نفاقهم، حتى يوفيهم مناياهم في الآخرة، وأن يدخلوا مداخلهم من جهنم؛ بل وعدهم جلَّ ثناؤه أن يحلهم مع المؤمنين محلَّ الكرامة، ويسكنهم معهم مساكنهم في الجنة، ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيل من العطاء، فقال: ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾، فتأويل الآية: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾، أي: راجعوا الحق، وأبوا إلا الإقرار بوحدانية الله، وتصديق رسوله وما جاء به من عند ربه، من نفاقهم، ﴿ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾، يعني: وأصلحوا أعمالهم، فعملوا بما أمرهم الله به، وأدوا فرائضه، وانتهوا عما نهاهم عنه، وانزجروا عن معاصيه، ﴿ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾، يقول: وتمسكوا بعهد الله.

وقد دلَّلنا فيما مضى قبل، على أنَّ (الاعتصام): التمسك والتعلق، فالاعتصام بالله: التمسك بعهده وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه من طاعته وترك معصيته، ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾، يقول: وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها، ولم يعملوها رئاء الناس، ولا على شك منهم في دينهم وامتراء منهم في أنَّ الله مُحْصٍ عليهم ما عملوا، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولكنهم عملوها على يقين منهم في ثواب المحسن على إحسانه وجزاء المسيء على إساءته، أو يتفضل عليه ربه فيعفو، متقربين بها إلى الله مريدين بها وجه الله، فذلك معنى إخلاصهم لله دينهم. ثم قال جلَّ ثناؤه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: فهؤلاء الذين وصف صفتهم من المنافقين، بعد توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله وإخلاصهم دينهم، أي: مع المؤمنين في الجنة، لا مع المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم، الذين أوعدهم الدرك الأسفل من النار.

ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، يقول: وسوف يعطي الله هؤلاء الذين هذه صفتهم على توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله وإخلاصهم دينهم له على إيمانهم، ثوابًا عظيمًا، وذلك درجات في الجنة، كما أعطى الذين ماتوا على النفاق منازل في النار، وهي السفلى منها؛ لأنَّ الله جلَّ ثناؤه وعد عباده المؤمنين أن يؤتيهم على إيمانهم ذلك، كما أوعد المنافقين على نفاقهم ما ذكر في كتابه)[1].

(١) جامع البيان ٩/ ٣٤١.

وقال القاضي ابن عطية الأندلسي: (فالمنافقون الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر هم في أسفل طبقة من النار؛ لأنهم أسوأ غوائل من الكفار وأشدُّ تمكنًا من أذى المسلمين)[1].

وقال سيد قطب رحمه الله: (﴿ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ ﴾... إنه مصير يتفق مع ثقلة الأرض التي تلصقهم بالتراب، فلا ينطلقون ولا يرتفعون، ثقلة المطامع والرغائب، والحرص والحذر، والضعف والخور! الثقلة التي تهبط بهم إلى موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين، والوقوف في الحياة ذلك الموقف المهين: ﴿ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾... فهم كانوا في الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين: ﴿ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾... بلا أعوان هنالك ولا أنصار... وهم كانوا يوالون الكفار في الدنيا، فأنى ينصرهم الكفار؟!

ثم يفتح لهم بعد هذا المشهد المفزع باب النجاة... باب التوبة لمن أراد النجاة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾.

وفي مواضع أخرى كان يكتفي بأن يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ ﴾... فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله، ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله؛ لأنه يواجه نفوسًا تذبذبت،

---

(١) المحرر الوجيز ٢/ ١٢٨.

ونافقت، وتولت غير الله، فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح، على التجرد لله، والاعتصام به وحده، وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة... ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد...

بذلك تخف تلك الثقلة التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض، وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار.

وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصافِّ المؤمنين، المعتزين بعزة الله وحده، المستعلين بالإيمان، المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان... وجزاء المؤمنين ومن معهم معروف: ﴿ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾)[1].

وقال ابن حجر العسقلاني: (ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، صحة توبة الزنديق وقبولها على ما عليه الجمهور، فإنها مستثناة من المنافقين من قوله: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾، وقد استدل بذلك جماعة، منهم أبو بكر الرازي في أحكام القرآن)[2].

(١) في ظلال القران ٢/ ٧٨٥-٧٨٦.
(٢) فتح الباري ٨/ ٢٦٧.

الوصايا

الوصية الأولى:

ليس من دين الله ولا مما يوافق رحمة الله أن يُغلق باب التوبة أمام المنافقين والمتخلِّفين عن الجهاد يومًا من الأيام! والذي يتوب توبة نصوحًا يتوب الله عليه، وهذا من مسلَّمات ديننا.

فمن الناس من يضعف في لحظة، فإذا أراد الاستدراك وعزم عليه يُمكَّن من ذلك، حاله حال أيِّ تائب آخر! وما فتح الله تعالى باب التوبة في الآية إلا وسَيَدْخله داخلون بإذن الله، فهل يحق لأحدٍ أن يغلق باب التوبة بعدما فتحه الله سبحانه وتعالى؟!

فبمقدار ما نكون صارمين في الحكم الشرعي في المنافقين، نكون راغبين في توبة هؤلاء وعودتهم؛ لأنَّ الحكم في الحالتين لله وحده، فلو كانت القضية قضية نقمة شخصية لأصبحت نقمة محضة، لكنَّ الرحمة صفة من صفات ربنا الرحمن الرحيم سبحانه، وهي من صفات رسولنا الرحيم للعالمين صلى الله عليه آله وسلم، ومن صفات ديننا دين الرحمة، فهل يسع المسلم إلا أن يصطبغ بصبغة الرحمة؟!

وأما قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ

ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة:٨٣]. فالمقصود كما قال المفسرون مَن استمرَّ على النفاق، قال الخازن في تفسيره: (يعني فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج، وهم مقيمون على نفاقهم، لن تخرجوا معي أبدًا لا إلى غزوة ولا إلى سفر ولن تقاتلوا معي عدوًّا...)[1].

إنَّ من يتصور جريمة النفاق، ولعنة الله للمنافقين، وعقوبة المنافق في الدنيا والآخرة يكاد أن يقول: إنَّ الله لا يقبل لمنافق توبة، أو يقول: إنَّ الله لا يهدي منافقًا لتوبة، لكنه إذا جاء لباب التوبة فسوف يجده يسع جميع المنافقين لو أرادوا أن يتوبوا دفعة واحدة في لحظة واحدة، أياً كانت ذنوبهم، فعن صفوان بن عسَّال رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إنَّ من قبل مغرب الشمس بابًا مفتوحًا، عرضه سبعون سنة، فلا يزال ذلك الباب مفتوحًا للتوبة، حتى تطلع الشمس منه)[2].

وعن أبي طويل شَطَبٍ الممدود، أنه أتى النبي ﷺ فقال: أرأيتَ مَن عمل الذنوب كلَّها ولم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل لذلك من توبة؟ قال: (فهل أسلمت؟)، قال: أما أنا فأشهد أن لا اله إلا الله، وأنك رسول الله. قال: (تفعل الخيرات وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن)، قال:

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل ٣/ ١٣٠.

(٢) أخرجه الطيالسي (١١٦٨)، وعبد الرزاق (٧٩٣) و(٧٩٥)، وأحمد ٤/ ٢٤٠، والترمذي (٣٥٣٥) و(٣٥٣٦) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٠٧٠)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٧٨)، وابن خزيمة (١٩٣)، وابن حبان (١٣٢١)، والطبراني (٧٣٥٢) و(٧٣٨٣)، والدارقطني ١/ ١٩٧، والبيهقي ١/ ٢٨٢، وحسنه الألباني وشعيب وعبد القادر.

وغدراتي وفجراتي؟، قال: (نعم). قال: الله أكبر، فما زال يُكبر حتى توارى(١).

إذن: فمن ذنوب هذا الرجل «غدرات»، ومع هذا شملتها التوبة والمغفرة، لدرجة أنَّ سعة رحمة الله أذهلت هذا الرجل الذي أخذ يكبِّر ويكبِّر حتى توارى، لعلمه هو بما فعل من غدرات وفجرات، ولما أخبره النبي ﷺ بتحويل الله لهن «خيرات كلهن».

وقد روى البخاري في «صحيحه» عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله، فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلَّم ثم قال: لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم. قال الأسود: سبحان الله، إنَّ الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾. فتبسم عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبد الله، فتفرق أصحابه، فرماني بالحصا فأتيته، فقال حذيفة: عجبت من ضحكه، وقد عرف ما قلت: لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيرًا منكم، ثم تابوا فتاب الله عليهم(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٧١٨)، والبزار (٣٢٤٤) «كشف الأستار»، والطبراني (٧٢٣٥). قال المنذري: إسناده جيد قوي. وقال ابن حجر في «الأمالي المطلقة» ص١٤٤: هذا حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألباني وشعيب بشواهده. وللحديث شواهد من حديث عمرو بن عبسة عند أحمد ٤/ ٣٨٥، ومن حديث أنس عند أبي يعلى (٣٤٣٣)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٣٤٢)، والطبراني في «الصغير» (١٠٢٥).

قال الحافظ في «الأمالي»: قوله «من حاجة ولا داجة» حكى فيهما الخطابي وجهين التخفيف والتشديد، فأما التخفيف فالحاجة ظاهرة والداجة اتباع فيها يظهر. وأما التشديد فروى البغوي من طريق مبشر بن عبيد قال الحاجَّة الذي يقطع الطريق على الحاج إذا ذهبوا، والداجَّة الذي يقطع عليهم الطريق إذا رجعوا. ويرى الحافظ أنَّ رواية التشديد أليق بالحديث الذي ذكرناه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٠٢).

فالتابعون استغربوا واستكثروا أن يكون المنافقون خيرًا منهم، لكنَّ ابن مسعود فهمها رضي الله عنه فضحك، فأخبرهم حذيفة أنَّ ضحكة ابن مسعود كانت إشارة إلى فهمه، وقد كان مقصوده بمن هو خيرٌ منهم من المنافقين هو: (من تاب من المنافقين)، ودليله قوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٠].

وابنُ حجر يبين أنَّ غاية حذيفة تحذير هؤلاء التابعين المتحلِّقين في المسجد من الاغترار، وهذا من عظيم نصح الصحابة رضي الله عنهم، وحكمتهم في النصيحة، واحتواء عبارتهم الكثير من المعاني رغم اختصارها، فيقول رحمه الله: (قوله: «لقد أنزل النفاق على قوم خير منكم»، أي: ابتلوا به؛ لأنهم كانوا من طبقة الصحابة، فهم خير من طبقة التابعين، لكنَّ الله ابتلاهم فارتدُّوا ونافقوا، فذهبت الخيرية منهم، ومنهم من تاب فعادت له الخيرية، فكأنَّ حذيفة حذَّر الذين خاطبهم، وأشار لهم ألا يغتروا، فإنَّ القلوب تتقلب، فحذرهم من الخروج من الإيمان؛ لأنَّ الأعمال بالخاتمة، وبيَّن لهم أنهم وإن كانوا في غاية الوثوق بإيمانهم فلا ينبغي لهم أن يأمنوا مكر الله، فإنَّ الطبقة الذين مِن قبلهم وهم الصحابة كانوا خيرًا منهم، ومع ذلك وُجد بينهم من ارتدَّ ونافق، فالطبقة التي هي مِن بعدهم أمكنُ من الوقوع في مثل ذلك، وقوله: «فتبسم عبد الله» كأنه تبسم تعجبًا من صدق مقالته، قوله: «فرماني»، أي: حذيفة رمى الأسود يستدعيه إليه، قوله: «عجبت من ضحكه»، أي: من اقتصاره على ذلك، وقد عرف ما قلت،

أي: فهم مرادي، وعرف أنه الحق)[١].

الوصية الثانية: خطوات توبة المنافق

يا من غيَّرتم وبدَّلتم، لقد علمتم من أنفسكم قبل غيركم كراهية الجهاد، وتخلَّفتم عنه، ووقع في قلوبكم أنكم لو خرجتم للجهاد لقتلتم، وأنكم بقعودكم تنجون من الموت، ووقع في قلوبكم اعتقاد النصر المحقق للكفرة المعتدين، وكلُّ هذا الذي ذكرت إنما هو من صفات المنافقين وأعمالهم وأقوالهم، وفي كل واحدةٍ منها نزلت آية أو آيات، وهي كما تعلمون لا تقتصر على عصر الصحابة رضي الله عنهم؛ بل هي عامة للناس إلى يوم القيامة.

من هنا يجب أن تتأكدوا أنَّ حكم النفاق الذي صدق على أولئك صادق عليكم لا محالة.

هنا ينبغي أن تجدُّوا في التفكير بحثًا عن طريق الخلاص من نهاية الطريق الذي سلكتموه، وهو ﴿ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وأنَّ الله سبحانه بعدما ذكره ذكر طريق الخلاص من هذا المصير المحتوم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

(١) فتح الباري ٨/ ٢٦٦-٢٦٧.

فالاستدراك يكون في هذه اللحظة، نعم: هذه اللحظة قبل إلقاء الكتاب من يدك، أي: قبل اللحظة القادمة، ابدأه بالندم، فالندم توبة.

حرِّك لسانك بالاستغفار الآن، فمن استغفر اللهَ مِن قلبه غفر الله له.

اعزم الآن على عدم العودة إلى أيِّ عمل من أعمال المنافقين، أو صفة من صفاتهم.

اشرع الآن في الخطوة الأولى نحو الطريق المناقض لطريق الدرك الأسفل من النار.

فليست المسألة أن يستقرَّ الندم في قلوبكم فحسب دون أن يتعدى إلى أعمال جوارحكم، وليست التوبة في استغفار ألسنتكم فحسب، وإنما قد رسمت الآيةُ طريق العودة بكل دقة: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء:١٤٦]، وهل يقوى أيُّ منافق على هذه الأربع؟!

واعلم يا من نويت التوبة من النفاق أنه سوف تتتابع صور الاختبار لكل تائب من نفاقه، والذي كان سببه التخلف عن المجاهدين، أو كان سبب نفاقه كراهية انتصار المجاهدين، أو الفرح بانتصار الكافرين، أو التجسس على المجاهدين، أو سوء الظن برب العالمين، أو ظن الموت بالخروج للجهاد، أو ظن الحياة بالقعود في البيت، ونحو ذلك من الأسباب المنصوصة، إذن لابد أن تكون التوبة أولاً من كل الأعمال النفاقية.

قال صاحب الظلال: (ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء، يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا في هذا الابتلاء كان لهم الأجر، وإن

هم ظلُّوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح:١٦])[١].

ويقول ابن عاشور: (أسند ﴿ سَتُدْعَوْنَ ﴾ إلى المجهول؛ لأنَّ الغرضَ الأمرُ بامتثال الداعي وهو ولي أمر المسلمين بقرينة قوله بعد في تذييله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، ودعوة خلفاء الرسول ﷺ من بعده ترجع إلى دعوة الله ورسوله؛ لقوله ﷺ: «ومن أطاع أميري فقد أطاعني»)[٢].

يا من غيَّرتم وبدَّلتم سواءً كنتم في الميدان الداخلي أم الخارجي، كلكم مشمول بهذه الدعوة التي ذكر الله، فليس الطريق سهلاً، لكنَّ عزاء أحدكم إن هو تاب أنَّ الله سبحانه اختاره من بين الجموع السائرة نحو الدرك الأسفل من النار ليُرفع من شرِّ مهوى وشرِّ قعر إلى الجنة، كأنَّ صائح النجدة والإنقاذ صاح بك أن تعال فقد اختارك الله سبحانه إلى طريقه من بين هؤلاء الهلكى.

فهل يُعرض عن عرض الله الكبير إلا هالك؟!

ستبتلون بالدنيا تأتيكم بنفسها مسرعة، مشرعة، كما جاءت الحيتان بني إسرائيل شُرَّعًا، قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٣.
(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٧١. والحديث صحيح، وقد سبق تخريجه.

فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٣].

هل تكون مثل بني إسرائيل أم تكون مثل أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٤]. وقد ابتلاهم الله تعالى بأنواع مختلفة من الصيد وهم مُحرِمون، فما زلَّت قدم واحد منهم أو غلبه هواه، وهو يعلم.

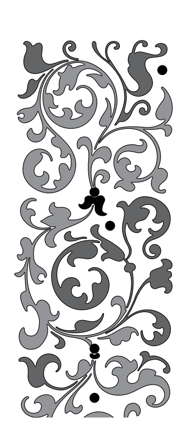
سيبتليكم الله- أيها التائبون من النفاق- بالصدق الذي هو نقطة ضعف المنافقين، حيث تجد أمامك في موقف ما طريقين: طريق السلامة والمكافأة وهو طريق الكذب، وطريق العقاب والحرمان، وهو طريق الصدق!

وكم يصعب الصدق على قريب عهد بنفاق، لذا قال كعب بن مالك رضي الله عنه بعدما تاب الله عليه: ... وقلت: يا رسول الله! إنَّ الله إنما أنجاني بالصدق، وإنَّ من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فوالله ما علمت أنَّ أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ

ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ ﴾ حتى بلغ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. قال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا[1].

❊ ❊ ❊

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٤١٨) و(٤٦٧٣)، ومسلم (٢٧٦٩) (٥٣)، وأحمد ٣/ ٤٥٩.



العهد الرابع عشر
عهد التناصر

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الحشر:١١].

قال الإمام الطبري: (يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى الذين نافقوا وهم فيما ذُكر عبد الله بن أبي ابن سلول، ووديعة ومالك ابنا نوفل، وسويد وداعس بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكف عن دمائهم على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة «السلاح»... وقوله: ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، يعني:

بني النضير)[1].

سبحان من أنزل القرآن، وأصبح كل قوم يتناولونه وكأنه لم ينـزل إلا عليهم، وكأنَّ الأحداث التي تقع لهم هي سبب نزول تلك الآيات، لولا اختلاف أسماء الأفراد والعشائر والقبائل والتجمعات والأزمنة... فما أعظم الله العظيم وما أعظم كلامه الكريم، وهو القائل لجميع المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

والقائل لجميع الناس: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾.

فهنا في الشام نجد الأعداء، ونجد من تحالف معهم قد تعاهدوا وتقاسموا على توثيق التحالف ووحدة المصير، وبينهم ما ذكر الله عنهم في الخفاء في آيات أخرى.

هذا هو ما نجده على ساحتنا بكل وضوح، فهل يحق لمسلم أن يحكم إلا بحكم الله تعالى الذي صدر في الآية بقوله سبحانه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الحشر:١١].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: (وهي حكاية لما قاله المنافقون ليهود بني النضير ثم لم يفوا به، وخذلوهم فيه، حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم

(١) جامع البيان ٢٣/ ٢٨٩.

الرعب... ولكن في كلِّ جملة قرآنية لفتة تقرِّر حقيقة، وتمس لبًّا، وتبعث انفعالاً، وتقر مقومًا من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق. وأول لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١]، فأهل الكتاب هؤلاء كفروا، والمنافقون إخوانهم، ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام)[١].

فأيُّ وصف للعشائر المتعاهدة مع إخوانهم من أهل الضلال أصدق من هذا الوصف القرآني، ومن أصدق من الله قيلاً، ومن أصدق من الله حديثًا.

إنهم إخوة، وإن اختلفت الألوان، والبلاد، وكلُّ مَظهر، فالله عزَّ وجلَّ يقول عنهم بأنهم: ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾.

وأيُّ وصف لرأس العشيرة أو المجموعة المتعاهدة ومن تبعه مِنْ أفراد عشيرته وبلدته أو مجموعته مِن وصف رئيس المنافقين عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول، مع من تبعه في عداء رسول الله ﷺ، مثل أتباعه في التخلف والانسحاب من أُحد وقد كانوا ثلاث مئة، فما كانت معاهدة ابن أبيٍّ والذين كفروا مكتوبة، لكنه عهد الأخوة الكافرة الذي ذكره الله تعالى.

وابن أُبيٍّ لم يكن وحده يومًا من الأيام أبدًا في أيِّ قرار من قراراته، وإنما هو كما وصفه الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾، وهو الذي انحاز بثلاث مئة منافق ورجع

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٨.

بهم من أحد، وهكذا كان الله تعالى يجمعهم في أغلب الآيات: ﴿ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾، ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ ﴾، ﴿ يَقُولُونَ ﴾، ونحوها من صيغ الجمع، كما قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الفتح:١٥]. فهؤلاء قبائل من الأعراب تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ فاعتذروا بما اعتذروا به.

ولا بد من ملاحظة إضافة ظاهرة في هذه الآية على الآية الأولى، فالآية الأولى قرَّرت أخوة المنافقين والكفرة، وهذه الآية تقرِّر حكم تخلف العشيرة أو الرهط عن الجهاد في سبيل الله، وبهذا تكون العشيرة المتخلِّفة عشيرة منافقة إن أجمعت على ذلك، ويشمل هذا الحكم كل فرد من أفرادها ما لم يبرأ إلى الله مما تفعل عشيرتُه ويفعل رأسُها بالطريقة التي تبرِّئه أمام الله من نفاق عشيرته... إنه حكم ينبغي أن يستنهض المتجردين من أبناء العشائر؛ ليؤدوا دورهم فيرفعوا الوزر عن جميع أبناء العشيرة الساكتين، ويصيحوا فيهم كما صاح مؤمن آل فرعون بآل فرعون، وقد كان من قبل يكتم إيمانه.

فحكم اتفاق العشيرة على الانتظام بالعهد على الولاء للطاغوت هو أشد من حكم الطائفة الممتنعة التي أفتى شيخ الإسلام بوجوب جهادها كما هو معروف؛ لأنها لا تمتنع عن الجهاد فحسب، بل تحارب المجاهدين وتوالي أعداء الإسلام، فهي رأس

النفاق والعمالة.

الوصايا

الوصية الأولى: تفكيك أحلاف الباطل

يستطيع المؤمنون بإذن الله تعالى تفكيك الأحلاف الباطلة بالحكمة والحيلة، كما لا يستطيعونها بالقوة والقتل أحيانًا، وتفكيك هذه الأحلاف يحتاج إلى تكوين مجلس متخصِّص في وضع الخطط المتنوعة لهذا الأمر على وجه الخصوص، كلٌّ بحسبه، وكل له طريقته، وله مفتاحه وله مدخله.

ومن الخطأ الكبير أن نبقى متفرجين متذمرين من العشائر المتحالفة مع العدو دون اتخاذ الموقف المناسب المبني على الدراسات المتعمقة بما لدينا من معلومات تاريخية عن عشائرنا وأخلاقياتهم وجوانب الضعف والقوة فيهم، ولعلنا في أحيان كثيرة لا نحتاج أكثر من أن نتخلص من المفتاح الذي يلج من خلاله العدو لإقناعهم، وأحيانًا نحتاج لأسلوب آخر، وهكذا...

وللعلم، فإنَّ العدو ما استطاع أن يعقد من هذه العشائر والمجاميع تحالفًا، إلا بعد ما درسها دراسة طويلة عميقة، فلا يمكن أن نكسب نحن العشائر بمجرد

التذمر أو القتل ونحو ذلك.

كما نستطيع أن نجعل بعض العشائر والمجاميع ثقلاً لنا على العدو، وموطئ قدم لنا على رأسه، وثقلاً على صدره، ومفتاحًا لأسراره.

الوصية الثانية: الدخول في سبق كسب العشائر

لاشك أنَّ للعدو طرائقه المغرية لكسب عشائر خائفة، فقيرة، محتاجة للأمن وللمال، ومن هذا الجانب يأتي الضغط الكبير على العشائر، فتتساقط الواحدة تلو الأخرى، ولكن كل عشيرة تسقط فذلك لأسباب منها أننا في الأساس ما سعينا لكسب تلك العشائر والمجاميع، وتوثيق العهود معها توثيقًا يصبح من العار على العشيرة أن تنقضه.

الوصية الثالثة: أحلاف التناصر

المقتضي لذكر الله سبحانه عن تحالف المنافقين مع اليهود هو أن يتحالف المؤمنون بعضهم مع بعض، فهذا ما يواجَه به التحالف المقابل.

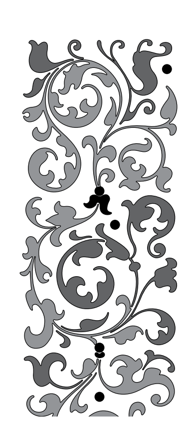
فعلى المجاهدين أن يعقدوا التحالف على النصرة بعضهم مع بعض بحيث يُصبح التناصر موضوعًا وحدويًا لجميع الفصائل الجهادية- وإن كان الأصل أن يتوحد المجاهدون تحت راية واحدة- فأيُّ فصيل يُضرب من قبل أعداء الله، تكون مسؤولية الانتقام هي مسؤولية جميع الفصائل، وعند الانتقام يعلن الفصيل الذي انتقم، أنَّ

عمليته كانت انتقامًا لإخوانه في المجموعة الفلانية، وهكذا يتكرر الانتقام، حتى يشيع خبر التناصر والتحالف في المجتمع الشامي والعالمي.

وعلى المجاهدين كذلك أن يقبلوا كل متحالف مسلم مخلص غيور على بلده، وإن كان متلبسًا بفسق أو بدعة غير مكفِّرة، إذا أمن مكره وكانت المصلحة راجحة، مع وجوب نصحه، فسنة النبي ﷺ تسعنا، وقد تحالف النبي ﷺ مع قبيلة خزاعة ولم يَردَّها، وكان بعضُهم مشركًا[1].

❊ ❊ ❊

(١) قال شيخ الإسلام في «الصارم المسلول» ٢/ ٢١٧: (ودخلت خزاعة في عقده وكان أكثرهم مسلمين، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، مسلمهم وكافرهم).



العهد الخامس عشر
إذا نزل البلاء بالمجاهدين

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت:١٠-١١].

قال الإمام الطبري: (ومن الناس من يقول: أقررنا بالله فوحدناه، فإذا آذاه المشركون في إقراره بالله، جعل فتنة الناس إياه في الدنيا، كعذاب الله له في الآخرة، فارتدَّ عن إيمانه بالله راجعًا على الكفر به، ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾، يا محمد، لأهل الإيمان به، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدون عن إيمانهم، الجاعلون فتنة الناس كعذاب الله: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾، أيها المؤمنون، ﴿مَعَكُمْ﴾ ننصركم على أعدائكم، كذبًا وإفكًا، يقول الله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ﴾، أيها القوم، من كل أحد، ﴿بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، جميع خلقه، القائلين: آمنا بالله، وغيرهم، فإذا أوذي في الله ارتد عن دين الله، فكيف يخادَع من كان

لا يخفى عليه خافية، ولا يستتر عنه سرٌّ ولا علانية. وذُكِر أنَّ هذه الآية نزلت في قوم من أهل الإيمان كانوا بمكة، فخرجوا مهاجرين، فأُدركوا وأخذوا فأَعطوا المشركين لما نالهم أذاهم ما أرادوا منهم)[1].

وقال ابن كثير: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾، أي: لئن جاء نصر قريب من ربك- يا محمد- وفتحٌ ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم: إنا كنا معكم. أي: كنا إخوانكم في الدين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(النساء: ١٤١)، وقال تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥٢]، وقوله: (وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ). أي: وليختبرنَّ الله الناس بالضراء والسراء؛ ليتميز هؤلاء من هؤلاء، ومن يطيع الله في الضراء والسراء، إنما يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد:٣١].

وقال تعالى بعد وقعة أحد، التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[آل عمران: ١٧٩][2].

وقال ابن عطية الأندلسي في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ : (أي

---

(١) جامع البيان ٢٠/ ١٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٦٦.

صعب عليه أذى الناس حين صده، وكان حقه أن لا يلتفت إليه، وأن يصبر له في جنب نجاته من عذاب الله، ثم أزال الله تعالى موضع تعلقهم ومغالطتهم أن جاء نصر، ثم قررهم على علم الله تعالى بما في صدورهم، أي: لو كان يقينًا تامًّا أو إسلامًا خالصًا لما توقفوا ساعة، ولركبوا كلَّ هول إلى هجرتهم ودار نبيهم)[١].

وما أجل وأنفع ما قاله الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى: (إنَّ الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة، فيثبتوا عليها، ويخرجوا منها صافية عناصرهم، خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب؛ لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، وهذا هو أصل الكلمة اللغوي، وله دلالته وظله وإيحاؤه، وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب.

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت، وسنة جارية، في ميزان الله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٣].

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكنَّ الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مُغيَّب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره، وبما

(١) المحرر الوجيز ٤/ ٣٠٨.

حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه!

ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون، وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين.

إنَّ الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا مَن هُم لها أهل وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء، وإنها لأمانة الخلافة في الأرض، وقيادة الناس إلى طريق الله، وتحقيق كلمته في عالم الحياة، فهي أمانة كريمة، وهي أمانة ثقيلة، وهي من أمر الله يضطلع بها الناس، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء.

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله، ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة، ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان، وهذه هي الصورة البارزة للفتنة المعهودة في الذهن حين تُذكر الفتنة، ولكنها ليست أعنف صور الفتنة، فهناك فتن كثيرة في صور شتى، ربما كانت أمرَّ وأدهى.

هناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دفعًا، وقد يهتفون به ليسالمِ أو ليستسلم، وينادونه باسم الحب والقرابة، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك، وقد أشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين، وهو شاق عسير. وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، تهتف لهم الدنيا، وتصفق لهم الجماهير، وتتحطم

في طريقهم العوائق، وتصاغ لهم الأمجاد، وتصفو لهم الحياة، وهو مُهمَل مُنكَر لا يحس به أحد، ولا يحامي عنه أحد، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله، الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئًا.

وهنالك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة، حين ينظر المؤمن، فيرى كلَّ ما حوله وكلَّ مَن حوله غارقًا في تيار الضلالة، وهو وحده موحش غريب طريد.

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام، فتنة أن يجد المؤمن أممًا ودولاً غارقة في الرذيلة، وهي مع ذلك راقية في مجتمعها، متحضرة في حياتها، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان، ويجدها غنية قوية، وهي مشاقة لله!

وهنالك الفتنة الكبرى، أكبر من هذا كله وأعنف، فتنة النفس والشهوة، وجاذبية الأرض، وثقلة اللحم والدم، والرغبة في المتاع والسلطان، أو في الدعة والاطمئنان، وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه، مع المعوقات والمثبطات في أعماق النفس، وفي ملابسات الحياة، وفي منطق البيئة، وفي تصورات أهل الزمان!

فإذا طال الأمد، وأبطأ نصرُ الله، كانت الفتنة أشد وأقسى، وكان الابتلاء أشد وأعنف، ولم يثبت إلا مَن عصم الله، وهؤلاء هُم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان، ويؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى، أمانة السماء في الأرض، وأمانة الله في ضمير الإنسان.

وما بالله- حاشا لله- أن يعذِّب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه

الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه، وعلى الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء.

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث، وتستجيش كامن قواها المذخورة، فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة، فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامدًا إلا أصلبها عودًا، وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين: النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية في النهاية، مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار.

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن، وبما بذلوا لها من الصبر على المحن، وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات، والذي يبذل من دمه وأعصابه، ومن راحته واطمئنانه، ومن رغائبه ولذاته، ثم يصبر على الأذى والحرمان، يشعر ولا شك بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل، فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام. فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفل به وعْد الله، وما يشك مؤمن في وعد الله، فإن أبطأ فلحكمة مقدرة، فيها الخير للإيمان وأهله، وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله، وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة، ويقع عليهم البلاء، أن يكونوا هم المختارين من الله؛ ليكونوا أمناء

على حق الله، وأن يشهد الله لهم بأنَّ في دينهم صلابة، فهو يختارهم للابتلاء. جاء في الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زِيد له في البلاء»)[١].

الوصايا

الوصية الأولى:

يجلس المسلم مهمومًا أحيانًا كثيرة، وهو ينظر للأحداث والابتلاءات تعصف بإيمان الناس من حوله، فيذهب كل فكره باحثًا عن مأمن لإيمانه لا تصله العواصف ولا يطوله البلاء، وهتاف القلب: يا رب سلِّم، يا رب سلِّم! وربما مرَّت أيام طويلة دون ابتلاء يشعر به، وإيمانُه راسٍ على شاطئ الأمان!

ومع مرور أيام الأمان وتطاولها يداخله شعور السلامة الدائمة حتى بلوغ دار

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٢٠-٢٧٢١. والحديث أخرجه الطيالسي (٢١٥)، وابن أبي شيبة (١٠٩٣٣)، وأحمد ١/ ١٧٢ و١٧٣ و١٨٠ و١٨٥، وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٨٢٥)، والترمذي (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والبزار (١١٥٤)، (١١٥٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٤٨١)، وأبو يعلى (٨٣٠)، وابن حبان (٢٩٠٠) و(٢٩٠١) و(٢٩٢١)، والحاكم ١/ ٤١، والبيهقي ٣/ ٣٧٢-٣٧٣، وفي «الشعب» (٩٣١٨) عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ. وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب وعبد القادر. وجاء في البخاري: باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

السلام على هذا الحال! وبين الفينة والفينة يَرِدُه سؤال: إلى متى سيبقى الحال هكذا؟ إلى متى سلامة من غير ابتلاء، وعافية من غير اختبار؟ فإذا به أمام هذه الآية: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣]، عند هذه الآية كأنه يسقط في يده! فيشفق على إيمانه الذي يخشى عليه أن يُخطف في لحظة، يخشى أن يحال بينه وبين الجنة فجأة، تلك الجنة التي تراءت له مرارًا كثيرة قريبة قريبة! يخشى على اللذة الإيمانية التي تذوَّقها في عبادته أن تعصف ريح الفتنة المشتعلة المستعرة بها!

ولِمَ لا؟! وهو يرى ضحايا الفتن من أصحاب وأحباب سابقين، وهذه الآية بين عينيه لا تفارقه، تقرع قلبه بنذير مخيف كلما مرت عليه أمام عينيه: (الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ...)، إذن فهي سنة لا فكاك منها!

هي بانتظاري وإن لم أكن بانتظارها! أمامي وإن تنحيت عن طريقها!

لقد عذر الله جلَّ جلاله مَن أوذي وأكره وأظهر الكفر ما دام الإيمان لم يُمس، وقلبه مطمئن بالإيمان: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

إذن لن تجد مرفئًا من الابتلاء، ما دمت على طريق الأنبياء!

إنك تتصور المرفأ في صور كثيرة، تحسب أنَّ بإمكانك أن تجمع ما بين السلامة والأجر، فتتمناه:

تتمناه في صور عبادة واعتكاف في المسجد، أو مجاورة في الحرمين!

تتمناه في عمل خيري إغاثي تنقطع له!

تتمناه في ذهاب وإياب في شفاعة للمحتاجين والمنكوبين من المستشفعين!

تتمناه في حلقات علمية في الفنون الشرعية تتنقل بين رياض الجنة عالماً ومتعلمًا!

تتمناه في ذكرٍ يخالط القلب لذة، وتشهق به الروح مهابة، ويقشعر له البدن بعصبهِ وشعره وجلده، خشية واستشعارًا.

نعم إنك لا تتمنى المرفأ لعبًا ولهوًا، فضلاً أن تتمناه شهوة وشهرة وفجورًا...

ومع هذا، تقف الآيةُ في وجه كلِّ هذه الأماني، وتوقف صاحب الإيمان عن الاسترسال بعبادات السلامة، وتوقفه أمام الحقيقة القادمة، حقيقة قائمة أمام عينيه، وربما حقيقة واقعة مرةً واحدة في شكل بلاءات متواصلة لا تنقطع، إلا ببلاء تفيض معه الروح، وتختم به صفحة الحياة.

هكذا هو الأمر! حتى لكأنَّ صور العبادة جميعًا لا تأخذ مصداقيتها، ولا تحصل على صك الإيمان والثبات إلا بهذا الابتلاء الذي هو للمؤمنين، كما قال الله تعالى: (أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ).

فلا ييأس أحد بجهاده الذي هو فيه، فوالله لمثل هذا تُطلب العلوم، ويُرتقى في مراقي العبادة، وهل بعد ذروة السنام فوق راحلة الإسلام من مقام؟!

أيها المجاهدون: إياكم أن تغبطوا متخلِّفًا أيًّا كان علمه وعمله! فضلاً أن تنظروا بإعجاب- ولو نظرة- لمن انغمس في الحياة من إخوانٍ سابقين لكم،

يغدون بطانًا ويعودون تخامًا، هُم أحق أن يَجلدوا أنفسهم بسياط الندم والحسرة والفوات...! هُم أحق لأن يظنوا بأنفسهم السوء، ويخافوا عليها قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة:٤٦].

هُم أحق أن يخافوا من أن يجمعهم بالمؤمنين عند عبور الصراط فيدركون أنهم من تحدثت عنهم الآية، وهم لا يشعرون، فيضرب بينهم بسورٍ له باب من قبل المؤمنين فيه الرحمة، ومن قبلهم فيه العذاب.

هم أحق أن يشفقوا على أنفسهم مِن نقلة بغتة مِن هذه الحياة، مِن على هذا الفراش الوثير، إلى قاع السعير.

فمن تخلَّف يريد السلامة لإيمانه متخوفًا من الفتنة، ففي الفتنة سقط!

ومن تخلَّف متخوفًا من الأسر والعذاب والأذى، فقد استجلب أسباب العذاب!

ولو أنَّ هذا التخوف مشروع لما افترض الله الجهاد في سبيل الله!

إنه يشبه من بعض الوجوه تخوف المشركين من الإسلام بسبب البلاء، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص:٥٧].

وهل نحن بأحرص على إيماننا من ذاك الجيل على إيمانه الذي باع كلَّ شيء وقدَّم كلَّ شيء لجهاده، وهو يعلم جيدًا أنَّ البلاء قُدَّامه...

لو كان الفرار من الجهاد سلامة للإيمان لما كان أعظم الناس إيمانًا أكثرهم إقدامًا، وأفضل الشهداء من عرَّض نفسه لأعظم البلاء، حين وقف منفردًا حاسرًا جاسرًا على السلطان الجائر فأمره ونهاه فقتله، كما روى جابر عن النبي ﷺ أنه قال: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)[1].

لكن كيف قتله؟ هل صلبه في جذوع النخل؟ أم غرسه في الحديد؟ أم غرس الحديد فيه؟ أم كهربه؟ أم قطَّعه؟ كلُّ ذلك وارد!

فهل كان الواجب عليه أن يوقف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أحسن الأقوال والأعمال لاحتمالات الابتلاء؟! ورسول الله ﷺ يقول كما في حديث طارق بن شهاب: (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)[2].

إياكم أن تظنوا أنَّ الله سوف يتخلى عنكم إذا ابتلاكم، وإياكم أن تظنوا أنَّ لكم فضلاً على الله بثباتكم، فيجب أن نستشعر أنَّ الثبات محضُ فضلٍ من الرحمن الرحيم.

---

(١) أخرجه الحاكم ٣/ ١٩٥، والخطيب في «تاريخ بغداد» ٦/ ٣٧٧ و١١/ ٣٠٢. وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٤).

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣١٤ و٣١٥، والنسائي ٧/ ١٦١، وفي «الكبرى» (٨٧٣٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧١٧٥)، وصححه المنذري، والنووي في «رياض الصالحين» والألباني وشعيب وعبد القادر. وله شاهد من حديث أبي سعيد، أخرجه الحميدي (٧٥٢)، وأحمد ٣/ ١٩، وأبوداود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤٠١١)، والحاكم ٤/ ٥٠٥-٥٠٦، وصححه لشواهده الألباني وشعيب وعبد القادر. وله شاهد آخر من حديث أبي أمامة أخرجه أحمد ٥/ ٢٥١ و٢٥٦، وابن ماجه (٤٠١٢)، والطبراني (٨٠٨٠) و(٨٠٨١)، وفي «الأوسط» (١٦١٩) و(٦٨٢٠)، وفي «الصغير» (١٥١)، والبيهقي ١٠/ ٩١، وفي «الشعب» (٧١٧٤)، وحسن إسناده الألباني وشعيب.

يقول الأستاذ سيد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:٦]: (فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة، وكلَّفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت على احتمال المشاق، فإنما ذلك لإصلاحهم، وتكميلهم، وتحقيق الخير لهم في الدنيا والآخرة، والجهاد يصلح من نفس المجاهد وقلبه، ويرفع من تصوراته وآفاقه، ويستعلي به على الشح بالنفس والمال، ويستجيش أفضل ما في كيانه من مزايا واستعدادات، وذلك كلُّه قبل أن يتجاوز به شخصه إلى الجماعة المؤمنة، وما يعود عليها من صلاح حالها، واستقرار الحق بينها، وغلبة الخير فيها على الشر، والصلاح فيها على الفساد.

﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾، فلا يقفنَّ أحد في وسط الطريق، وقد مضى في الجهاد شوطًا، يطلب من الله ثمن جهاده، ويمنُّ عليه وعلى دعوته، ويستبطئ المكافأة على ما ناله! فإنَّ الله لا يناله من جهاده شيء، وليس في حاجة إلى جهد بشر ضعيف هزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾، وإنما هو فضل من الله أن يعينه في جهاده، وأن يستخلفه في الأرض به، وأن يأجره في الآخرة بثوابه.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت:٧].

فليطمئنَّ المؤمنون العاملون على ما لهم عند الله، من تكفير للسيئات، وجزاء على الحسنات، وليصبروا على تكاليف الجهاد، وليثبتوا على الفتنة والابتلاء، فالأمل

المشرق والجزاء الطيب ينتظرانهم في نهاية المطاف، وإنه لَحَسْب المؤمن، حتى لو فاته في الحياة الانتصاف)[١].

والله الذي لا اله إلا هو، إنَّ الشعور بالسرور الذي يعمُّ النفس بعدما تغادر ابتلاءً ثبتت فيه على الحق، لَهُوَ شعور يعجز كلُّ قلم عن وصف لذته، فكيف بفرحه عند لقاء ربه بثباته؟! يرى البلاء الماضي كما يرى أيَّ ذكرى مرَّت به، لكنَّ سرَّ الفرح في هذه، هو إحساسك بأنَّ الله كان يرعاك، ويثبتك، ويهوِّن عليك، ويعظِّم شأنك في أعينهم، ويريك في المنام ليريحك.

ألا ما أعظم الله! وما ألطفه سبحانه!

يا أهل الجهاد في الشام: ما دمنا نعتقد أنَّ الجهاد فرض عينٍ فعلينا أن نضيف على كل من تخلَّف عن الجهاد كلمة واحدة وهي: (متخلِّف)؛ لنرى كيف تتحول زينة العبادات إذا سلب منها الجهاد إلى شيء آخر!

فقل إن شئت عالِم، وأضف لها وصف (متخلِّف) عن الجهاد إذ وجب عليه، (عابد) متخلِّف، (ذاكر) متخلِّف، (مزكٍّ) متخلِّف، (حاج) متخلِّف، ولا أريد أن أضيف كلمة منافق! لانطباق وصف (المتخلِّف العملي) على كل واحد من هؤلاء، واتفاق الجميع على هذا الوصف، وإقرار صاحبه به!

وهذا يعني أنَّ ترك الجهاد في ذاته من كبائر الذنوب، ولا يعذر المكلَّف بتركه حتى

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٢٢.

وإن خشى على نفسه الفتنة، أو الأسر، أو الابتلاء، أو نحو ذلك... ومن ذا الذي لا يخشى على نفسه ذلك؟!

حقًّا إنه زمن الترف حتى في طلب المجاهدين البقاء دون ابتلاء، وعبور جسر الحياة من عيش المنعَّمين إلى جنة النعيم.

إنها جنة الأحلام، أو أحلام الجنان!

يريدونه جهادًا ورديًّا لا شوكة فيه! يريدون الصعود إلى عرش الأمة على بساط سليمان!

لا يرون إلا ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾! لا يريدون الثمرة إلا لجيلهم هم!

إنَّ من يتصور الجهاد قبل دخوله يستثقله، ومن يتصور الابتلاء قبل حلوله يستعظمه!

لكنني واثق تمام الثقة بأنَّ الله تعالى أجلُّ وأكرم من أن يترك إيمان عبده الصادق يتلاعب به أعداؤه، إنه سبحانه أجلُّ وأكرم من أن يتركك وحدك تصارع الآلام ويأتيك الموت من كل مكان، فالله يعطي من الصبر بقدر ما يقسم من البلاء.

ولكأنَّ الشوق يثور في قلب الواحد من المجاهدين الذي اشتدَّ بهم الابتلاء، فيزداد شوقه لربه، ويشعر بقربه ويصيح: عجِّلوا بي للقاء رب العالمين، لقد سئمت دنياكم، وسئمت وجوهكم- أيها الطواغيت- وقد بلغ بي الشوق مداه للنظر لوجه الله العظيم جلَّ في علاه.

واللهِ لكأنَّ الملائكة تُصبِّره وتشوقه وتبشره وأنتم لا تشعرون!

لكأنَّ الله يرسل رسله بالبشائر حين يأخذه إليه بنومة قصيرة أو غفوة مفاجئة وسط الابتلاءات تلك، فإذا به يعود ثانية محتقرًا هؤلاء، كأنه ينظر إليهم من السماء! ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾.

كم من قتيل غفى وسط العذاب غفوة، فجاء وهو في أشدِّ الشوق إلى الموت؟ كم من متردد متهيب، فاقدٍ للثقة في صبره، فإذا به عند البلاء شيء آخر؛ لأنه وجد الله هناك؟ فترى العذاب يُصبُّ عليه مِن هنا وقلبُه يُشهد الله قائلاً: يا رب، اشهد أنه في سبيلك... يا رب، ثبتني حتى ألقاك... يا رب، ليس همِّي البدن الذي يُصب عليه العذاب، وإنما همِّي هذا القلب أن يزيغ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

وهكذا تمرُّ على قلبه الأدعية فيستشعر القرب فيها، ويرى الرعاية الإلهية تأتيه منها، ويرى رعاية الله تنـزل عليه، وهكذا حتى لكأنَّ هؤلاء المتكفلين بإيذائك كلاب حراسة لك...

عندها يقول: سبحان من علَّمني الدعاء، وما علَّمنيه إلا ليجيبني، وهو- إذ ذاك- لا يدري هل استبقى الله له من العمر ليشكره على هذه النعم، أم أحب الله لقاءه فاستدعاه!

ليس ثمة إلا الصبر والرضا، وربنا يقول: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

فعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ كان في بعض أيامه التي

لقي فيها العدوَّ ينتظر، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف)، ثم قام النبي ﷺ وقال: (اللهم منـزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)[١].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفد ما عنده قال: (ما يكن عندي من خير فلن أدَّخره عنكم، ومن يَستعفف يُعفَّه الله، ومن يستغن يُغنه الله، ومن يصبر يصبِّره الله، وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر)[٢].

وعن محمود بن لبيد، أنَّ رسول الله ﷺ قال: (إنَّ الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع)[٣].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن- أو تملأ- ما بين

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨١٨) و(٢٨٣٣) و(٢٩٦٥) و(٢٩٦٦) و(٣٠٢٤) و(٦٣٩٢) و(٧٢٣٧)، ومسلم (١٧٤٢) (٢٠) و(٢١)، وأحمد ٤/ ٣٥٣ و٣٥٤ و٣٥٥، وأبو داود (٢٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩) و(٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣) (١٢٤)، وأحمد ٣/ ٩٣، وأبو داود (١٦٤٤)، والترمذي (٢٠٢٤)، والنسائي ٥/ ٩٥-٩٦.

(٣) أخرجه أحمد ٥/ ٤٢٧ و٤٢٨ و٤٢٩، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٢٧)، قال المنذري، والهيثمي، وابن حجر في «بذل الماعون» (٢١٦): رواته ثقات. وقال الألباني: صحيح. وجوَّد إسناده شعيب.

السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها)[(١)].

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: (قد كان مَن قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيُجعل فيها، فيُجاء بالمنشار فيُوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويمُشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه فما يصدُّه ذلك عن دينه، واللهِ ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[(٢)].

وعن أبي هريرة، أنَّ النبي ﷺ قال: (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)[(٣)].

أيها المبتلى: وإذا عزَّ عليك الصبر، وغلبك الشيطان فاستحضرت مستكثرًا بعض

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣)، وأحمد ٥/ ٣٤٢ و٣٤٣، والترمذي (٣٥١٧)، وابن ماجه (٢٨٠)، والنسائي ٥/ ٥-٦.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢) و(٣٨٥٢) و(٦٩٤٣)، وأحمد ٥/ ١٠٩ و١١٠ و١١١ و٦/ ٣٩٥، وأبو داود (٢٦٤٩)، والنسائي مختصرًا ١/ ٢٤٧ و٨/ ٢٠٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠٩١٦)، وأحمد ٢/ ٢٨٧ و٤٥٠، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٩٤)، والترمذي (٢٣٩٩) وقال: حديث حسن صحيح، والبزار (٧٩٩٨)، وأبو يعلى (٥٩١٢) و(٦٠١٢)، وابن حبان (٢٩١٣) و(٢٩٢٤)، والحاكم ١/ ٣٤٦، والبيهقي ٣/ ٣٧٤، وفي «الشعب» (٩٣٧٦) و(٩٣٧٧)، وأخرجه مالك بلاغًا في «الموطأ» (٥٦٩) ووصله ابن عبد البر في «التمهيد» ١٢/ ١٨٠. وصححه أحمد شاكر والألباني، وحسنه شعيب، وقال عبد القادر: حسن صحيح.

ما قدَّمت لهذا الدين تعليمًا ودعوة وجهادًا في مجالات الحياة المختلفة، واستكثرتْ نفسُك الابتلاء بعد كل هذا الذي قدَّمت، فاستحضر مشاعر عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد رُكل بالأرجل فانقلب لظهره، تصوَّر نفسيته، وصورته، وقد أخذ الشقيُّ المشاقصَ فوكزه في صدره، والشقي يتَّكأ عليه وعثمان رضي الله عنه ينظر، حتى تتقعقع أضلاعه، ثم تزهق روحه، ودمه يسيل على القرآن الذي جمعه، والذي أجمعت الأمة على جمعه، فكان الفضل له، حتى إنه ما من قارئ يقرأ القرآن إلى يوم القيامة إلا ولعثمان مثل أجره، إنه ذاك الخليفة المثقب بالآلات، المطعون بالسكاكين، المكسر الأضلاع!

بالله عليك: استحضِر صورة "سمية" الإسلام رضي الله عنها، امرأة على رمضاء مكة الملتهبة تتلوى، قد انقلبت هيئتها إلى أرعب ما تكون، استحضر لحظة نهايتها، وهي تنظر بعينيها إلى ما يصنع بها فرعون هذه الأمة من غير رادع من ضمير أو من سلطان! استحضر مشاعرها، وأبو جهل يطعنها بالحربة في فرجها فتزهق روحها إلى باريها، ويعود اللعين إلى أهله يتمطى!

أيُّ مشاعر لأولئك السابقين والسابقات صاحبهم لحظات البلاء، ولحظة إزهاق أرواحهم؟!

هل شعر واحد منهم بمنَّة، أو تضجُّر على قدر الله؟ ما ذهب واحد منهم إلى ربه إلا وأمله أن يقبله ويقبل صبره.

سيد العلماء معاذ بن جبل رضي الله عنه حين احتضر واشتد عليه النـزع، روي عنه أنه خاطب ربه فقال: (أخنق خنقك، فوعزتك إني لأحبك)[١].

ويقول الله جلَّ وعلا، على لسان مَن آمن من سحرة فرعون: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا ﴾ [طه: ٧٢ – ٧٣].

قال سيد رحمه الله: (إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون، وتعد القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه، ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ﴾، فهي علينا أعز وأغلى، وهو جلَّ شأنه أكبر وأعلى، ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾، ودونك وما تملكه لنا في الأرض، ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾، فسلطانك مقيَّد بها، وما لك من سلطان علينا في غيرها، وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا، وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل بالله، ويأمل في الحياة الخالدة أبدًا، ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ﴾، مما كنت تكلفنا به فلا نملك لك عصيانًا، فلعل بإيماننا ربنا يغفر لنا خطايانا، ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، خير قسمة وجوارًا، وأبقى مغنمًا وجزاءً، إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى)[٢].

---

(١) أخرجه ابن سعد ٣/ ٥٨٩. وفي إسناده شهر بن حوشب، قال عنه الحافظ في «التقريب»: صدوق كثير الإرسال والأوهام.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٣.

إنَّ المؤمن حين يكون في أتون البلاء، ويستحضر أنَّ بلاءه هذا كفارة لذنوبه، فإنه لا يكرهه؛ لأنه قدر الله الذي يجري لصالحه، فهو يرى فيه أنه كفارة لذنوبه، ولحياة من الآثام، ورفعة للدرجات، وهل يكره المؤمن أن يلاقي الله بغير ذنب؟!

وهذا ما يجعل المعادلة تنقلب إلى ضد الظالم رأسًا على عقب، حيث أنَّ الظالم الطاغي كلما شدَّد في البلاء زاد التكفير عن ذنوب المبتلى وزادت الرفعة في الدرجات، ولكأنَّ الله لا يجمع على عبده بلاءين، كما أنه لا يجمع عليه خوفين وأمنين.

الوصية الثانية:

﴿ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

مسَّ العذابُ معتقدَه، فإذا به يقول: إنَّ عذاب الناس كعذاب الله، معتقِدًا ذلك!

إنها اللحظة التي يهون فيها المعتقَدُ في نفس صاحبه، فآثر فيها الخلاص من عذاب الناس على الصبر، ويكون الثمن هو التنازل عن المبدأ في مقابل الخلاص من عذاب الناس!

حين يدفع صاحب المبدأ كلَّ شيء؛ ليقي بدنه عذاب الناس...

حين تهوله فتنة الناس فيظنها القاضية، فيتخلص منها بأيِّ ثمن، ولو كان الدين!

حين يضع أمامه فتنة الناس في كفة وعذاب الله في كفة، فتطيش كفة عذاب الله في قلبه وترجح كفة فتنة الناس.

فأين الله من غيره؟! وأين عذابه من عذاب غيره؟!

والله جل وعلا لم يقل: جعل عذاب الناس كعذاب الله. وإنما قال: ﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾، فعذاب الله صرف لا رحمة فيه، وعظيم لا نظير له، وعذاب البشر فتنة كفتنة المعدن على النار، وهل يوضع المعدن على النار إلا ليصفَّى ويستخلص منه خير ما فيه، ويسقط عنه أسوأ ما فيه؟!

هكذا أراد الله الابتلاء للمؤمنين، أما في هذه الصورة المذكورة في الآية فقد أسقط عذاب الآخرة القادم من حسابه، وساوى فتنة الناس الحاضرة بذاك العذاب العظيم.

هذه المقارنة هي معقد الإيمان في لحظات الابتلاء، ومن ثم قال السحرة التائبون جوابًا على توعد فرعون: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾.

فرجاؤهم هو أن يغفر الله لهم خطاياهم، ويجعلها كفارة لمقابل هذا الذي توعد به فرعون.

فاللهم إنا نسألك العافية.

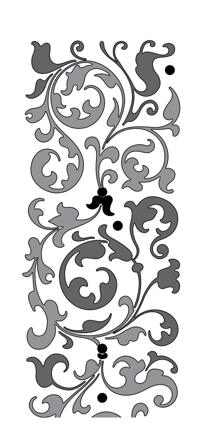
الوصية الثالثة:

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت:١٠]. وقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ [النصر:١]. فالنصر يأتيكم بنفسه ولا تذهبون أنتم إليه، والنصر من

ربك، وليس من جهودك، والنصر لن يفوتك؛ لأنه هو الذي يأتيك، ولذا قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾.

إنَّ الآية تكشف منهجًا لأفراد وجماعات وأمم تحاول أن تكون مع الطائفة التي تؤول إليها زمام الأمور. وهذا ظاهر على الساحة لا خفاء فيه، وإن حاول أصحاب هذا المنهج أن يمدُّوا لهؤلاء يدًا في الخفاء، ويمدُّوا للآخرين يدًا في الخفاء، ورب العالمين يقول: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٠].





العهد السادس عشر
حول الميدان

قال الله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٩١-٩٣].

قال القرطبي: (وقال الحسن: نزلت في أبي موسى وأصحابه أتوا النبيَّ ﷺ ليستحملوه، ووافق ذلك منه غضبًا فقال: «والله لا أحملكم، ولا أجد ما أحملكم عليه». فتولوا يبكون، فدعاهم رسول الله ﷺ وأعطاهم ذودًا. فقال أبو موسى: ألست حلفتَ يا رسول الله؟ فقال: «إني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها، إلا أتيت الذي هو خير، وكفَّرت عن يميني». قلت: وهذا حديث

صحيح أخرجه البخاري ومسلم بلفظه ومعناه[١]. وفي مسلم : فدعا بنا فأمر لنا بخمس ذود غُرِّ الذُّرَى... الحديث. وفي آخره: «فانطلقوا فإنما حملكم الله»)[٢].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا ولا سرتم مسيرًا إلا شركوكم فيه). قالوا وهم بالمدينة؟ قال: (حبسهم العذر)[٣].

وقال أبو حيان: (﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُ﴾، أثبتَ في حق المنافقين ما نفاه في حق المحسنين، فدلَّ لأجل المقابلة أنَّ هؤلاء مسيئون، وأيُّ إساءة أعظم من النفاق والتخلُّف عن الجهاد والرغبة بأنفسهم عن رسول الله، وليست إنما للحصر، إنما هي للمبالغة في التوكيد، والمعنى إنما السبيل في اللائمة والعقوبة والإثم على الذين يستأذنوك في التخلُّف عن الجهاد وهم قادرون عليه)[٤].

وقال الشوكاني: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، والنصح لله الإيمان به، والعمل بشريعته، وترك ما يخالفها، كائنًا ما كان، ويدخل تحته دخولاً أوليًّا نصح عباده، ومحبة المجاهدين في سبيله، وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد، وترك المعاونة لأعدائهم بوجه

---

(١) أخرجه بدون ذكر سبب النزول: البخاري (٣١٣٣) و(٥٥١٨) و(٦٦٢٣) و(٦٦٤٩) و(٦٧١٨) و(٦٧٢١) و(٧٥٥٥)، ومسلم (١٦٤٩) (٧) و(٨) و(٩) و(١٠)، وأحمد ٤/ ٣٩٨ و٤٠١ و٤٠٦، وابن ماجه (٢١٠٧).
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٢٢٨-٢٢٩.
(٣) أخرجه البخاري (٢٨٣٨) و(٢٨٣٩) و(٤٤٢٣)، وأحمد ٣/ ١٠٣ و١٦٠ و١٨٢، وأبو داود (٢٥٠٨)، وابن ماجه (٢٧٦٤).
(٤) البحر المحيط ٥/ ٩٢.

من الوجوه)[١].

وقال الآلوسي: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، بالإيمان والطاعة ظاهرًا وباطنًا، كما يفعل الموالي الناصح، فالنصح مستعار لذلك، وقد يراد بنصحهم المذكور بذل جهدهم لنفع الإسلام والمسلمين، بأن يتعهدوا أمورهم وأهلهم وإيصال خبرهم إليهم، ولا يكونوا كالمنافقين الذين يشيعون الأراجيف إذا تخلفوا)[٢].

وما أحسن ما قاله الأستاذ سيد- رحمه الله- عند هذه الآية: (بمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثل هذه الروح عزَّت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء، ولننظر أين روحنا من تلك العصبة، ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر، وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان)[٣].



(١) فتح القدير ٢/ ٢٩٣.
(٢) روح المعاني ١٠/ ١٥٨.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٨٦.

الوصايا

الوصايا عند هذه الآية كثيرة، لكن لا بد لنا من وصيتين في ختام العهود، إنهما يخصان مَن حول الشام أكثر مما يخصان أهله، وهما وصية لأهل العلم، ووصية لأهل الدثور.

الوصية الأولى: هؤلاء الربيون... فأين ورثة النبيين؟

يا أهل الجهاد في الأرض المباركة: ثمة رجال من أهل العلم نفروا بأقلامهم وأقوالهم معنا، وإن كانوا في بلادهم، وهم- والله الذي لا اله إلا هو- قليل قليل قليل!

فهؤلاء العلماء وطلاب العلم المجاهدون بمشاركتهم معنا حقيقة، وإن تخلَّفت أبدانهم في بلدانهم، فأثرهم أبعد من حدود بلادهم، ورميهم أبعد من مدى أرضهم، وأثرهم في صفوفنا أثر عظيم، أثر الخطيب المصقع في تحريض الجيش على الجهاد وقد تواجه جند الله وجند الطاغوت، أثر الأنبياء في ساح الجهاد، ونحن بإذن الله الربيون.

معاذ الله أن نقول: عطِّلوا مشاريعكم كلها وتفرغوا لنا...

ولكن أي مشاريع شرعية يمكن أن تجد بها عن الجهاد في الشام شغلاً كاملاً؟!

أي مشاريع تجعل جهاد الدفع فضولاً؟!

ارجعوا إلى أنفسكم واحكموا بأنفسكم، الواقع يقول: إنَّ العدو إن تمكن فسوف تجري مخططاته العظمى عليكم جميعًا، لا تترك أرضًا ولا منهجًا، ولا مسجدًا، ولا شيئًا إلا أتت عليه، وكلكم يعرف أنَّ الذي أضرهم وأربكهم هو هذا الجهاد بفضل الله وحده، فمالكم تغافلتم عنه وتشاغلتم بمشاريعكم كما تقولون؟!

إنَّ مثلكم مثل مجاميع القرى التي أخذت تبني لها في الوادي بيوتًا صغيرة، وتزينها وتجملها وتؤثثها، تاركة السد الكبير المتهاوي في أعلى الوادي ينذر بالسقوط الكبير، وفصل الشتاء قد ابتدأ، والسيل جارف في الطريق يهدر!

الغريب حقًا أنَّ لكل فضيلة جعلتم مشروعًا إلا مشروع الجهاد، فمشاريعه لم تعد سرِّية فحسب، بل تحللت شيئًا فشيئًا بمرور الأيام، بعدما ابتدأتم أول مرة، ثم عادت مشاريعه هزيلة مريضة عجفاء، جوفاء، لا تنقي ولا تقي...!

لكن ماذا يمكن أن يُسمَّى شرعًا من أبى أن يقوم بهذا الدور وهو قاعد في بلاده، وهو قادر على ذلك؟!

أهُم خوالف الخوالف أم قواعد القواعد؟!

أفتونا مأجورين؟

يا علماءنا الأكارم: هل منكم من أحد إلا وتحدَّث عن الجهاد في سبيل الله يومًا من الأيام، وذكر فضائله وهيَّج النفوس نحوه... واللهُ سبحانه قد شهد عليكم بذلك، وشهدت الملائكة وعباد الله الصالحون ﴿ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴾.

أم نحسب أنَّ الله تعالى يسجِّل على بني إسرائيل أقوالهم في القرآن وهو لا يسجِّل أقوالنا، مع ما في معاني أقوالنا من عهودٍ عظيمة، ومواثيق مغلظة؟! لم هذا الحسبان؟! ألأنَّ القرآن تمَّ ولا آيات جديدة تنـزل في الموفين بعهود الله، وفي الناقضين للميثاق؟!

أم أنَّ حساب الآخرة لا يعنينا- الآن- كثيرًا، فنحن لا نهتم إلا بما بين أيدينا مما نراه بأعيننا ونتحسسه مما في هذه الدنيا؟!

أم أنَّ هذا النـزال المستعر ما بين التوحيد والشرك على أرض سوريا لا يعنينا، ولا نُسأل عنه، ويسعنا السكوت عليه؟!

أم أنَّ تخدير الإعلام بلغ من العلماء وطلاب العلم مبلغه، فما كان يؤلمهم وخزه من حافة إبرته أصبح لا يثيرهم، وإن غرس في خاصرتهم كامل إبرته؟!

أم أنَّ تلويح أجهزتكم الأمنية أسكت ثورة ذاك الشيخ على منبره، وقطع لسان ذِكْرنا عن خطبه ومحاضراته، وكَسَر قلم ذاك الكاتب عن كتاباته في صحيفته أو موقعه أو نشرته، وألجم ذاك الخطيب والإمام من أن يرفع لله دعاءً لنا في قنوته أو جمعته؛ لأنَّ في طريق الدعاء الصاعد قطاع طريق، يخاف أن يعرفوا مصدر هذا الدعاء الصاعد إلى الله فيتابعون صاحبه؟!

ألا يكفي هؤلاء العلماء المتخلِّفين عقابًا أنَّ الله يحرمهم العلم، وإن بقي الناس يسمونهم علماء: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٩٣].

طُبع على قلوبهم فهم لا يعلمون، فإذا استأذن العلماء في التخلُّف فقد حقَّ الطبع وسُلب العلم، فما قيمة العلم المجرد عن العمل؟!

اجعلوا كلَّ صفةٍ شرف ورفعة واجعلوا بعدها صفة من الخوالف، أو من القواعد، وانظروا كيف تنقلب تلك الصفة رأسًا على عقب، وخزيًا على صاحبها!

(عالم) لكنه من الخوالف، (طالب علم) لكنه من القواعد، (عابد) من الخوالف، (غنيٌّ مسلم) من الخوالف، (خطيب) من الخوالف، كاتب إسلامي من الخوالف، وهكذا...

وربما لم يدرك البعض قيمة هذا المصطلح القرآني، عند هذا أقول له أبدل الخوالف بالمصطلح المرادف له، ألا وهو «منافق»، نسأل الله العافية لنا ولعلمائنا!

إن كانت أخوَّة الدين ووحدة جسد الأمة كافية، فها هي أعضاؤكم في الشام تبث لأعضائكم شكواها...

وإن كنتم تنتظرون الاستنصار، فاللهم اشهد أنا استنصرناهم وما نزال... وكفى بالله شهيدًا.

وإن كنتم تريدون رسالة، فهاكم رسالة من الله تقرؤنها في كتاب الله وتشاهدون شواهدها كل يوم بأعينكم: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء:٧٥].

فهل بلغكم صراخ مستضعفينا عن طريق رسالة الله؟ فأين الجواب؟ أين الجواب؟

أيها العالم وطالب العلم المتخلِّف: كيف ستفسر بعد اليوم آيات الجهاد في سبيل الله لطلابك؟!

كيف تحرضهم، وأنت في قرارة نفسك من القواعد؟!

كيف تُعرِّف لهم توحيد الله، ووجوب التوكل عليه، وأنَّ من الشرك شرك التوكل، وأنت تقرأ لهم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف:١٩٤-١٩٨]؟!

كيف ستفسر لهم القرآن، وقد مررت بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:٧٧]؟!

كيف ستفسر لهم قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب:٣٩]؟!

بالله عليكم: كم من عالم كتب لنا وعنا... على مستوى أمة المليار وثلث المليار؟!

لا أقصد الكتابة على مستوى البيانات المقتضبة فحسب، ولكنها البحوث الشرعية المؤصَّلة المطلوبة.

فهل لهؤلاء العلماء المتخلِّفين من عذر إذا تركوا الجهاد يتخبط علميًا وحده؟!

هل الأولاد والأهل والزوجة والأموال عذر شرعي هنا، وقد استنصرناكم؟!

وربُّنا سبحانه يعد التخلُّف بسبب الآباء والأبناء والأخوة والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن، يعده تقديمًا لحبهم على حب الله ورسوله ﷺ، ولا يعذر فيهم فقال سبحانه: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

يغفو الأخ الشيخ أيامًا منشغلاً بكل شيء، ثم يفيق متسائلاً: أوَّه! ما أخبار الجهاد في سوريا؟

ثم يغفو ثم يستيقظ وهكذا... وهكذا!

وما أكثر دوي الشخير والنخير والغطيط والأطيط حول ميدان الجهاد الشامي؟!

فما عذرهم وهم من علَّم الناس العقيدة في هذا الزمان، وهم من طارت بخطبهم البليغة الركبان.

ها قد جاء الوقت بموعود الله؛ ليرى الرجل عقيدته، ويبتلي توحيده: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:٢١٤].

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:١-٣].

ها قد جاءت الأيام ليتقدم معلم الأمس قدوة اليوم، مقدام الكتيبة من بلده، وبين طلابه وأحبابه.

فما لهم يخوفهم الشيطان، وتخويف الشيطان ليس إلا على أوليائه، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]!

قد عرَّفنا إخواننا أهل العلم بالمراد، لكن حتى اللحظة لا ندري إلى متى لا جواب ولا صدى من الأحباب؟!

ما عذرهم؟! ألا يوجد في كل بيت لأهل العلم مكتبة تحيط بالشيخ من كل جانب حتى يكتب بحثًا كاملاً متخصصًا؟!

لقد جمعتَ- أيها الشيخ- من العلم ومن الكتب ما نخشى أن يكون حجة عليك غدًا!

أترى الله جلَّ في علاه سوف يسألكم يوم القيامة عن مقدار علمكم؟!

أم يسألكم سبحانه- وهو أعلم- ماذا عملتَ فيما علمتَ! لِمَ سكتَّ عما علمتَ؟

يسألكم وهو أعلم: ماذا قلتم إذا اقتضى المقام قولكم، واحتاج الناس لفصلكم؟

تقول: عرَّضتُ في الكلام وداريتُ في العبارة، واستخدمتُ الإشارة، وأنت تعلم يقينًا أنَّ ذلك لا يكفي لبيان الحق وإظهاره.

بل أنت ما صنعت ذلك إلا وتريد السلامة بإرضاء أعداء الله أو خوفًا منهم، كأنك تقول لهم بالتعريض الذي يفهمونه هم: إنك لست بمعارض لهم، وكأنك تريد أن تقول لله: قد قلتُ كلمة الحق التي علمتها أنت وحدك. وأنت تعلم أنَّ تلك الإشارة لا تغني في التبليغ شيئًا، ولا تقام بها حجة، ولا يتحقق بها بلاغ، ولا تخرج عن حد الكتمان بالنسبة لعامة المسلمين المطلوب إبلاغهم وإفهامهم وإقامة الحجة عليهم!

أتراك ساويت بين عقيدتك في القول، وعقيدتك في العمل؟!

فماذا ترى الفرق بين هذا التصرف وغايته، وبين مَنْ ذكر الله تعالى في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت:١٠]؟!

يا أهل العلم: هل ثمرة علمكم مقتصرة على الرخاء؟!

هل علمكم من النعومة والترف بحيث لا ينبت إلا في الظلال الظليلة، والمياه الباردة، والقصور المنيفة، فإذا ما أصابته شمس الضحى هزل، ومع الظهيرة اصفرَّ وذبل، وآخر النهار أصبح هشيمًا تذروه الرياح؟!

تغنَّوا بما شئتم من بطولات الصحابة والمسلمين، فإنَّ الحصاد هو: ما نصيبكم من

تلك البطولات، وقد أزفت آزفتها؟!

تغنوا بغزوة العسرة، فلا يعلم إلا الله أيَّ موقفٍ ستتخذون لو كنتم يومها من المخاطبين، لا تتعجلوا الإجابة، فتقولوا لو كنَّا في ذاك الزمن لفعلنا وفعلنا. نقول: فما الذي اختلف؟!

هل يرتبط الحكم عندك بوجود رسول الله ﷺ، وربُّ العالمين قال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤]؟!

أم تنتظرون- اليوم- آية من السماء تقطع بأنَّ النصيرية أعداء، وأنَّ قتالهم جهاد، وأننا وإياكم أخوة في الدين؟!

أليست المؤاخذة على قدر العلم؟! فأيُّ الناس في الأمة أعلم منكم؟!

أليس الحساب على قدر التكليف ونوعه؟! فأيُّ تكليف أعلى من ذروة السنام، وقد أصبح فرض عين في أرض الإسلام؟!

إذن كيف النجاة وهذه أسئلة بشر لا نخلص منها إلا بالجدال بالباطل؟!

كيف بيوم يقال لك فيه: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤]؟!

كيف وأنت- أيها العالم- تعلم أنَّ كلمتك سهمُ نصر في كنانة مجاهد، وسهم قاتل في كبد عدو، ومع هذا لم تطلق سهمك، ولم تنثر جعابك لمن يطلق سهامك؟!

كيف وأنت تعلم أنَّ فتواك بأنَّ زكاة أهل بلدك، وزكاة المسلمين للمجاهدين

واجبة، مع ما فيها من كفالة لمجاهد، وخلف له في أهله بخير، وغزو في سبيل الله، وحماية لأعراض مسلمات، ونصرة لعقيدة التوحيد أمام العقائد الباطنية... كل هذا وأنت لم توجِّه أموال الناس بفتوى أو كلمة أو إشارة نحو ميدان الجهاد والشهادة؟!

كيف تترك كلَّ هذا وأنت تقرأ القرآن، كلام الله تعالى، عن المنافقين؟!

كيف وأنت تعلم أنَّ الدفاع اليوم بكلمة، أو كتاب، أو فتوى، له قوة نافذة، وحماية دافعة، ربما كان المنتفع الأكبر منها هم أنتم ودعوتكم، ومشاريعكم الإسلامية؟!

يا علماءنا الأكارم: لو تصورتم الإسلام شخصًا شاخصًا لرأيتموه يقطر دمًا من أعلاه إلى أسفله، وما رأيتم شبرًا واحدًا في جسده إلاَّ وفيه طعنة أو رمية، وعدوه محيط به من كل جهة.

وها أنتم قد رأيتم بأنفسكم الدماء قد بدأت تنـزف من هذا العدو، فإذا الطاعن للعدو هم إخوانكم - نحن - في أرض الشام والعراق، وإخواننا في أفغانستان، وترون العدو بدأ يشكو، علا صراخه، علا استنصاره، لم يعد يكتم تجلده، بدأ يترنح...

فبالله عليكم: مَن سيوقف هذا الضبع المستكلب إن لم يوقفه المجاهدون؟!

بالله عليكم: ما عقوبة من يتخلى في هذه المرحلة على وجه الخصوص عن الجهاد في سبيل الله؟!

بالله عليكم: ألستم تهدون للعدو تمكينًا وبقاءً إن لم تعطونا العتاد، وتعينوننا على رص صفوفنا؟!

أترى الله سبحانه خصَّ بني إسرائيل بالقرآن؟!

أم خصهم بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب:٣٩]؟!

أيمكنك- أيها القارئ- عالماً أو طالب علم أن تقرأ بيقين المؤمنين المتوكلين، ثم تحدث نفسك متسائلاً أين أنا من هؤلاء؟

يبقى في كل زمن من الأزمنة رجال، أو رجل، حجة على الناس، منارًا للحق، موصلاً مَن سلف من الصالحين بمن خلف، يمنع الله به انقطاع الحق، وطمسه في أيِّ زمان من الأزمنة.

فهل أنت هذا الرجل؟

أيصح أن تكون منارة وتكون مطموسة طوال عمرها بالتورية والتعريض؟!

إلى متى وأنت تجازف بآخر ذرة من إيمان مكتفيًا بالإنكار القلبي، إذ ليس بعد الإنكار بالقلب حبة خردل من إيمان؟!

أنا لا أشك أنَّ البعض سوف يقول: يسعني ما وسع نبي الله موسى حين فرَّ من قومه وقال: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾، هكذا تلجأ النفس إلى أضعف الملاجئ والمغارات والمدَّخلات، وليس لها فيه من حجة، وليس لها في نبي الله موسى عليه السلام قدوة في قولته هذه.

كيف وموسى نفسه حين يقول هذا يقوله وهو أمام فرعون!

فلم تسعك الأولى ولم تسعك الثانية؟!

لِمِ وسعك حال موسى عليه السلام قبل النبوة في موقفه الأول هذا؟! فهو فرَّ بعدما أنكر بأعلى درجات الإنكار، ونصر بأعلى درجات النصرة، واستخدم يده بأعلى درجات الاستخدام، وما كان ذهابه إلا كفَيْئة المجاهد يفيء ليعود، وها هو قد عاد لفرعون!

لا، ليس أمر العالم الساكت في هذا الحال كالمنكِر في قلبه، بل هو ساكت عن الحق مع وجود مقتضى النطق.

فلو تأملت نظرة ولدك الصغير- أيها الخطيب- وهو يرى أحداث العراق ومن بعده الشام وجهاد أهله، ويستمع لكل المعنيين يدلون بدلوهم ثم يحضر عندك فلا يجد لها ذكرًا في خطبتك، وربما في دعائك، فماذا تراه سوف يفسرها في داخله؟!

ثم ماذا تراه سيقول عنك إذا استمع لخطيب آخر، يقول الحق ولا يخاف في الله لومة لائم؟!

أقنع طفلك الصغير، أقنع الفطرة السليمة الصافية فيه، قبل أن تحاول إقناعنا!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ذكروا أنَّ رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة، فقال: لو صَحَّحْتَ لم تخف أحدًا. أي: خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك، ولهذا أوجب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان، بل لا يخافون غيره تعالى، فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾، [آل عمران:١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه. وقال لعموم بني إسرائيل، تنبيها لنا: ﴿وَإِيَّٰيَ

فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة:٤٠]، وقال: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي ﴾، وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ﴾، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، وقال: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾. فدلت هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾، على أنَّ المرض والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب كفر الإنسان من الخوف، حتى يظنوا أنها كانت غرورًا لهم)[1].

لعلنا أثقلنا عليك أيها الشيخ! ولكن إن كان الثقل على شعورك، فنحن مطمئنون إلى أنَّ جرحك شعوريًا لن يدوم ألمه طويلاً حتى يبرأ ويعود الجرح متجمِّدًا متجلِّطًا كسائر مشاعرك ونفسيتك!

لكننا لم نقل ذلك إلا من باب قوله ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[2].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٤٩-٤٥٠.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١) و(٢٤٤٦) و(٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥) (٦٥)، وأحمد ٤/ ٤٠٤

يعيب أحدنا على أصحاب الكراسي سكوتهم، ومجاملاتهم، وربما سماحهم باستخدام أراضيهم وأجوائهم للأمريكيين، ولكنك لا تدري فلعل سرَّ ذلك العمل بقاعدة: (كلٌّ يعطي على قدر ما عنده)، فأنت عندك مال قليل وتريد العيش سالماً في نفسك فجاملت على قدر ما عندك، وهذا عنده كرسي البلاد وحكمها فجامل على قدر ما عنده.

ومن يدري لو تغيرت المواقع لربما عملت مثلما عمل وزيادة!

إذن فلنكف عن التغني بشجاعة شيخ الإسلام ابن تيمية، وإنكار العز بن عبد السلام، وإقدام ابن المبارك، وثبات سليط، وعزة الإمام أحمد، ومن قبلهم ومن بعدهم من سلف هذه الأمة.

ولقد شاء الله سبحانه أن يحيينا في فترة من الزمن وإياكم، ليرى صنيعنا وصنيعكم، وسبحان من سيجمعنا عنده: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر:١٥-١٧].

يجب أن توقنوا بأنَّ كل لحظة تأخير تكلِّفنا الكثير، كل لحظة تأخير يزداد فيها الخرق اتساعًا، كل لحظة تأخير تقتص فيها أرواح منا ومنكم، كل لحظة تأخير يذهب فيها

و٤٠٥ و٤٠٩، والترمذي (١٩٢٨)، والنسائي ٥/ ٧٩.

شهود عليكم هم فرطكم من الحساب.

وأنتم- ما زلتم- تقولون لا نستطيع أن نؤجِّل مشاريعنا لأجل مشروعكم! أو لم يؤجل النبي ﷺ الصلاة بعدما أقيمت من أجل حل الخلاف، وترك الصحابة في المسجد إلى أن كاد يدخل منتصف الليل؟

كل لحظة تأخير للتحريض على الجهاد والثبات ينسل شباب مجاهدون من الميدان، إذ الأبواق تناديه من على أبواب جهنم: إلينا، إلينا!

كل لحظة تأخير لتأصيل المسائل المختلف عليها بين الفصائل يزداد فيها أهل الغلو إغراء لأناس، واستغفالاً لهم واستغلالاً وتسخيرًا لهم في طعن إخوانهم!

لسنا والله- ونحن نقدم لكم هذه الكلمات- من الذين يقدمون في منهجهم الطعن في العلماء في اللسان، ثم يخوضون في دمائهم! لا والله، إنما هو خوف الولد أن يفتضح أبوه، وخوف الطالب على شيخه أن يزيغ وهو لا يدري، وإلا فإنَّ هذا دين الله، وهو ماض...

إننا والله، نخاف على هذا الباب الجهادي أن يغلق من هنا، وتغلق صحائف من هنا، فيرحل أصحابها من هنا، فيسألهم ربهم سبحانه، وهو بهم أعلم، عن ذلك فبم سيجيبون؟

ربما اعتذر بعض أهل العلم بأنه يخشى أن تزيد كلمته الفتنة اشتعالاً على أرض الشام.

وهل العالِم الحق لا يستطيع التفريق بين ما يزيد الفتنة، وبين ما يقضي عليها؟!

أم أنَّ العالِم الحق يرى الفتن تشتعل، فينشغل عنها تاركًا أهلها يحترقون فيها!

لا زالت كتاباتكم لا تتعدى بيانات إجمالية من أسطر معدودات!

وكلمات مقطعة بين الأمد والأمد البعيد!

ومازالت كلماتكم لا تمس مكمن الداء، ولكنها تَعْبر عليه عبورًا.

نحن لا نريد أن يكون العلاج بالتحول إلى الطرف المنافق المثبط أو المداهن المهادن، ولا باتباع منهج الغلاة الذين هم الضربة النجلاء في جهاد أهل السنة في الشام، لا هذا ولا هذا، ولكن لكي تكون منصفًا في مثل هذه الظروف، لا بد أن تمس الحقيقة في كل هذه الأمور كي لا يستغلها أهل الأهواء.

إياكم أن تعبروا على هذه الكلمات عبورًا سريعًا، أو تمر عليكم مرَّ السحاب.

أوقفوها وتوقفوا عندها، وقولوا فيها كلمة يشهد لكم فيها المجاهدون عند الله يوم القيامة.

فكلمة النُصْرة في وقت الخذلان تكشف غربة، وتشد أزرًا، وتطمس فتنة، وتنير ظلمة، وتنصر جبهة، بل جبهات.

فإنَّ الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة كما جاء في الحديث.

أيها الشيخ المجاهد معنا بقلمك، أيًّا كنت وأينما كنت: إننا نتصورك جيدًا وأنت في بيتك، وإنك وأنت خلف مكتبك ممسكًا بقلمك تكتب في سبيل الله عن الجهاد في سبيل الله، فإنما أنت تكمن خلف ساترك في ميدان الجهاد في سبيل الله تريد مقتل

العدو.

إنك وأنت في مكتبك تبحث في الكتاب والسنة، وترجع إلى العلماء ومراجعهم، فإنما أنت تعد العتاد لأهله الذين كاد عتادهم أن ينفد!

إنك وأنت بهذا الدليل وذاك المرجع، تجمع من هنا وهناك، وتحسن البحث وتحققه وتنقحه ما استطعت، وتزينه بعباراتك، لله وحده، فإنما تعد العدة لتحشد المئات والألوف، يتسابقون بسببك إلى الميدان، فاجمع ما استطعت من أجور هذه الحشود المستجيبين لك، وأجور أولئك التائبين العائدين من الفرار، وأجور أولئك الشهداء.

فأيُّ جهاد بعد هذا؟!

وهل لو ذهبت بعد هذا إلى الله كانت بضاعتك كاسدة؟!

واللهِ لكأنَّ همم الرجال عندنا وقود، ولكأنَّ سنان قلمك زنادها، ولكأنَّ هجوم الأعداء طوفان، ولكنَّ ورقتك سدها...

ولكأنَّ الزنادقة والمنافقين في الصف ثعابين، ولكأنَّ مداد قلمك سمُّها، ولكأني بسوح الجهاد قفر، ولكأني بكلماتك غيثها...

الوصية الثانية: لأهل الدثور

يا أهل الدثور والإيمان من أمة الإسلام: كم أثَّرت هذه الآية- آية هذا العهد- في قلوبكم كلما مررتم بها: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ

مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة:٩٢]. وكما أثَّرت في قلوبكم فقد أثَّرت في قلوبنا من قبل، لكن لو سمعتم الزفرات كيف تفور من صدور الرجال عندنا، حين نعتذر إليهم بعدم القدرة على حملهم، وعدم وجدان من يكفلهم!

فما أكثر الذين لا يجدون ما ينفقون في ديارنا، وما أكثر الذين يجدون ما ينفقون في دياركم وهم لا ينفقون؟!

وما أكثر الذين تفيض أعينهم من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون، وما أكثر الذين تفيض خزائنهم عندكم وهم على الدنيا يتباكون؟!

وبعد كل هذا تتساءلون: ما بال عملياتكم خفَّت؟ وما لها ضعفت؟ مالها تباعدت؟

يا أهل الدثور: كما يُظْهر ميدانُ الجهاد نفاق المنافقين، فقد حوَّل ميدان الإنفاق على الجهاد آخرين إلى منافقين، بنص القرآن الكريم، ولا يزال هذان الميدانان يفرزان الناس إلى منافق وصادق.

فإنكم إذا عرفتم أنَّ هذا جهاد في سبيل الله، وعرفتم أنه جهاد دفع، وعرفتم الطرق الموثقة لإيصال المال إليه ولم توصلوه، وبخلتم ولم تنفقوا، فما ترى الحكم الشرعي في ذلك؟!

فلنقرأ القرآن الآن، ثم لننظر كيف خاطب المؤمنين من قبل؟ ولننظر كيف حضَّهم على الإنفاق؟ كيف ربط الإنفاق بالإيمان؟

كيف ربط ترك الإنفاق بالنفاق؟

دعْكم من كل العوارض، وانظروا في الآيات على أنها نازلة عليكم وجهادكم قائم، وداعي الإنفاق يستصرخكم.

﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد:٧-١٨].

فمن ضَمِن من أصحاب المال عدم وقوفه خلف هذا السور بوجهه الناري وهو مازال مصرًّا على بخله على ميدان الجهاد فليفعل!

ومن أبى أن يقرض الله سبحانه قرضًا حسنًا فليفعل! وحساب الله ينتظره.

ومن كان لديه الرغبة أو الاستعداد لتحمل تبعات الفصل بينه وبين المؤمنين فلا ينفق!

ويبيِّن شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ ترك الإنفاق على الجهاد أعظم من كنـز المال فيقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فهذا يندرج فيه من كنـز المال عن النفقة الواجبة في سبيل الله، والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله، سواء كان ملكًا، أو مقدمًا، أو غنيًا، أو غير ذلك... وإذا دخل في هذا ما كنـز من المال الموروث، والمكسوب، فما كنـز من الأموال المشتركة التي يستحقها عموم الأمة وتستحقها مصالحهم أولى وأحرى[١].

ويقول شيخ الإسلام: وقال في وصفهم بالشح: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾[التوبة:٥٤]، فهذه حال من أنفق كارهًا،

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٤٠.

فكيف بمن ترك النفقة رأسًا؟! وقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[التوبة:٥٨]، وقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[التوبة:٧٥-٧٦]، وقال في السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[التوبة:٣٤-٣٥].

فانتظمت هذه الآية حال من أخذ المال بغير حقه، أو منعه من مستحقه من جميع الناس، فإنَّ الأحبار هم العلماء، والرهبان هم العباد).

ولكأني بالله جلَّ في علاه، الذي أنزل تلك الآيات، يرسل لكم الرسائل بالحث على الإنفاق على ميدان الجهاد بصور مختلفة، لكن هل تحسنون قراءتها؟!

يا أصحاب الدثور: لو أنكم جعلتم هؤلاء المجاهدين لكم أولادًا حقيقيين من النسب لتحسستم حاجتهم بالتوقع والإحساس، ولاستخبرتم عنهم الصبا والدبور، وانتظرتم أخبارهم عند طلوع الفجر وعند الغروب، ولاتخذتم كل حيلة لتوصلوا لهم الزاد واللحاف واللباس.

يا أهل الدثور: لو أحسنتم قراءة الأحداث والأقوال القادمة إليكم من عندنا، بقلوب الأخوة المستطلعة المشفقة على شمعة الجهاد أن تنطفئ، لتوصلتم إلى النتائج الحقيقية من خلال كل شيء، لو أحسنتم تأمل الأحداث، لعلمتم أنها رسائل من الله تعالى يقيم فيها لكم أو عليكم الحجة كرسائل المستضعفين التي بلغها الله المجاهدين أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [النساء:٧٥].

رسائل الله كثيرة، فأحسنوا القراءة يا إخواننا.

حتى إذا ما افتقدتم العمليات الجهادية، كان ذلك رسالة لقلوبكم المؤمنة التي تقول عندها: فمنذ متى ما دفعنا لهم، وما حضضنا الناس على ذلك؟

وإذا ما سمعتم مطالبة رؤوس الكفر أقوامهم بمزيدِ دفعٍ لتحقيق النصر على الإسلام والمسلمين، كان ذلك رسالة ملتهبة لقلوبكم المؤمنة أن قوموا وانصروا دين الله بأموالكم، وحضكم، وبكل ما تستطيعون، فأنتم أحق بالحق من هؤلاء بباطلهم.

وإذا ما سمعتم إعلانهم عن التوصل إلى سلاح جديد يحرق، ويخرق، ويذيب، ويهلك... كان ذلك رسالة استغاثة لقلوبكم، أن أنفقوا؛ لتحصنوا إخوانكم.

وإذا سمعتم إسقاط المجاهدين طائرة، أو تدمير دبابة، أو ما إلى ذلك، كان ذلك رسالة لقلوبكم المؤمنة تقول: اللهم إن لم تجعل لي في إسقاط هذه الطائرة نصيبًا فاجعل

لي في القادمة نصيبًا، وتهب من فورك للإنفاق في سبيل الله.

وإذا رأيتم المجوس وهم يتبرعون لجنودهم في أرض سوريا ليخربوا المساجد ويمثلوا بدعاة الإسلام، علمتم أنها رسالة تتحول إلى هبَّة تقيمكم من فوركم هذا، إلى إخراج ما يمكن إخراجه في مقابل ما يدفعه الباطنيون، فلعل الله يبارك في القليل.

وإذا سمعتم ما يفعله هؤلاء المجرمون من دمار في البيوت والمدن، كان ذلك رسالة بالإنفاق لتعويض هؤلاء.

وهكذا إذا وضع أحدكم رأسه على وسادته واستدارت عيناه في ظلام غرفته، استذكر العينين اللتين تحرسان الإسلام في الشام، في هذه اللحظة، فكانت رسالة بالمشاركة في الحراسة، وكفالة الحراس!

وهكذا إذا أكل، وإذا جاع، وهكذا إذا تقلَّب في ميادين الحياة استذكر أصحاب ذلك الميدان، وتقلباتهم...

وهكذا فإنه إذا أحيي إحساس البدن الواحد أحسن إيصال الشعور إلى العقل، فأحسن القراءة، وأحسن التفسير للحدث، حتى وإن كثرت الأعضاء والإصابات فلا غرابة أن تجد في كلِّ خبر عملاً لك، وتكليفًا تقوم به من فورك، فاستشهاد المجاهدين يدلك على وجوب كفالة آخرين، وكفالة أزواجهم وأولادهم...

حتى إنفاقكم الدائم على الفقراء والمساكين ومشاريع الخير لا تجدون فيه عزاءً عن الإنفاق في الجهاد، بل تجدون فيه رسالة نجوى وشكوى تقول: فما نصيب المجاهدين،

بل ما نصيب مشاركتي معهم؟

أليس هم الأَوْلى؟!

فكل الناس يرعون هؤلاء الذين عندنا، فمن لأولئك؟!

كيف وأنتم ترون وتقرأون رسائل على غرار إخبار الله المؤمنين عن عمل الكافرين بقوله: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾ [ص:٦].

يا أخوة الإحسان والإسلام: مَنْ مِنكم ناصفٌ لله ماله ولو مرة واحدة لأجل الجهاد في سبيل الله، ولا أقول أعطى ماله كله؟

مَنْ منكم أوقف أملاكًا له على الجهاد في سبيل الله، كما أوقف الصحابة خيولاً وجمالاً وأدرعًا وسيوفًا وما إلى ذلك؟

واللهِ إننا لنشفق عليكم المصير الخطير الذي ذكره الله جلَّ جلاله عن أنواع ملاك المال في سورة التوبة، حتى أودت بهم أموالهم إلى الدرك الأسفل من النار.

ومع كل هذا فأنت أيها المحسن تفر بذلك من حكم الله تعالى الذي سمى الفار من الزحف عند اللقاء منافقًا، وسمى البخيل بالإنفاق على المجاهدين منافقًا!

لك أن تستحضر رسول الله ﷺ بنفسه ينادي على الإنفاق وأنت صاحب المال، والغزوة قد حضرت، وجموع المجاهدين الفقراء عزَّل بانتظار من يجهزهم، فماذا أنت صانع؟!

إذن ها هو الميدان قد حضر، والجموع تنتظر... ورب العالمين بنفسه في كتابه

يناديك:

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد:١٠].

ورسول الله ﷺ قائم اليوم بيننا، ونداؤه محفوظ حيٌّ في سنته ينادي، ومنادي المجاهدين من نداء الله جلَّ في علاه ونداء رسول الله ﷺ، والاختبار قائم، وقد تواجهت الصفوف، فمع من سوف تصطف؟!

أمع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عوف وطلحة الخير في إنفاقهم وفي حضهم على الإنفاق، أم مع من لمزوا المطَّوِّعين، وبخلوا، وأمروا الناس بالبخل؟!



الخاتمة

العهد الأخير: إذا انقطع إمدادكم

يا إخواننا في الداخل والخارج: أما إذا انقطع عنا الصوت من ناصحكم وعالمكم، وانقطع الإنفاق على جهادكم، وأحاط بنا الأعداء من كل جهة، وتساءلتم عندها عن الحيلة إن كان ثمة حيلة!

فيارب نحن عبيدك وهذا سبيلك، ولن نتركه، وإن تَرَكنا إخواننا وتركوه!

لا وعزتك، لن ينطفئ نورك - بإذنك -، سننفخ أرواحنا ريحًا لو قدرنا؛ لنوقد من أرواحنا جذوة، ولتذهب الروح كالهباء كما تذهب النفخة في الهواء؛ ليضيء نورك في الأرض، والحمد لك على فضلك بقبول تلك النفخة.

يا رب: لو اقتضى غرس دينك أن نسقيه بدماء أبداننا، فوعزتك سوف نسقيه، وإن جفت الأبدان، ونشفت شيئًا فشيئًا، إذ هي تتذوق الموت، وتقضي نحبها شيئًا فشيئًا! فليثمر غرس دينك من دمائنا، ونحن عاجزون عن شكرك، لاختصاص دمائنا

بالقبول من بين دماء خلقك وصالحي عبادك!

يا رب: لو وهبنا البررة من أبنائنا ليرتفع صرح دينك على جماجمهم، لرفعنا صرحه بجماجمهم وجماجمنا، فاللهم لك الحمد على أن تَرْفع أقدارنا حين تَرْفع بها دينك.

بأيِّ وجه يلتفت إلى الله من كان بينه وبين الله عهد وهو لم يوف به بعد؟!

قد رأينا من وجوه الخلق ما رأينا، وما عاد للقلب محبوب ومطلوب مثل وجهك الكريم!

يا رب إنَّ الناس يروننا نتقلب في هذه الحياة كما يتقلبون بوجوه يطفح منها الفرح والسرور، لكنك سبحانك تعلم وحدك أننا نغبط تلك الوجوه التي نالت الشهادة لوجهك...

اللهم ألحقنا بهم، مقبلين غير مدبرين...

نذل وجوهنا لوجهك، وأحبُّ عمل عندنا السعي لوجهك، نتحرك وأحبُّ حركة عندنا أن يُمرَّغ وجهنا لوجهك، وتقطع رؤوسنا عن أجسادنا لوجهك، وتثور دماؤنا ساخنة من صدورنا، فنحثوا الدماء بأيدينا على وجوهنا لوجهك!

يا ربنا: حرِّم هذه الوجوه على النار.

يا ربنا: اقبل هذه الوجوه؛ كي ترى وجهك الكريم غدوًّا وعشيًّا.

يا ربنا: اقبل هذا العهد وأعنا على الوفاء.

واجعلنا ممن جرى قلم قدرك فيه أنه من أهل قولك: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا

عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب:٢٣].

يا إخواننا في الداخل والخارج: لو تركتم نصرتنا، وتركتم إخوان الجهاد في الطريق وقد تفاوضتم على المبادئ- لا قدَّر الله- لما فعلنا ما دامت فينا عين تطرف.

لا والله، حتى لو قتل فلان، وفلان، وفلان، وما بقي فينا قائد من القادة، وألقيتم السلاح وجلستم على سفح جبل كجبل أحد، وصحتم بنا: ما تصنعون بالجهاد بعد كل هذا؟!

لأجبناكم: وما تصنعون بالحياة بعد ذهاب من قضى نحبه من الأحبة؟!

ما تصنعون بالركون إلى الجبال بعدما ذهب خيرة الرجال، وأيُّ مقام لكم إذا ألقيتم سلاحكم وأسلمتم لهم أعناقكم؟!

لا، لا تحسبوا هذا مجرد أحرف مزوقة... فما الذي نمارسه نحن في الليل والنهار إلا بيع الأرواح إلى ربنا وحبيبنا- الله سبحانه وتعالى- ونحن في أشد الاشتياق للقائه.

والله إنَّ العزيمة اليوم أعظم، والثقة بالله أكبر، وهزيمة العدو أقرب، ولقد أصبح خذلان الخِلِّ لنا حافزًا، وأصبح اجتماع الأحزاب مبشرًا، وأصبح تساقط المتساقطين دافعًا للمزيد؛ لأنَّ ذلك- في عرفنا- يقرِّب نزول النصر، إذ ماذا بعد أن يتخلى الخلق عنا إلا أن يتدخل الخالق سبحانه.

وماذا بعد أن تذهب غيرة الخلق إلا أن يغار الله على أوليائه؟!

حسبك غيرة الله سبحانه! حسبك غيرة الله سبحانه! حسبك غيرة الله سبحانه!

لا... لن نترك الإسلام للكفر، لن يؤتى الإسلام من قبلنا بإذن الله.

هتف رسول الله ﷺ بربه سبحانه لما نظر لكثرة المشركين في ساح بدر عند باب عريشه، فجاءه الخطاب من ربه وهو على عرشه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩].

أحاط الأحزاب واليهود بالمدينة، إحاطة الضباع بالفريسة الضعيفة...

فجاءه الجواب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩].

نفرت الجموع تاركة رسول الله ﷺ وقلة حوله في غزوة حنين تواجه الآلاف المستكلبة المتعطشة المتحالفة، وأيقنوا أنَّ الفرار سيلحق الجميع، ورسول الله ﷺ على بغلته وهو يصيح: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب)[1]، وأمر العباس أن ينادي يا أصحاب سورة البقرة، يا أصحاب الشجرة، فعطفوا على رسول الله ﷺ كما تعطف البقر على ولدها.

ذكَّرهم العهد، (يا أصحاب الشجرة) فاستذكروا، وعرفوا أنهم وسورة البقرة أصحاب، إنها الوشيجة الكافية التي أعادت الفار إلى ميدان الموت والحتوف، وإنها

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤) و(٢٨٧٤) و(٢٩٣٠) و(٣٠٤٢) و(٤٣١٥) و(٤٣١٦) و(٤٣١٧)، ومسلم (١٧٧٦) (٧٨) (٧٩) (٨٠)، وأحمد ٤/ ٢٨٠ و٢٨١ و٢٨٩ و٣٠٤، والترمذي (١٦٨٨)، عن البراء، عن النبي ﷺ.

صحبة لا نبتغي بها بدلاً.

فيا أصحاب سورة البقرة وآل عمران قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد.

بسم الله الرحمن الرحيم

ملحق في بيان حال النصيرية

المقدمة

مازال كثير من المجاهدين في سبيل الله لا يعرفون النصيرية العلوية حق المعرفة فضلاً عن غير المجاهدين، فضلا عن أهل الشام، فضلاً عن بقية أهل الإسلام!

وهذا أمر في غاية الخطورة، فأنى لمن لم يعرف عدوه حق المعرفة أن يواجهه حق المواجهة!

وأنى لمن لم تتبين له غايات عدوه الكبرى أن يدرك خططه ويكشف تلبيسه؟!

إنَّ أمر الخطط التفصيلية واستبانتها أمرٌ من الأهمية بحيث أنَّ الله قد فصَّل له الآيات تفصيلاً، فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام:٥٥]، وسبيل المجرمين هو طرقهم الموصلة إلى غاياتهم.

لقد اجتمعت عدة أمور أخفت حقيقة هؤلاء الزنادقة، وما عاد اليوم بعد هذه المواجهة عذر لمعتذر، وما تخفيه هذه المرحلة عند البعض سوف تكشفه المرحلة القادمة، وهكذا تتساقط الأعذار والتبريرات ولا يبق إلا المطموس أو المدسوس.

لقد كان التخفي عند هؤلاء الزنادقة بستار الإسلام أمام المسلمين ضرورة لبلوغ

المراحل اللاحقة، وهذا ما وقع، فكيف وعقيدتهم في التقية أشد من عقيدة الرافضة بأضعاف؟!

يقول الدكتور حمود حربي ملخصًا حالهم: (تنسب طائفة النصيرية إلى: «محمد بن نصير البصري»[1] من موالي بني نمير، وهو فارسي الأصل من خوزستان، وتعتبر هذه الفرقة - التي ظهرت في القرن الثالث الهجري- إحدى الفرق الباطنية التي ترى أنَّ فرائض الإسلام لها ظاهر وباطن يخالف ذلك الظاهر، ويفضِّل النصيريون تسميتهم بـ «العلويين» نسبة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو مسمَّى أطلقه عليهم المستعمر الفرنسي إبَّان احتلال سوريا سنة ١٩٢٠م؛ تمويهًا على المسلمين في حقيقة هذه الطائفة التي حكم عليها علماء الإسلام بعد ظهورها بالكفر، والحكم على هذه الطائفة بالإسلام أو الكفر يقوم على أصلين اثنين:

الأول: معرفة معتقدات هذه الطائفة ومقالاتها من خلال تراثها الفكري.

الثاني: عرض هذه المعتقدات على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ هما الحكم الفصل لكل مسلم ومسلمة في كل كبيرة وصغيرة، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن

---

(١) وسموا نصيرية نسبة إليه، وهو قول أكثر العلماء، وقيل نسبة إلى نصير مولى علي رضي الله عنه، كما قال القلقشندي في «صبح الأعشى» ١٣/ ٢٥٣: (قال في إرشاد القاصد وهم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم يدعون ألوهية علي رضي الله عنه مغالاة فيه). وقال الصفدي في «الوافي بالوفيات»: (نصير: مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال لعلي بن أبي طالب: أنت إلهٌ، فأبعده وحرقه بالنار، فقال: لو لم تكن إلهًا ما عذَّبتَ بالنار، وإليه تُنسب الفرقة المعروفة بالنصيرية).

﴿يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]. أما الأول: فمع أنَّ النصيريين يعدُّون ديانتهم ومذهبهم سرًا من الأسرار العميقة كما ورد في كتابهم: «الهفت الشريف»: «يا مفضل: لقد أعطيت فضلاً كثيرًا، وتعلمت علمًا باطنًا، فعليك بكتمان سر الله ولا تطلع عليه إلا وليًا مخلصًا»، وقصة سليمان الأذني وهو من أبناء مشايخ النصيريين لما ألَّف كتابه «الباكورة السليمانية»[1]، وكشف فيه الكثير من أسرار العقائد النصيرية فأحرقوه حيًا، وقصته مشهورة، أقول ومع ذلك الحرص تسربت بعض العقائد النصيرية إلى الضوء، فاطلع عليها الدارسون والباحثون، وقالوا كلمتهم في الطائفة ومعتقداتها، فمن معتقدات النصيرية «الحلول والاتحاد»، فيرون أنَّ الألوهية حلَّت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه! بل الإله في المذهب النصيري حلَّ في البشرية منذ بدء الخليقة...

ومن معتقدات النصيرية القول بالتناسخ...

وبناء على قراءة هذه النصوص من كتابهم الشهير أو كتاب «الباكورة السليمانية» لسليمان أفندي الأذني الذي كان من شيوخهم ثم تنصر، أقول بناء على ذلك يظهر أنَّ القول بالتناسخ من الدعائم الرئيسية والأركان الهامة في المذهب النصيري، وهو عندهم بديل البعث والقيامة والحساب والجزاء، والثواب والعقاب ليس في الجنة

---

(١) وهذا الكتاب فيه بيان لتفاصيل الديانة النصيرية، وقد طبعته دار الصحوة.

أو النار في الآخرة، وإنما هو في هذه الدنيا حسب التراكيب والتقمصات الناسوتية والمسخوية التي تصيب الروح.

وإذا تجاوزنا العقائد إلى العبادات، فالعبادات عندهم لها معنى آخر غير المعنى الظاهر الذي أراده الله -تعالى- منها...

هذه بعض معتقدات النصيرية ومقالاتهم، وعندما نعرضها على الوحيين الشريفين، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ نجدها تخالف ما جاء في الوحيين جملة وتفصيلاً، يعرف ذلك من له إلمام بشريعة الإسلام، ولذا كفَّر علماء الملة هذه الطائفة؛ لكفرها بالله، وإشراكها بعبوديته، وإبطالها لشريعته، واستحلالها لما حرمه الله تحريمًا جليًا واضحًا، وتأويلها لأركان الإسلام العظام!...)[1].

لقد جاء الوقت ليُكشَف عن حقيقة هؤلاء الزنادقة التي جهلها أو نسيها أكثر الناس، ولقد كُشفوا على حقيقتهم قبل أن يبلغوا غايتهم، فكم أظهر الإعلام بطولة هؤلاء وتستر على فضائحهم وخياناتهم، وألقى عليهم من أوصاف المواجهة والصمود والبطولة والجهاد... وهكذا يصنع اليهود.

وإنَّ الذي يقرأ عقيدة وتاريخ هؤلاء الزنادقة يدرك دون ريب أنهم أخطر على الإسلام من اليهود والصليبيين.

ومهما قلت في هذه المقدمة الموجزة من التهويل والتكبير لخطورة النصيريين فإني لن

(١) فتاوى واستشارات.

أبلغ عُشر معشار حقيقتهم، لذلك سوف أترك لك أيها الأخ تتلقى تفاصيل عقائدهم وخطرهم ممن توسع في الحديث عنهم، أما نحن فسنوجز القول فيهم بذكر شيء من عقائدهم، ونتف من تاريخهم، وأقوال العلماء في حكمهم، وخاتمة في ضرورة قتالهم.

عقائدهم وشيء من تاريخهم:

جاء في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة مايلي: (النصيرية حركة باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة، أصحابها يعدُّون من غلاة الشيعة الذين زعموا وجودًا إلهيًّا في علي وألهوه به، مقصدهم هدم الإسلام ونقض عراه، وهم مع كل غاز لأرض المسلمين، ولقد أطلق عليهم الاستعمار الفرنسي لسوريا اسم العلويين تمويهًا وتغطية لحقيقتهم الرافضية والباطنية.

التأسيس وأبرز الشخصيات:

- مؤسس هذه الفرقة أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري «ت ٢٧٠هـ»، عاصر ثلاثة من أئمة الشيعة، وهم علي الهادي «العاشر»، والحسن العسكري «الحادي عشر»، ومحمد المهدي «الموهوم» «الثاني عشر».

- زعم أنه البابُ إلى الإمام الحسن العسكري، وأنه وارثُ علمه، والحجة والمرجع للشيعة من بعده، وأنَّ صفة المرجعية والبابية بقيت معه بعد غيبة الإمام المهدي.

- ادعى النبوة والرسالة، وغلا في حق الأئمة، إذ نسبهم إلى مقام الألوهية.

- خلفه على رئاسة الطائفة محمد بن جندب.

- ثم أبو محمد عبد الله بن محمد الجنان الجنبلاني (٢٣٥ ـ ٢٨هـ) من جنبلا بفارس، وكنيته العابد والزاهد والفارسي، سافر إلى مصر، وهناك عرض دعوته إلى الخصيبي.

- حسين بن علي بن الحسين بن حمدان الخصيبي: المولود سنة ٢٦٠ هـ، مصري الأصل، جاء مع أستاذه عبد الله بن محمد الجُنبلاني من مصر إلى جنبلا، وخلفه في رئاسة الطائفة، وعاش في كنف الدولة الحمدانية بحلب، كما أنشأ للنصيرية مركزين، أولهما: في حلب ورئيسه محمد علي الجلي، والآخر في بغداد ورئيسه علي الجسري.

- وقد توفي في حلب، وقبره معروف بها، وله مؤلفات في المذهب، وأشعار في مدح آل البيت، وكان يقول بالتناسخ والحلول.

- انقرض مركز بغداد بعد حملة هولاكو عليها.

- انتقل مركز حلب إلى اللاذقية، وصار رئيسه أبو سعد الميمون سرور بن قاسم الطبراني (٣٥٨ ـ ٤٢٧ هـ).

- اشتدت هجمات الأكراد والأتراك عليهم مما دعاهم إلى الاستنجاد بالأمير حسن المكزون السنجاري (٥٨٣ـ ٦٣٨هـ)، ومداهمة المنطقة مرتين، فشل في حملته الأولى ونجح في الثانية حيث أرسى قواعد المذهب النصيري في جبال اللاذقية.

- ظهر فيهم عصمة الدولة حاتم الطوبان حوالي ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، وهو كاتب الرسالة القبرصية.

- وظهر حسن عجرد من منطقة أعنا، وقد توفي في اللاذقية سنة ٨٣٦ هـ/

١٤٣٢م.

- نجد بعد ذلك رؤساء تجمعات نصيرية كتلك التي أنشأها الشاعر القمري محمد بن يونس كلاذي ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م قرب أنطاكية، وعلي الماخوس وناصر نصيفي ويوسف عبيدي.

- سليمان أفندي الأذني: ولد في أنطاكية سنة ١٢٥٠هـ، وتلقى تعاليم الطائفة، لكنه تنصر على يد أحد المبشرين، وهرب إلى بيروت حيث أصدر كتابه "الباكورة السليمانية"، يكشف فيه أسرار هذه الطائفة، استدرجه النصيريون بعد ذلك وطمأنوه، فلما عاد، وثبوا عليه وخنقوه واحرقوا جثته في إحدى ساحات اللاذقية.

- عرفوا تاريخيًا باسم النصيرية، وهو اسمهم الأصلي ولكن عندما شُكِّل حزب سياسي في سوريا باسم "الكتلة الوطنية"، **أراد الحزب أن يقرِّب النصيرية إليه؛ ليكتسبهم فأطلق عليهم اسم العلويين**، وصادف هذا هوى في نفوسهم، وهم يحرصون عليه الآن، هذا وقد أقامت فرنسا لهم دولة أطلقت عليها اسم **"دولة العلويين"**، وقد استمرت هذه الدولة من سنة ١٩٢٠م إلى سنة ١٩٣٦م.

- محمد أمين غالب الطويل: شخصية نصيرية، كان أحد قادتهم أيام الاحتلال الفرنسي لسوريا، ألف كتاب **"تاريخ العلويين"**، يتحدث فيه عن جذور هذه الفرقة.

- سليمان الأحمد: شغل منصبًا دينيًّا في دولة العلويين عام ١٩٢٠م.

- **سليمان المرشد**[1]: **كان راعي بقر، لكنَّ الفرنسيين احتضنوه وأعانوه على ادعاء** الربوبية، كما اتخذ له رسولاً "سليمان الميده" وهو راعي غنم، ولقد قضت عليه حكومة الاستقلال، وأعدمته شنقًا عام ١٩٤٦ م.

- **جاء بعده ابنه مجيب،** وادعى الألوهية، لكنه قتل أيضًا على يد رئيس المخابرات السورية آنذاك سنة ١٩٥١م، وما تزال فرقة "المواخسة" النصيرية يذكرون اسمه على ذبائحهم.

- ويقال بأنَّ الابن الثاني لسليمان المرشد اسمه "مغيث"، وقد ورث الربوبية المزعومة عن أبيه، واستطاع العلويون "النصيريون" أن يتسللوا إلى التجمعات الوطنية في سوريا، واشتد نفوذهم في الحكم السوري منذ سنة ١٩٦٥ م بواجهة سُنية ثم قام

(١) قال عنه الزركلي في «الأعلام» ٣/ ١١٢: (متأله من النصيرية، من قرية «جوبة برغال» شرقي اللاذقية، بسورية، تلقب بالرب! بدأت سيرته سنة ١٩٢٠م، وسجن سنة ١٩٢٣ ونفي إلى الرقة، حتى سنة ١٩٢٥، وعاد من منفاه، فتزعم أبناء نحلته «النصيرية» وهم من فرق الباطنية، يتسمون بالعلويين (يؤلهون عليًا، ويقولون بالحلول)، وكانت الثورة في سورية أيام عودته قائمة على الفرنسيين، وانتهت بتأليف حكومة وطنية لها شيء من الاستقلال الداخلي، فاستماله الفرنسيون واستخدموه، وجعلوا لبلاد «العلويين» نظامًا خاصًا، فقويت شوكته وتلقب برئيس «الشعب العلوي الحيدري الغساني»، وعين سنة ١٩٣٨ قضاة وفدائيين، وفرض الضرائب على القرى التابعة له، وأصدر قرارًا جاء فيه: «نظرا للتعديات من الحكومة الوطنية والشعب السني على أفراد شعبي، فقد شكلت لدفع هذا الاعتداء جيشًا يقوم به الفدائيون والقواد الخ»، وجعل لمن سماهم الفدائيين ألبسة عسكرية خاصة. وكان في خلال ذلك يزور دمشق، نائبًا عن (العلويين) في المجلس النيابي السوري. فلما تحررت سورية وجلا الفرنسيون عنها، ترك له هؤلاء من سلاحهم ما أغراه بالعصيان، فجردت حكومة سورية قوة فتكت ببعض أتباعه، واعتقلته مع آخرين، ثم قتلته شنقًا في دمشق. ولأمين حداد كتاب في سيرته، سماه «مدعي الألوهية في القرن العشرين ط»..

تجمع القوى التقدمية من الشيوعيين والقوميين والبعثيين بحركته الثورية في ١٢ مارس ١٩٧١ م، **وتولى الحكم العلويون رئاسة الجمهورية بقيادة حافظ الأسد ثم ابنه بشار.**

الأفكار والمعتقدات:

- جعل النصيرية عليًا إلهًا، وقالوا بأنَّ ظهوره الروحاني بالجسد الجسماني الفاني كظهور جبريل في صورة بعض الأشخاص.

- لم يكن ظهور «الإله علي» في صورة الناسوت إلا إيناسًا لخلقه وعبيده.

- يحبون «عبد الرحمن بن ملجم» قاتل الإمام علي، ويترضون عنه؛ لزعمهم بأنه قد خلص اللاهوت من الناسوت، ويخطِّئون من يلعنه.

- يعتقد بعضهم أنَّ عليًا يسكن السحاب بعد تخلصه من الجسد الذي كان يقيده، وإذا مرَّ بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن، ويقولون إنَّ الرعد صوته والبرق سوطه.

- يعتقدون أنَّ عليًا خلق محمدًا ﷺ، وأنَّ محمدًا خلق سلمان الفارسي، وأنَّ سلمان الفارسي قد خلق الأيتام الخمسة الذين هم:

- المقداد بن الأسود: ويعدونه رب الناس وخالقهم، والموكل بالرعود.

- أبو ذر الغفاري: الموكل بدوران الكواكب والنجوم.

- عبد الله بن رواحة: الموكل بالرياح، وقبض أرواح البشر.

- عثمان بن مظعون: الموكل بالمعدة وحرارة الجسد وأمراض الإنسان.

- قنبر بن كادان: الموكل بنفخ الأرواح في الأجسام.

- لهم ليلة يختلط فيهم الحابل بالنابل كشأن بعض الفرق الباطنية.

- يعظمون الخمرة، ويحتسونها، ويعظمون شجرة العنب لذلك، ويستفظعون قلعها أو قطعها؛ لأنها هي أصل الخمرة التي يسمُّونها «النور».

- يصلون في اليوم خمس مرات، لكنها صلاة تختلف في عدد الركعات، ولا تشتمل على سجود، وإن كان فيها نوع من ركوع أحيانًا.

- لا يصلون الجمعة، ولا يتمسكون بالطهارة من وضوء ورفع جنابة قبل أداء الصلاة.

- ليس لهم مساجد عامة، بل يصلون في بيوتهم، وصلاتهم تكون مصحوبة بتلاوة الخرافات.

- لهم قدَّاسات شبيهة بقداسات النصارى من مثل:

- قداس الطيب لك أخ حبيب.

- قداس البخور في روح ما يدور في محل الفرح والسرور.

- قداس الأذان وبالله المستعان.

- لا يعترفون بالحج، ويقولون بأنَّ الحج إلى مكة إنما هو كفر وعبادة أصنام!!.

- لا يعترفون بالزكاة الشرعية المعروفة لدينا - نحن المسلمين-، وإنما يدفعون ضريبة إلى مشايخهم، زاعمين بأنَّ مقدارها خمس ما يملكون.

- الصيام لديهم هو الامتناع عن معاشرة النساء طيلة شهر رمضان.

- يبغضون الصحابة بغضًا شديدًا، ويلعنون أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين.

- يزعمون بأنَّ للعقيدة باطنًا وظاهرًا، وأنهم وحدهم العالمون ببواطن الأسرار، ومن ذلك:

- الجنابة: هي موالاة الأضداد، والجهل بالعلم الباطني.

- الطهارة: هي معاداة الأضداد، ومعرفة العلم الباطني.

- الصيام: هو حفظ السر المتعلق بثلاثين رجلاً وثلاثين امرأة.

- الزكاة: يرمز لها بشخصية سلمان.

- الجهاد: هو صب اللعنات على الخصوم وفُشاة الأسرار.

- الولاية: هي الإخلاص للأسرة النصيرية وكراهية خصومها.

- الشهادة: هي أن تشير إلى صيغة (ع. م. س).

- القرآن: هو مدخل لتعليم الإخلاص لعلي، وقد قام سلمان «تحت اسم جبريل» بتعليم القرآن لمحمد.

- الصلاة: عبارة عن خمس أسماء هي: علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة، و«محسن» هذا هو «السر الخفي»، إذ يزعمون بأنه سقْطٌ طرحته فاطمة، وذكر هذه الأسماء يجزئ عن الغسل والجنابة والوضوء.

- اتفق علماء المسلمين على أنَّ هؤلاء النصيريين لا تجوز مناكحتهم، ولا تباح ذبائحهم، ولا يُصلى على من مات منهم، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يجوز استخدامهم في الثغور والحصون...

- الأعياد: لهم أعياد كثيرة تدل على مجمل العقائد التي تشتمل عليها عقيدتهم ومن ذلك:

- عيد النَّيروز: في اليوم الرابع من نيسان، وهو أول أيام سنة الفرس.

- عيد الغدير، وعيد الفراش، وزيارة يوم عاشوراء في العاشر من المحرم ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء.

- يوم المباهلة أو يوم الكساء: في التاسع من ربيع الأول ذكرى دعوة النبي ﷺ لنصارى نجران للمباهلة.

- عيد الأضحى: ويكون لديهم في اليوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة.

- يحتفلون بأعياد النصارى كعيد الغطاس، وعيد العنصرة، وعيد القديسة بربارة، وعيد الميلاد، وعيد الصليب الذي يتخذونه تاريخًا لبدء الزراعة وقطف الثمار وبداية المعاملات التجارية وعقود الإيجار والاستئجار.

- يحتفلون بيوم «دلام» وهو اليوم التاسع من ربيع الأول، ويقصدون به مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرحًا بمقتله وشماتة به.

الجذور الفكرية والعقائدية:

- استمدوا معتقداتهم من الوثنية القديمة، وقدسوا الكواكب والنجوم، وجعلوها مسكنًا للإمام علي.

- تأثروا بالأفلاطونية الحديثة، ونقلوا عنهم نظرية الفيض النوراني على الأشياء.

- بنوا معتقداتهم على مذاهب الفلاسفة المجوس.

- أخذوا عن النصرانية، ونقلوا عن الغنوصية النصرانية، وتمسكوا بما لديهم من التثليث والقداسات وإباحة الخمور.

- نقلوا فكرة التناسخ والحلول عن المعتقدات الهندية والآسيوية الشرقية.

- هم من غلاة الشيعة، مما جعل فكرهم يتسم بكثير من المعتقدات الشيعية، وبالذات تلك المعتقدات التي قالت بها الرافضة بعامة والسبئية «جماعة عبد الله بن سبأ اليهودي» بخاصة.

- **ويتضح مما سبق:**

أنَّ النصيرية فرقة باطنية ظهرت في القرن الثالث للهجرة، وهي فرقة غالية، خلعت ربقة الإسلام، وطرحت معانيه، ولم تستبق لنفسها منه سوى الاسم، ويعتبرهم أهل السنة خارجين عن الإسلام، ولا يصح أن يعاملوا معاملة المسلمين، بسبب أفكارهم الغالية وآرائهم المتطرفة، ومن ذلك آراؤهم التي تهدم أركان الإسلام، فهم لا يصلون الجمعة، ولا يتمسكون بالطهارة، ولهم قداسات شبيهة بقداسات النصارى، ولا

يعترفون بالحج أو الزكاة الشرعية المعروفة في الإسلام)[١]. انتهى ما جاء من الموسوعة.

وسنذكر بعض ما قاله علماؤنا فيهم زيادة في البيان:

قال الصفدي: (قلت: قال العلماء إنَّ النصيرية والإسحاقية فرقتان اعتقادهما متقارب مع اختلاف يسير بينهما، زعم بعضهم أنَّ في علي جزءاً إلهيًّا وكذلك في أولاده. ومنهم من قال: **كان علي شريكًا لرسول الله ﷺ في النبوة،** غير أنَّ النصيرية أميل إلى تقرير الجزء الإلهي، والإسحاقية أميل إلى القول بالاشتراك في النبوة، وذهب الفريقان إلى القول بالتناسخ على ما حكي عنهم، ولهم مخاطبات عجيبة واعتقادات غريبة تخالف الدين وتفارق إجماع المسلمين وتوجب التكفير لإخفائها، ومذهبهم يقارب مذهب النصارى واعتقادهم في المسيح عليه السلام)[٢].

وقال الشيخ أحمد العدوي العمري (ت٧٤٩هـ): (وهم القائلون بألوهية علي، وإذا مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن، ويزعمون أنَّ السحاب مسكنه، ويقولون إنَّ الرعد صوته، وإنَّ البرق ضحكه، وإنَّ سلمان الفارسي رسوله، ويحبون ابن ملجم، ويقولون إنه خلَّص اللاهوت من الناسوت، ولهم خطاب بينهم، من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم، ولا يذيعه ولو ضربت عنقه، وقد جرب هذا كثيرًا. وهم طائفة ملعونة مرذولة، **مجوسية المعتقد،** لا تحرم البنات ولا الأخوات ولا

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ١/ ٣٩٠-٣٩٥.

(٢) الوافي بالوفيات.

الأمهات، ويحكى عنهم في هذا حكايات، ولهم اعتقاد في تعظيم الخمر، ويرون أنها من النور، ولهم قول في تعظيم النور مثل قول المجوس أيضًا أو يقاربه)[١].

وقال الجرجاني: (النصيرية قالوا: إنَّ الله حلَّ في علي رضي الله عنه)[٢].

وقال الإيجي: (النصيرية والإسحاقية قالوا: حلَّ الله في علي)[٣].

وقال السفاريني: (النصيرية قالوا: إنَّ الله تعالى حلَّ في عليٍّ رضي الله عنه)[٤].

ويلخص الدكتور محمد الوهيبي عقيدتهم فيقول: (وملخصه ما يلي: يعتقدون أنَّ الله يحل في الأشخاص، وأنَّ آخر حلول له كان في علي بن أبي طالب، بل ذهبوا إلى ما يشبه عقيدة التثليث عند النصارى، إذ أنهم ألفوا ثالوثًا يتكون من علي، ومحمد، وسلمان الفارسي، ويزعمون أنَّ العلاقة بين أطراف هذا الثالوث علاقة إيجاد، فعلي خلق محمدًا، ومحمد خلق سلمان، وسلمان خلق الأيتام الخمسة، ويقصدون بهم: المقداد بن الأسود، وأبا ذر الغفاري، وعثمان بن مظعون، وعبد الله بن رواحة، وقنبر بن كادان مولى علي، وأكدوا لهؤلاء مسئوليات معينة في تصريف الكون...)[٥].

ويقول عنهم العلامة محب الدين الخطيب مبينًا بداية نشأتهم: (فاخترع لهم شيطان

---

(١) التعريف بالمصطلح الشريف ص١٩٧.

(٢) التعريفات ص٣١٠.

(٣) المواقف ٣/ ٦٧٥.

(٤) لوامع الأنوار البهية ١/ ٨٣.

(٥) نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف.

من شياطينهم يسمى: «محمد بن نصير» من موالي بني نمير فكرة أنَّ للحسن ولدًا مخبوءًا في سراديب بيت أبيه، ليتمكن هو وزملاؤه من الاحتيال على عوام الشيعة، وأغنيائهم بتحصيل الزكاة منهم باسم إمام موجود، وليواصلوا الادعاء كذبًا أنهم إمامية، وأراد أن يكون هو «الباب» للسرداب الموهوم بين الإمام المزعوم وبين شيعته، ويتولى جمع أموال الزكاة، فخالفه زملاؤه من سائر شياطين هذه المؤامرة وأصروا على أن يكون «الباب» رجل زيات، أو سمان له دكان على باب بيت الحسن العسكري، وكان أهل بيت الحسن وأبيه يأخذون منه حاجتهم المنزلية. فلما وقع هذا الاختلاف انفصل عنهم صاحب الاختراع، وأسس مذهب النصيرية المنسوب إليه، وكان زملاؤه يريدون أن يجدوا حيلة لإظهار ثاني عشرهم المزعوم، وأن يتزوج ليكون منه ولد وأحفاد يتولون الإمامة، ويستمر بهم مذهب الإمامية، ولكن تبين أنَّ ظهوره سيدعوا إلى التكذيب به من نقابة العلويين، وجميع العلويين، وبني عمومتهم من خلفاء بني العباس، وأمرائهم، فزعموا أنه بقي في السرداب، وأنَّ له غيبة صغرى، وغيبة كبرى إلى آخر هذه الأسطورة التي لم يسمع مثلها ولا في أساطير اليونان، ويريدون من جميع المسلمين الذين أنعم الله عليهم بنعمة العقل أن يصدقوا هذه الأكذوبة؛ ليتسنى التقريب بينهم وبين الشيعة وهيهات هيهات! إلا أنَّ يتحول العالم الإسلامي كله إلى "مارستان" لمعالجة الأمراض العقلية، والحمد لله على نعمة العقل فإنها مناط التكليف، وهي بعد

صحة الإيمان أجلُّ النعم وأكرمها)[١].

ويذكر الدكتور عبد الرحمن المحمود شيئًا من تاريخهم فيقول: (وفي عهد المماليك كانوا يسكنون السواحل الشامية، وبعض الجبال في الكسروان وغيره، وكانوا موالين أتم الموالاة للنصارى وللتتار، وقد حرص الظاهر بيبرس على القضاء عليهم عن طريق إلزامهم ببناء المساجد في كل قرية، ولكنهم «بنوا بكل قرية مسجدًا بعيدا عن العمارة، ولا يدخلونه ولا يعمرونه، وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم، وربما وصل الغريب إليهم فينزل بالمسجد، ويؤذن إلى الصلاة فيقولون: لا تنهق علفك يأتيك» استهزاء وسخرية... وقد حفظ لنا صاحب «صبح الأعشى» وثيقة تشتمل على مرسوم أصدره الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٧ هـ يلغي فيه بعض المكوس في المملكة الطرابلسية، ويأمر بإبطال بعض المنكرات، ويذكر منكرات النصيرية، ومما ورد فيه عنهم: ومنها: أنَّ بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرى سكانها يعرفون بالنصيرية لم يلج الإسلام لهم قلبًا، ولا خالط لهم لبًّا، ولا أظهروا له بينهم شعارا... ثم يقول: وأما النصيرية فليعمروا في بلادهم بكل قرية مسجدًا... وكذلك رسمنا أيضًا بمنع النصيرية من الخطاب، وأن لا يمكنوا بعد ورود هذا من الخطاب جملة كافية، وتؤخذ الشهادة على أكابرهم ومشايخ قراهم؛ لئلا يعود أحد منهم إلى التظاهر بالخطاب، ومن تظاهر به

---

(١) الخطوط العريضة ص٣٨-٣٩.

قوبل أشد مقابلة)[١].

ويخطأ أعظم الخطأ من يقيس عقائد الشيعة بعقائد النصيريين العلويين، فإنَّ كفر هؤلاء لا يبلغه اليهود ولا النصارى فضلاً عن الشيعة، بل ما العقائد الشيعية إلا حمار يتخذه هؤلاء للدخول من بوابة الإسلام للقضاء عليه.

يقول الدكتور القفاري: (بل إنَّ كتب الشيعة القديمة تكفِّر النصيرية، وتعتبرها فرقة خارجة عن الإسلام، انظر ذلك في بحار الأنوار: ٢٥/ ٢٨٥)[٢].

وفي غِلَظ كفرهم وأنهم أكفر من اليهود والنصارى، وعداوتهم للمسلمين، تأمل مايقوله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فيهم: (هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم؛ فإنَّ هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع، وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله، ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ، ولا بملة من الملل السالفة؛ بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها، يدعون أنها علم الباطن، من جنس ما ذكر من السائل،

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ١/ ١١٩.
(٢) أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية ٣/ ٩٧٨.

ومن غير هذا الجنس، فإنه ليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته، وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه، إذ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق، مع التظاهر بأنَّ لهذه الأمور حقائق يعرفونها من جنس ما ذكر السائل، ومن جنس قولهم : أنَّ «الصلوات الخمس»معرفة أسرارهم، «والصيام المفروض» كتاب أسرارهم، «وحج البيت العتيق» زيارة شيوخهم، وأنَّ «يدا أبي لهب» هما أبو بكر وعمر، وأنَّ البناء العظيم والإمام المبين هو علي بن أبي طالب، **ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنفة، فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرة الحجاج وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود وبقي عندهم مدة**، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وصنفوا كتبًا كثيرة مما ذكره السائل وغيره، وصنف علماء المسلمين كتبًا في كشف أسرارهم وهتك أستارهم، وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة والإلحاد، الذي هم به أكفر من اليهود والنصارى ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام. وما ذكره السائل في وصفهم قليل من الكثير الذي يعرفه العلماء في وصفهم، **ومن المعلوم عندنا أنَّ السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائمًا مع كل عدوٍّ للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين**، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل، وانقهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله تعالى -

النصارى على ثغور المسلمين، فإنَّ ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين، حتى جزيرة قبرص يسر الله فتحها عن قريب، وفتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فتحها معاوية بن أبي سفيان إلى أثناء المائة الرابعة. فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها **فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره**، فإنَّ أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك، ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد، وصلاح الدين وأتباعهما، وفتحوا السواحل من النصارى، وممن كان بها منهم، وفتحوا أيضًا أرض مصر؛ فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مئتي سنة، واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالديار المصرية والشامية، **ثم إنَّ التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين** إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم؛ فإنَّ منجم هولاكو الذي كان وزيرهم وهو النصير الطوسي كان وزيرًا لهم بالألموت، وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء.

ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارة يسمون «الملاحدة»، وتارة يسمون «القرامطة»، وتارة يسمون «الباطنية»، وتارة يسمون «الإسماعيلية»، وتارة يسمون «النصيرية»، وتارة يسمون «الخرمية»، وتارة يسمون «المحرمة»، وهذه الأسماء منها ما يعمهم، ومنها ما يخص بعض أصنافهم، كما أنَّ الإسلام والإيمان يعم المسلمين،

ولبعضهم اسم يخصه إما لنسب، وإما لمذهب، وإما لبلد، وإما لغير ذلك، وشرح مقاصدهم يطول، وهم كما قال العلماء فيهم: **ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض**. وحقيقة أمرهم أنهم لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين؛ لا بنوح، ولا إبراهيم، ولا موسى، ولا عيسى، ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولا بشيء من كتب الله المنزلة، لا التوراة، ولا الإنجيل، ولا القرآن. ولا يقرون بأنَّ للعالم خالقًا خلقه، ولا بأنَّ له دينًا أمر به، ولا أنَّ له دارًا يجزي الناس فيها على أعمالهم على هذه الدار. وهم تارة يبنون قولهم على مذاهب الفلاسفة الطبيعيين أو الإلهيين، وتارة يبنونه على قول المجوس الذين يعبدون النور، ويضمون إلى ذلك الرفض. ويحتجون لذلك من كلام النبوات: إما بقول مكذوب ينقلونه، كما ينقلون عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله العقل»، والحديث موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث، ولفظه: «إنَّ الله لما خلق العقل، فقال له: أقبل، فأقبل. فقال له: أدبر، فأدبر». فيحرفون لفظه فيقولون: «أول ما خلق الله العقل»؛ ليوافقوا قول المتفلسفة أتباع أرسطو في أنَّ أول الصادرات عن واجب الوجود هو العقل. وإما بلفظ ثابت عن النبي ﷺ فيحرفونه عن مواضعه، كما يصنع أصحاب «رسائل إخوان الصفا» ونحوهم، فإنهم من أئمتهم. وقد دخل كثير من باطلهم على كثير من المسلمين، وراج عليهم حتى صار ذلك في كتب طوائف من المنتسبين إلى العلم والدين، وإن كانوا لا يوافقونهم على أصل كفرهم، فإنَّ هؤلاء لهم في إظهار دعوتهم الملعونة التي يسمونها «الدعوة الهادية»

درجات متعددة، ويسمون النهاية «البلاغ الأكبر والناموس الأعظم»، ومضمون البلاغ الأكبر جحد الخالق تعالى، والاستهزاء به، وبمن يقر به، حتى قد يكتب أحدهم اسم الله في أسفل رجله، وفيه أيضًا جحد شرائعه ودينه وما جاء به الأنبياء، ودعوى أنهم كانوا من جنسهم طالبين للرئاسة، فمنهم من أحسن في طلبها، ومنهم من أساء في طلبها حتى قتل، ويجعلون محمدًا وموسى من القسم الأول، ويجعلون المسيح من القسم الثاني. وفيه من الاستهزاء بالصلاة، والزكاة والصوم والحج، ومن تحليل نكاح ذوات المحارم، وسائر الفواحش ما يطول وصفه. ولهم إشارات ومخاطبات يعرف بها بعضهم بعضًا. وهم إذا كانوا في بلاد المسلمين التي يكثر فيها أهل الإيمان فقد يخفون على من لا يعرفهم، وأما إذا كثروا فإنه يعرفهم عامة الناس فضلاً عن خاصتهم. وقد اتفق علماء المسلمين على أنَّ هؤلاء لا تجوز مناكحتهم، ولا يجوز أن ينكح الرجل مولاته منهم، ولا يتزوج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم)[1].

وقال رحمه الله: (...فإنَّ الملاحدة من الباطنية الإسماعيلية وغيرهم والغلاة النصيرية وغير النصيرية إنما يظهرون التشيع وهم في الباطن أكفر من اليهود والنصارى، فدل ذلك على أنَّ التشيع دهليز الكفر والنفاق)[2].

وقال رحمه الله: (إنَّ الذي ابتدع الرفض كان يهوديًا، أظهر الإسلام نفاقًا، ودس

(١) مجمو الفتاوى ٩ ١٤ -١٥٤.

(٢) منهاج السنة ٨/ ٤٨٦.

إلى الجهال دسائس يقدح بها في أصل الإيمان؛ ولهذا كان الرفض أعظم أبواب النفاق والزندقة. فإنه يكون الرجل واقفًا، ثم يصير مُفضِّلاً، ثم يصير سبابًا، ثم يصير غاليًا، ثم يصير جاحدًا معطلاً، ولهذا انضمت إلى الرافضة أئمة الزنادقة من الإسماعيلية والنصيرية، وأنواعهم من القرامطة والباطنية، والدرزية، وأمثالهم من طوائف الزندقة، والنفاق)[1].

وقال رحمه الله: (والذين يوجدون في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم من أتباعهم، وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين وكان وزير هولاكو النصير الطوسي من أئمتهم، وهؤلاء أعظم الناس عداوة للمسلمين وملوكهم ثم الرافضة بعدهم)[2].

وقال رحمه الله: (فإنَّ النصيرية أتباع أبي شعيب محمد بن نصير يقولون في علي بن أبي طالب نظير ما يقوله النصارى في المسيح)[3].

وقال الإمام الذهبي: (وهو -يعني عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي- عند الخوارج من أفضل الأمة، وكذلك تعظمه النصيرية. قال الفقيه أبو محمد بن حزم: يقولون إنَّ ابن ملجم أفضل أهل الأرض، خلَّص روح اللاهوت من ظلمة الجسد وكدره.

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٢٨-٤٢٩.
(٢) مجموع الفتاوى ٤/ ٦٣٦.
(٣) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح ٤/ ٣٠٣.

فاعجبوا يا مسلمين لهذا الجنون)[١].

إنَّ الذي يقرأ عقائد هؤلاء يدرك أنها ليست هي العقائد السلبية المترهبنة، بل هي العقيدة المتخصصة لتدمير الإسلام وأهله، فما بالك بعقيدة بنيت على هذا ولهذا، وتبني أجيالها على هذا، ويوم تكون في حالة ضعف واختفاء فإنها تكون في مرحلة الإعداد والتأسيس ليوم الانقضاض، وإذا بلغت مرحلة التمكن تعبدت بالانتقام الذي لم يسبق لم مثيل...

ولذلك فإنه يخطأ أعظم الخطأ من يظن أن ما يفعله النصيريون السوريون اليوم من جرائم لم تُسبق هو دفاع عن النفس فحسب أو هو ردة فعل أو آثار حرب غير محسوبة أو أخطاءً غير مقصودة، بل كل الشناعة التي رأيناها إنما هي مقدمات تعطي شيئًا من ملامح الانتقام الجارف عند التمكن لا مكنهم الله، ومكننا منهم.

وانظر فيما يقوله الذهبي وابن كثير؛ لترى كيف يعيد التاريخ نفسه، قال الذهبي: (وفيها ظهر جبليٌ ادعى أنه المهدي بجبلة، وثار معه خلق من النصيرية والجهلة، فقال: أنا محمد المصطفى. ومرة قال: أنا عليٌ. وتارة قال: أنا محمد بن الحسن المنتظر. وزعم أنَّ الناس كفرة وأنَّ دين النصيرية هو الحق. وأنَّ الناصر صاحب مصر قد مات. وعاثوا بالساحل، واستباحوا جبلة، ورفعوا أصواتهم بقول: لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان. ولعنوا الشيخين، وخربوا المساجد، **وكانوا**

(١) تاريخ الإسلام ٣/ ٦٥٣-٦٥٤.

يحضرون المسلم إلى طاغيتهم ويقولون: اسجد لإلهك. فسار إليهم عسكر طرابلس وقتل الطاغية وجماعة وتمزقوا)[(١)].

وقال ابن كثير: (وفي هذه السنة خرجت النصيرية عن الطاعة، وكان من بينهم رجل سموه محمد بن الحسن المهدي القائم بأمر الله، وتارة يدعي علي بن أبي طالب فاطر السموات والارض، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا. وتارة يدعي أنه محمد بن عبد الله صاحب البلاد، وخرج يكفِّر المسلمين، وأنَّ النصيرية على الحق، واحتوى هذا الرجل على عقول كثير من كبار النصيرية الضلال، وعيَّن لكل إنسان منهم تقدمة ألف، وبلادًا كثيرة ونيابات، وحملوا على مدينة جبلة فدخلوها وقتلوا خلقًا من أهلها، وخرجوا منها يقولون لا إله إلا علي، ولا حجاب إلا محمد، ولا باب إلا سلمان. وسبوا الشيخين، وصاح أهل البلد واإسلاماه، واسلطاناه، واأميراه، فلم يكن لهم يومئذ ناصر ولا منجد، وجعلوا يبكون ويتضرعون إلى الله عزوجل، فجمع هذا الضال تلك الأموال فقسمها على أصحابه وأتباعه قبحهم الله أجمعين. وقال لهم لم يبق للمسلمين ذكر ولا دولة، ولو لم يبق معي سوى عشرة نفر لملكنا البلاد كلها. ونادى في تلك البلاد إنَّ المقاسمة بالعشر لا غير؛ ليرغب فيه، وأمر أصحابه بخراب المساجد واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين: قل لا إله إلا علي، واسجد لآلهك المهدي، الذي يحيي ويميت حتى يحقن دمك، ويكتب لك فرمان. وتجهزوا

(١) العبر في خبر من غبر ٤/ ٤٦.

وعملوا أمرًا عظيما جدًا، فجردت إليهم العساكر فهزموهم وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا، وقُتل المهدي أضلهم، وهو يكون يوم القيامة مقدمهم إلى عذاب السعير، كما قال تعالى: كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤ ﴾ [الحج][(١)].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ فساد عوامهم أشد من فساد اليهود والنصارى فقال: (فاعتبر عوام هؤلاء -يعني عوام النصيرية ونحوهم- مع عوام اليهود والنصارى تجد عوام اليهود والنصارى أقل فسادًا في الدنيا والدين من أولئك، وتجد أولئك أفسد عقلاً ودينًا)[(٢)].

فما نراه من ترسيخهم أنجس عقيدة بجعل بشار شريكًا مع الله وطلب السجود له، ودفن الشباب أحياءً مع طلب جنده من ذاك المسلم المقبور حيًا إعلان ألوهية بشار...، إنها ليست فلتات لسان من جنود، بل عقيدة راسخة نبه عليها علماؤنا السابقون، وأبى الله سبحانه إلا أن يظهرها في هذا الزمان الذي ما عاد كثير من أهل العلم يحملون كلام العلماء السابقين على حقيقته ويظنونه وصفًا مبالغًا في هؤلاء الزنادقة، وأنهم لا يستحقون ذلك، ولذا كان لابد أن نعرف ما قاله علماؤنا السابقون واللاحقون فيهم

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٨٣-٨٤.
(٢) درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٦٦-٦٧.

لنعرف الحقيقة، وندرك خطورة التهاون في دراسة هؤلاء، واتخاذ الواجب نحوهم، فإنَّ هذا زمانهم فلنجعله آخر زمانٍ لهم ولنجعله زمان زوالهم إلى الأبد بحول الله وقوته.

أقوال العلماء في حكم النصيرية:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (هؤلاء الدرزية والنصيرية كفار باتفاق المسلمين، لا يحلُّ أكل ذبائحهم، ولا نكاح نسائهم، بل ولا يقرون بالجزية؛ فإنهم مرتدون عن دين الإسلام، ليسوا مسلمين، ولا يهود، ولا نصارى، لا يقرون بوجوب الصلوات الخمس، ولا وجوب صوم رمضان، ولا وجوب الحج، ولا تحريم ما حرم الله ورسوله من الميتة والخمر وغيرهما، **وإن أظهروا الشهادتين مع هذه العقائد فهم كفار باتفاق المسلمين.**

فأما «النصيرية» فهم أتباع أبي شعيب محمد بن نصير، وكان من الغلاة الذين يقولون: إنَّ عليًّا إله، وهم ينشدون:

أشهد أن لا إله إلا حيدرة الأنزع البطين

ولا حجاب عليه إلا محمد الصادق الأمين

ولا طريق إليه إلا سلمان ذو القوة المتين

وأما «الدرزية» فأتباع هشتكين الدرزي، وكان من موالي الحاكم أرسله إلى أهل

وادي تيم الله بن ثعلبة، فدعاهم إلى إلهية الحاكم، ويسمونه «الباري، العلام» ويحلفون به، وهم من الإسماعيلية القائلين بأنَّ محمد بن إسماعيل نسخ شريعة محمد بن عبد الله، **وهم أعظم كفرًا من الغالية**، يقولون بقدم العالم، وإنكار المعاد، وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله أو مجوسًا، وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس، ويظهروا التشيع نفاقًا، والله أعلم)[1].

وقال رحمه الله: (ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين. ولا يصلى على من مات منهم؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى نهى نبيه ﷺ عن الصلاة على المنافقين: كعبد الله بن أبي، ونحوه، وكانوا يتظاهرون بالصلاة والزكاة والصيام والجهاد مع المسلمين، ولا يظهرون مقالة تخالف دين الإسلام، لكن يسرون ذلك، فقال الله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة]، فكيف بهؤلاء الذين هم مع الزندقة والنفاق يظهرون الكفر والإلحاد...

وإذا أظهروا التوبة ففي قبولها منهم نزاع بين العلماء، فمن قبل توبتهم إذا التزموا شريعة الإسلام أقر أموالهم عليهم، ومن لم يقبلها لم تنقل إلى ورثتهم من جنسهم؛ فإنَّ مالهم يكون فيئًا لبيت المال، لكنَّ هؤلاء إذا أخذوا فإنهم يظهرون التوبة؛ لأنَّ أصل مذهبهم التقية وكتمان أمرهم، وفيهم من يعرف، وفيهم من قد لا يعرف، فالطريق في

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٦١-١٦٢.

ذلك أن يحتاط في أمرهم، فلا يتركون مجتمعين، ولا يمكنون من حمل السلاح، ولا أن يكونوا من المقاتلة، ويلزمون شرائع الإسلام: من الصلوات الخمس، وقراءة القرآن، ويترك بينهم من يعلمهم دين الإسلام، ويحال بينهم وبين معلمهم...)[1].

وفي مجموع الفتاوى لابن تيمية: (وسئل رحمه الله عن طائفة من رعية البلاد كانوا يرون مذهب النصيرية، ثم أجمعوا على رجل، واختلفت أقوالهم فيه، فمنهم من يزعم أنه إله، ومنهم من يزعم أنه نبي مرسل، ومنهم من ادعى أنه محمد بن الحسن -يعنون المهدي- وأمروا من وجدوه بالسجود له، وأعلنوا بالكفر بذلك، وسب الصحابة، وأظهروا الخروج عن الطاعة، وعزموا على المحاربة. فهل يجب قتالهم وقتل مقاتلتهم؟ وهل تباح ذراريهم وأموالهم أم لا؟

فأجاب: الحمد لله، هؤلاء يجب قتالهم ما داموا ممتنعين حتى يلتزموا شرائع الإسلام؛ فإنَّ النصيرية من أعظم الناس كفرًا بدون اتباعهم لمثل هذا الدجال، فكيف إذا اتبعوا مثل هذا الدجال؟! وهم مرتدون من أسوأ الناس ردة، تُقتل مقاتلتهم، وتُغنم أموالهم، وسبي الذرية فيه نزاع، لكنَّ أكثر العلماء على أنه تُسبى الصغار من أولاد المرتدين، وهذا هو الذي دلت عليه سيرة الصديق في قتال المرتدين. وكذلك قد تنازع العلماء فى استرقاق المرتدة، فطائفة تقول: إنها تسترق، كقول أبى حنيفة، وطائفة تقول: لا تسترق، كقول الشافعي وأحمد. والمعروف عن الصحابة هو الأول،

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٥٥-١٥٧.

وأنه تسترق منه المرتدات نساء المرتدين؛ فإنَّ الحنفية التي تسرَّى بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمُّ ابنه محمد بن الحنفية، من سبي بني حنيفة المرتدين، الذين قاتلهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه والصحابة لما بعث خالد بن الوليد في قتالهم.

والنصيرية لا يكتمون أمرهم، بل هم معروفون عند جميع المسلمين، لا يصلون الصلوات الخمس، ولا يصومون شهر رمضان، ولا يحجون البيت، ولا يؤدون الزكاة، ولا يقرون بوجوب ذلك، ويستحلون الخمر وغيرها من المحرمات، ويعتقدون أنَّ الإله علي بن أبي طالب...

وأما إذا لم يظهروا الرفض، وأنَّ هذا الكذاب هو المهدي المنتظر، وامتنعوا؛ فإنهم يقاتلون أيضًا، لكن يقاتلون كما يقاتل الخوارج المارقون، الذين قاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأمر رسول الله ﷺ، وكما يقاتل المرتدون الذين قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فهؤلاء يقاتلون ما داموا ممتنعين، ولا تُسبى ذراريهم، ولا تغنم أموالهم التي لم يستعينوا بها على القتال، وأما ما استعانوا به على قتال المسلمين من خيل وسلاح وغير ذلك، ففي أخذه نزاع بين العلماء، وقد روي عن علي بن أبي طالب أنه نهب عسكرُه ما في عسكر الخوارج، فإن رأى ولي الأمر أن يستبيح ما في عسكرهم من المال كان هذا سائغًا، هذا ما داموا ممتنعين، فإن قدر عليهم، فإنه يجب أن يُفرِّق شملهم، وتحسم مادة شرهم، وإلزامهم شرائع الإسلام، وقتل من أصرَّ على الردة منهم.

وأما قتْل من أظهر الإسلام وأبطن كفرًا منه، وهو المنافق الذى تسميه الفقهاء الزنديق، فأكثر الفقهاء على أنه يقتل وإن تاب، كما هو مذهب مالك، وأحمد في أظهر الروايتين عنه، وأحد القولين في مذهب أبي حنيفة والشافعي.

ومن كان داعيًا منهم إلى الضلال لا ينكف شره إلا بقتله قُتل أيضًا، وإن أظهر التوبة، وإن لم يحكم بكفره، كأئمة الرفض الذين يضلون الناس، كما قتل المسلمون غيلان القدري، والجعد بن درهم، وأمثالهما من الدعاة، فهذا الدجال يُقتل مطلقًا، والله أعلم)[1].

وقال رحمه الله: (**ولا ريب أنَّ جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات**، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب؛ فإنَّ جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة بدؤا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب؛ فإنَّ جهاد هؤلاء حفظٌ لما فتح من بلاد المسلمين، وأن يدخل فيه من أراد الخروج عنه، وجهاد من لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين، وحفظ رأس المال مقدَّم على الربح، وأيضًا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك، بل ضرر هؤلاء من جنس ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، وضررهم في الدين على كثير من الناس أشد من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب، ويجب على كل مسلم أن

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٥٣-٥٥٥.

يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب، **فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم**، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم... ولا يحل لأحد أن يعاونهم على بقائهم في الجند والمستخدمين، ولا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله به ورسوله، ولا يحل لأحد أن ينهى عن القيام بما أمر الله به ورسوله؛ فإنَّ هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة ٧٣]، وهؤلاء لا يخرجون عن الكفار والمنافقين، والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإنَّ المقصود بالقصد الأول هو هدايتهم، كما قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران ١١٠]، قال أبو هريرة: كنتم خير الناس للناس تأتون بهم من القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الإسلام. فالمقصود بالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هداية العباد لمصالح المعاش والمعاد بحسب الإمكان، فمن هداه الله سعد في الدنيا والآخرة، ومن لم يهتد كف الله ضرره عن غيره. ومعلوم أنَّ الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو أفضل الأعمال، كما قال ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله تعالى»[1]. وفي الصحيح

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣١، وعبد بن حميد (١١٢)، والترمذي (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٣٩٤). وصححه الألباني وشعيب.

عنه ﷺ أنه قال: «إنَّ في الجنة لمئة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، أعدها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله». وقال ﷺ: «رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه»[(١)]. ومن مات مرابطًا مات مجاهدًا، وجرى عليه عمله، وأجري عليه رزقه من الجنة، وأمن الفتنة. والجهاد أفضل من الحج والعمرة، كما قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة][(٢)]).

وقال رحمه الله: (والغالية يقتلون باتفاق المسلمين، وهم الذين يعتقدون الإلهية والنبوة في علي وغيره، مثل النصيرية والإسماعيلية الذين يقال لهم بيت صاد وبيت سين، ومن دخل فيهم من المعطلة الذين ينكرون وجود الصانع أو ينكرون القيامة أو ينكرون ظواهر الشريعة، مثل الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وحج البيت الحرام، ويتأولون ذلك على معرفة أسرارهم وكتمان أسرارهم وزيارة شيوخهم،

---

(١) أخرجه عن سلمان مرفوعًا مسلم (١٩١٣) (١٦٣)، وأحمد ٥/ ٤٤١ و٦/ ٥٠ و٥١، والترمذي (١٦٦٥)، والنسائي ٦/ ٣٩.
(٢) مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٤٩-١٦٠.

ويرون أنَّ الخمر حلال لهم، ونكاح ذوات المحارم حلال لهم، **فإنَّ جميع هؤلاء الكفار أكفر من اليهود والنصارى، فإن لم يظهر عن أحدهم ذلك كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، ومن أظهر ذلك كان أشد من الكافرين كفرًا**، فلا يجوز أن يقر بين المسلمين لا بجزية ولا ذمة، ولا يحل نكاح نسائهم، ولا تؤكل ذبائحهم؛ لأنهم مرتدون من شر المرتدين، فإن كانوا طائفة ممتنعة وجب قتالهم كما يقاتل المرتدون، كما قاتل الصديق والصحابة أصحاب مسيلمة الكذاب، وإذا كانوا في قرى المسلمين فرقوا وأسكنوا بين المسلمين بعد التوبة وألزموا بشرائع الإسلام التي تجب على المسلمين. وليس هذا مختصًا بغالية الرافضة، بل من غلا في أحد من المشايخ، وقال أنه يرزقه، أو يسقط عنه الصلاة، أو أنَّ شيخة أفضل من النبي، أو أنه مستغن عن شريعة النبي، وأنَّ له إلى الله طريقًا غير شريعة النبي، أو أنَّ أحدًا من المشايخ يكون مع النبي كما كان الخضر مع موسى، وكل هؤلاء كفار يجب قتالهم بإجماع المسلمين، وقتل الواحد المقدور عليه منهم.

وأما الواحد المقدور عليه من الخوارج والرافضة، فقد روي عنهما أعني عمر وعلي قتلهما أيضًا، والفقهاء وإن تنازعوا في قتل الواحد المقدور عليه من هؤلاء فلم يتنازعوا في وجوب قتالهم اذا كانوا ممتنعين، فإنَّ القتال أوسع من القتل ،كما يقاتل الصائلون العداة والمعتدون البغاة، وإن كان أحدهم إذا قدر عليه لم يعاقب إلا بما أمر الله ورسوله به.

وهذه النصوص المتواترة عن النبي ﷺ في الخوارج قد أدخل فيها العلماء لفظًا

أو معنى من كان في معناهم من أهل الأهواء الخارجين عن شريعة رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين، بل بعض هؤلاء شر من الخوارج الحرورية مثل الخرمية والقرامطة والنصيرية، وكل من اعتقد في بشر أنه إله أو في غير الانبياء أنه نبي، وقاتل على ذلك المسلمين فهو شر من الخوارج الحرورية. والنبي ﷺ إنما ذكر الخوارج الحرورية؛ لأنهم أول صنف من أهل البدع خرجوا بعده، بل أولهم خرج في حياته، فذكرهم لقربهم من زمانه، كما خص الله ورسوله ﷺ أشياء بالذكر لوقوعها في ذلك الزمان، مثل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[الإسراء ٣١]، وقوله: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة ٥٤]، ونحو ذلك، ومثل تعيين النبى قبائل من الأنصار وتخصيصه أسلم وغفار وجهينة وتميم وأسد وغطفان وغيرهم بأحكام لمعان قامت بهم، وكل من وجدت فيه تلك المعاني ألحق بهم؛ لأنَّ التخصيص بالذكر لم يكن لاختصاصهم بالحكم، بل لحاجة المخاطبين إذ ذاك إلى تعيينهم، هذا إذا لم تكن ألفاظه شاملة لهم)[١].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني: (والطائفة النُّصيرية الزنادقة: معروفون)[٢].

وقال أيضًا: (قلت ولم يذكره -أي إسحاق بن محمد النخعي- في الضعفاء أئمةُ الجرح في كتبهم وأحسنوا، فإنَّ هذا زنديق، وذكره ابن الجوزي، وقال: كان كذابًا من

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٤٧٤-٤٧٧.

(٢) تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ٤/ ١٤٤١.

الغلاة في الرفض. قلت: حاشا عتاة الروافض من أن يقولوا علي هو الله، فمن وصل إلى هذا فهو كافر لعين من أخوان النصارى، وهذه هي نحلة النصيرية)[١] .

وفي حاشية ابن عابدين الحنفي: (مطلب: حكم الدروز والتيامنة والنصيرية والإسماعيلية، تنبيه: يعلم مما هنا حكم الدروز والتيامنة، **فإنهم في البلاد الشامية يظهرون الإسلام والصوم والصلاة مع أنهم يعتقدون تناسخ الأرواح**، وحل الخمر والزنا، وأنَّ الألوهية تظهر في شخص بعد شخص، الحشر والصوم والصلاة والحج، ويقولون المسمى به غير المعنى المراد، ويتكلمون في جناب نبينا ﷺ كلمات فظيعة. وللعلامة المحقق عبد الرحمن العمادي فيهم فتوى مطولة، وذكر فيها أنهم ينتحلون عقائد النصيرية والإسماعيلية الذين يلقبون بالقرامطة، والباطنية الذين ذكرهم صاحب المواقف. **ونقل عن علماء المذاهب الأربعة أنه لا يحل إقرارهم في ديار الإسلام بجزية ولا غيرها**، ولا تحل مناكحتهم ولا ذبائحهم، وفيهم فتوى في الخيرية أيضًا فراجعها)[٢].

وفيها أيضًا: (مطلب: الدروز والتيامنة والنصيرية والبادنية كلهم كفار على أنَّ المولى عبد الرحمن أفندي العمادي نص في فتاويه في كتاب السير على أنَّ الدروز

---

(١) لسان الميزان ١/ ٣٧١.

(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ٢٤٤.

والتيامنة والنصيرية والباطنية كلهم كفار ملاحدة زنادقة في حكم المرتدين)[١].

وقال البهوتي: («والدروز والنصيرية والتبانية» فرق بجبل الشوف وكسروان لهم أحوال شنيعة، وظهرت لهم شوكة أزالها الله تعالى، «لا تحل ذبائحهم، ولا يحل نكاح نسائهم، ولا أن ينكحهم المسلم وليته». قلت: حكمهم كالمرتدين)[٢].

وقال المحبي: (وأما القول فيهم من جهة الاعتقاد فهم -أي الدروز- والنصيرية والإسماعيلية على حد سواء، والجميع زنادقة، وملاحدة، وقد صرح قاضي القضاة ابن العز والشيخ برهان الدين بن عبد الحق من الحنفية، والشيخ صدر الدين ابن الزملكاني والشيخ البلاطنسي والشيخ جمال الدين الشربيني من الشافعية، والشيخ صدر الدين بن الوكيل من المالكية، والشيخ تقي الدين ابن تيمية من الحنابلة في فتاويهم وغيرهم إنَّ كفر هؤلاء الطوائف مما اتفق عليه المسلمون، وأنَّ من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم، وأنهم أكفر من اليهود والنصارى؛ لأنهم لا تحل منا كحتهم ولا تؤكل ذبائحهم، بخلاف أهل الكتاب، وأنهم لا يجوز إقرارهم في ديار الإسلام بجزية ولا بغير جزية ولا في حصون المسلمين، وجزم الشيخ ابن تيمية بأنهم زنادقة، وأنهم أشد كفرًا من المرتدين؛ لأنهم يعتقدون تناسخ الأرواح وحلول الإله في علي...)[٣].

(١) المصدر نفسه ٧/ ١٠٩.
(٢) كشاف القناع ٥/ ٨٥.
(٣) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ٣/ ٢٦٨-٢٦٩.

وقال ابن جبرين: (وهكذا الديانات أو العقائد الفاسدة مثل: النصيرية الموجودة في سوريا وغيرها، لا شك أنهم كفار، فلا يتوارثون مع المسلمين ولو كانوا أقارب لهم)[1].

ولا شك أنَّ عقائد هؤلاء مما لايعذر فيه بالجهل، يقول في ذلك الدكتور الوهيبي: (أما التأويلات التي لا يعذر أصحابها، فتأويلات الباطنية والفلاسفة ونحوهم ممن حقيقة أمرهم تكذيب للدين جملة وتفصيلا، أو تكذيب لأصل لا يقوم الدين إلا به كإنكار الفلاسفة لحشر الأجساد، وقولهم إنَّ الله سبحانه لا يعلم الجزئيات، أو تأويل الفرائض والأحكام بما يخرجها عن حقيقتها وظاهرها، أو الاعتقاد بألوهية بعض البشر كتأليه علي أو الحاكم بأمره كما عند النصيرية والدروز، أو القول بتحريف القرآن، أو تأويل جميع الأسماء والصفات أو القول بسقوط التكاليف عن البعض، ونحو ذلك من الاعتقادات الغالية التي لا تعتمد على أي مستند نصي أو لغوي ولو من وجه محتمل.

يقول ابن الوزير - رحمه الله -: «... وكذلك لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم ضرورة للجميع، وتستر باسم التأويل فيما لا يمكن تأويله كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحسنى بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروي من البعث والقيامة والجنة والنار، وإنما يقع الإشكال في تكفير من قام بأركان الإسلام الخمسة المنصوص

---

(١) شرح عمدة الأحكام (دروس صوتية).

على إسلام من قام بها إذا خالف المعلوم ضرورة للبعض أو للأكثر لا المعلوم له، وتأول وعلمنا من قرائن أحواله أنه ما قصد التكذيب أو التبس ذلك علينا في حقه وأظهر التدين والتصديق بجميع الأنبياء والكتب الربانية مع الخطأ الفاحش في الاعتقاد، ومضادة الأدلة الجلية، ولكن لم يبلغ مرتبة الزنادقة ...»)[1].

(١) نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف.

الخاتمة

مواجهة الطوفان:

لقد دقَّ رأس الحربة ودبب ووجه إلى قلب الإسلام، فكان رأس الحربة هؤلاء النصيريون، وأصبح العالم كله يدفع بالحربة بكل ما أوتي من قوة رغم التظاهر الكاذب بتمثيل الاختلاف بينهم.

ولو أرادوا إنهاء النصيرية وحكومتهم لما كلفهم ذلك رصاصة، ولعملوا ما عملوه مع العراق حين جعلوا للطيران خطوط عرض وطول يمنع فيها تحليق الطائرات العراقية آنذاك ولمنع الصليبيون الطيران من التحليق على بلاد الشام...

لكنَّ المغفلين من بني ديني مازالوا من ذلك في سكرة وهم يصدقون تمثيلية إرادة العالم نصرة الإسلام في الشام ضد نظام بشار المعادي لليهود!!!

لذا فإنَّ قتال هؤلاء النصيريين قتال لكل ملل الكفر عربية طاغوتية ويهودية وصليبية وإلحادية وقرمطية باطنية زنديقية،وفيها تتجلى أعلى وأوسع صور قول الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾[النساء].

ووالله لولا الله لما صبر المجاهدون حتى يومنا هذا، وإنَّ المعركة لتمضي في حقيقتها إلى أجلها، وأجلها هو النصر المحتوم الذي كتبه الله، وإنهم ليسيرون بها إلى منتهاها حيث تحق عليهم الهزيمة الماحقة إلى الأبد بإذن الله، والتي تبتدئ ربما بطمس عيونهم

بإشارة من ملائكة الله الباسطة أجنحتها على الشام أو بأي طريقة أخرى كما ذهبت أعين أسلافهم في الشام حين قالت الملائكة قولتها للوط عليه السلام: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾[هود ٨١]، ثم خطفت أبصارهم وطمست عيونهم بإشارة واحدة من الملائكة ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾[القمر].

فيا جند الله لا تستعجلوا، فما بين هبة جند الله وبين مصرع هؤلاء إلا طلوع الصبح أليس الصبح بقريب: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾[هود].

فوالله ما بسطت ملائكة الله أجنحتها على الشام لتتفرج بل هي أعظم منا غيرة، إنما هو أمر الله الذي لا راد له وقد وعد الله ومن أصدق من الله قيلا...

فسلام علكيم يا من اصطفاكم الله لهذا الواجب العظيم واحمدوا الله عليه كثيرًا، وسبحان من ختم الحسم والهلاك لقوم لوط بقوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[النمل].

وسبحان من لم يحصر قصتها بحدود فترتها أو حدود قريتها إنما جعلها آية بينة لكل من يعقل فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ

يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [العنكبوت].

يا جند الله في الشام: اطمئنوا لنصر الله، وأيقنوا بأنَّ الجن والإنس لو اجتمعوا على قلب رجل واحد في صفٍ واحدٍ وضربوكم عن قوس واحدةٍ لما هزموكم، بل إنَّ نصر هذه الأمة النصر الأخير والنهائي الذي قطعتم منه شوطًا عظيمًا قد انطلق منكم أنتم، فلقد انطلقت الثورات الحديثة من كل مكان فكانت كل ثورة بحدود جغرافية بلدها حتى إذا ابتدأت في الشام دبَّت الروح في أطراف العالم الإسلامي، ولا تزال الأمة ترتج لأجلكم وتتجاوب مع جهادكم، ورسول الله ﷺ يقول: (إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم)[1]، أي فإذا صلح أهل الشام جاءكم الخير وانتشر فيكم، وهذا ما نراه اليوم رؤيا العيان.

يا أهل الجهاد في الشام: إنَّ هذا الخير الذي أحيا قلوب الأمة لهو من البركة التي جعلها الله في الشام كذلك، فهذا هو وصفها الملازم منذ خلقها الله، ووصفها الدائم في كتاب الله كما قال سبحانه: ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا ﴾[الأعراف ١٣٧]. وقال سبحانه: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[الإسراء].وقال سبحانه: ﴿ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[الأنبياء]. وقال سبحانه: ﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٦ و٥/ ٣٤ و٣٥، والترمذي (٢١٩٢)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني وشعيب.

عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[الأنبياء].
وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾[سبأ].

وإنَّ من انحطاط الفهم وجموده أن نفهم تحقق البركة بحدود لقمة العيش ونستبعدها عن الجهاد الذي هو ذروة السنام وأعلى صالحات الأعمال، وبوركت لأجله بهيمة الأنعام، وعقدت في نواصي الخيل البركة لأجله، وأقسم ربنا بخيلها ووصف ربنا حوافرها وغبارها لأجله.

كيف والقتال ضد هؤلاء الزنادقة؟! إنهم يريدونها القاصمة لأهل الإسلام إلى أبد الدهر، ولذا وجب أن نقاتلهم بنية وغاية، ولا نلتفت لحظة إلى من يسمون علماء وهم لا ينطقون بالحق إلا بإذن الطاغوت، فأمر هؤلاء المتلونين لا ينطلي على الله وإن تولوا أعظم محراب في الأرض وما حوله.

ألا فلتتنحوا عنا يا علماء السوء...

فلقد فضحتكم ميادين الجهاد في الشام وميادين الرباط في مصر، وقبل ذلك الجهاد في العراق.

نسأل الله العظيم أن ينصر المجاهدين في كل مكان.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

المحتويات